دعوة فرح

دعوة فرح

(رواية)

شريف مليكة

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: "بورتريه لأبي" بريشة الفنان العالمي السكندري الأصل محمود سعيد (1897–1964)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/٢٦٠٠٨

I.S.B.N 978 – 977 – 490 –566–7

دعوة فرح

رواية

شريف مليكة

دار العين للنشر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

مليكة، شريف.

دعوة فرح: رواية/ شريف مليكة.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٧ ٥٦٦ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٦٠٠٨ / ٢٠١٩

وفي الخريف، متى أخذت في جمع العنب من
كرمتك لتُلقي به إلى المعصرة، ناجِهِ قائلًا:
«أنا أيضًا كرمةٌ ثمارها إلى جنْيٍّ مآله المعصرة،
وكالخمر الجديد سأحفظُ في قناتي الخلود».
وفي الشتاء حين ترشف الخمر،
أدِر في قلبك لكل كأس أغنية،
واجعل في الأغنية ذكرى للخريف،
وأخرى للكرمة، وللمعصرة.

جبران خليل جبران
(النبي)

إهداء

إلى ذاك الكاتب المصري الشهير،
المنتفخة ذاته حد التورُّم،
الذي ألهمني كتابة هذه الرواية
دونما قصد منه ولا معرفة مسبقة،
ها أنا أشكر عظمتك وأهديك هذه الرواية!

البداية

خلال زيارتي الأخيرة للإسكندرية، كنت أسير في شارع "فؤاد" العريق، أتبادل الحديث مع صديقي الحبيب "مصطفَى" حول مستقبل الثقافة في بلدنا. تأبطتُ ذراعه كعادة المصريين أثناء التجول، ولكيلا تفرق بيننا جحافل الجماهير المزاحِمة. كانت درجة الحرارة شديدة الارتفاع، ومع ذلك اكتظ الرصيف بالمارة، وانسد الشارع بالسيارات والحافلات، وكدنا أن نختنق بفعل عوادم المركبات. لاحظت دكانًا تشير يافطته لبيع الأنتيكات، بضائع بقيت من عهود مضت وأزمنة ولَّت، لكن ما شد انتباهي، عبر زجاج واجهته السميكة، كان أناقة المعروضات، والضوء الخافت الذي شمل المكان بالهدوء، وأوحى إليَّ باحتمال أن نجد داخل هذا المكان المكيَّف الهواء الجنة التي قد نحتمي داخلها من الجحيم المحيط.

وفي لحظة، كنت قد مددت ذراعي أدفع بالباب، في حين اختل توازن صديقي الذي سحبته سحبًا رغمًا عنه، نحو المنجى المأمول. بوغت هو، فتساءل منزعجًا:

"يا الله! ماذا يحدث؟"

فما كان مني إلا أن شرحت معتذرًا، ومفصحًا عن رغبتي في أن أهرب به من سعير جهنم الحاضر المحيط، لعلنا نجد بين معروضات تحف ومخلفات الزمن السالف ملاذًا لنا.

أذعن الرجل مرغما كعادته، وارتسمت فوق وجهه ابتسامة طيبة مشوبة بالشفقة إزاء شطحاتي الفجائية، التي اعتادها لسبب عمق صداقتنا وعشرتنا.

بالفعل ما إن دلفنا إلى الدخل، انغلق الباب الزجاجي من ورائنا بعفوية وتلقائية. وفي الحال، ملأتني السكينة، ولفَّنا الهدوء، واحتضننا الهواء البارد، يداعب مساماتنا، وندت عن المعروضات رائحة الماضي. بدَّلنا نظارتينا القاتمتين، التي وضعناها بالخارج لتقينا الضوء المبهر، لأننا لم نعد نقدر على رؤية محتويات المكان الداكن. تلقانا رجل متوسط العمر، مائلٍ إلى السمنة، لامع الشعر والبشرة، بابتسامة مرحِّبة، أطلت من بشرة حليقة وضاءة. ارتدى الرجل سترة أنيقة، رغم حرارة الجو، أطل من تحتها قميص فاخر ورباط عنق، ثم عرفنا بأنه صاحب المحل. ولكنه لم يقتحمنا كعادة الباعة، بل وعلق من مجلسه، القابع بأريحية خلف مكتب يسكن عند ركن قصيّ نسبيًّا،

عن استعداده لأن يجيبنا على أي أسئلة قد تعن لنا بشأن أي من المعروضات، ثم انصرف عنا يقرأ في كتاب مفتوح أمامه.

البداية كانت مشجِّعة. تلفتُّ نحو صديقي، وأبصرت استحسانًا كذلك، فتنفست الصعداء. صدحت موسيقى كلاسيكية خافتة للنمساوي موزارت تتسلل إلى أرجاء المكان.

انتقلنا نحوم حول مقاعد قديمة، وأرائك أثرية، وطاولات تعلوها زهريات عتيقة، ولكنها بحالة جيدة، ومكتبات خشبية تحوِّط الجدران تملأ رفوفها كتبًا، ورؤوس عظماء منحوتة من الجبس أحيانًا، ومن حجر الصلد، أو من البرونز أحيانًا أخرى. داست أقدامنا فوق سجادات فارسية وتركية وعجمية، متباينة الألوان، غطت أرضية المكان. بينما زينت الجدران فوق أرفف الكتب تابلوهات زيتية داكنة الألوان، ومشغولات تطريزية إيطالية بهتت بفعل الأيام، ومصابيح كهربية معلقة فوق الحوائط، أو متدلية من السقف، أو تقف ساكنة فوق الخِزانات.

اتجهت نحو ثلة من الكتب التي اكتظت بها أرفف مكتبة أمامي، أتفحص عناوينها. ولست أدري لماذا شد انتباهي كتاب سميك، أسود الغلاف، بلا عنوان، محشور بينها. مددت يدي فخلصته من وسطها، وفتحته أتصفحه لعلي أجد ما يشير إلى محتواه. فوجئت بأنه مكتوب بأناقة بخط اليد، بقلم حبر، أو ريشة مغموسة في المداد، من بدايته وإلى آخر أوراقه الصفراء. قرأت بعناية الصفحة الأولى منه، فإذا به مذكرات كتبها

شخص يدعى "فرح أنطون"، يهديها إلى اخته "روز أنطون" فتلفتُّ من جديد إلى صديقي مبتهجًا باكتشافي الأثري. تصفحه مصطفى في عجالة، ثم ابتدر متيقنًا بقوله:

– هذا الرجل مناضل مهم جدًا، ومذكراته تلك ثروة عظيمة.

أخذت الكتاب إلى الرجل صاحب المحل، فأكد لي أن "فرح أنطون"، ذلك المفكر الشامي، المهاجر إلى الإسكندرية، كان بالفعل يقطن شقة بإحدى العمارات المطلة على شارع فؤاد، والذي كان اسمه "باب رشيد"، قبل نحو مائة عام. وقد ورث هو تلك المذكرات عن جده، والذي أنشأ دكانه هذا، ثم ورَّثه لابنه، ثم لحفيده من بعده.

طلب الرجل مني مبلغًا كبيرًا نظير الكتاب، فنظرت نحو مصطفى صديقي مستطلعًا رأيه. أومأ لي بدوره موافقًا، فأذعنت إليه على الفور.

خرجت من المحل مزهوًّا بغنيمتي. كأنني صيَّاد عائد من رحلته يقبض بيده الفخورة على سلة يحتفظ بها بصيده عند نهاية اليوم.

وضعت المخطوطة بحرصٍ فوق حجري ما إن ركبنا القطار المتجه إلى القاهرة، وبينما غفل صديقي مصطفى بعد عناء اليوم الطويل، فتحت أنا صفحات المذكرات، وشرعت أقرأ...

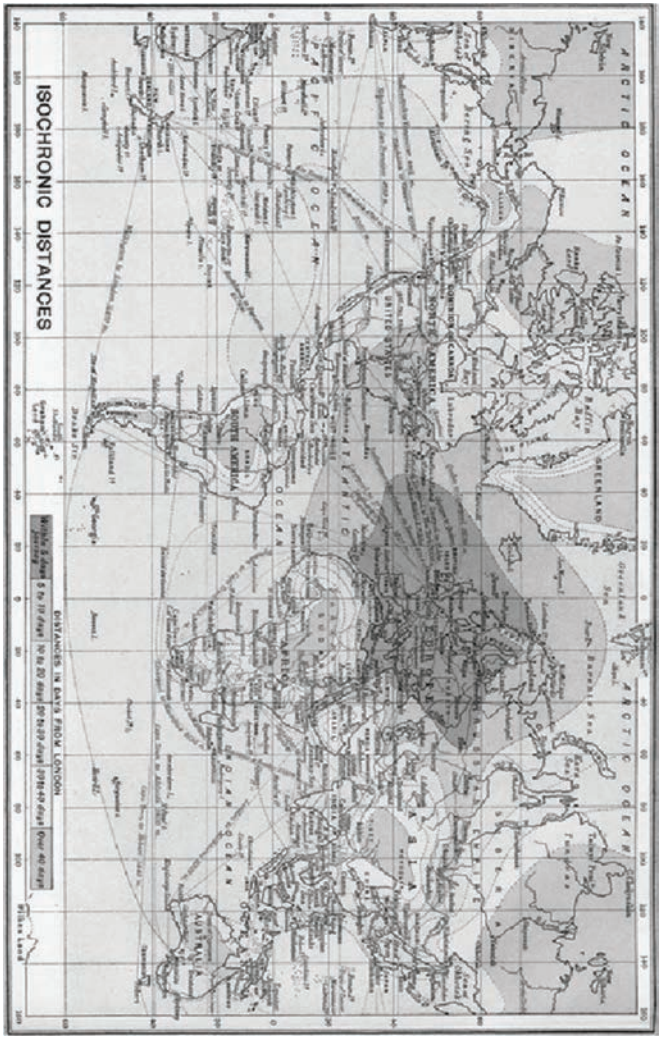
ISOCHRONIC DISTANCES
DISTANCES IN DAYS FROM LONDON
ARCTIC OCEAN
PACIFIC OCEAN
ATLANTIC OCEAN
INDIAN OCEAN
AUSTRALIA
GREENLAND
ANTARCTICA

الأول

إهـداء

إلى أختي العزيزة روز: أهدي إليكِ هذه الكلمات التي قررت أن أخطها إليكِ نهار غادرت طرابلس ويوم تركتك ورائي تودعني دموع عينيك الغاليات.

فرح

السبت 26 آذار (مارس) 1898

الأحد 20 آذار (مارس) 1898

تهبُّ رياح لتعصف بمناحينا أحيانًا. فتقتلعنا الأيام من جذورنا على نحو مفاجئ يا عزيزتي "روز". ثم لا تنفك تحملنا نحو عالم جديد. عسى أن تبدل معالم الأشياء ما قد علق بذاكرتنا من مشاهد ننشد محوها. ونكاد أن نفنى متمسكين ولو بذرَّات من بينها. لذا قررت أن أخط هذه الكلمات إليكِ بينما الحوادث والأفكار ما تزال طازجة في ذهني.

ها تعصف الساعات بحياتي. لأجد نفسي الآن على متن سفينة تستأصلني من جنبات وطني. لتلقي بي فوق رمال شاطئ بعيد لا علم لي بتضاريسه أو طباع ومزاجيات أهليه. ففي أحيان كثيرة نقبع جاثمين متكرفسين فوق قطعة من الأرض لا تتعدى باطن أقدامنا. ونمكث من فوقها لأزمان متربصين نتمنى لو أن مجرد نسمة هواء قد توقظ خصلات شعورنا فتحركها ولو قليلا. ولكنها قد لا تأتي أبدًا. وفي أحيان أخريات تتبدل الأحوال على نحو مفاجئ فتحط نعالنا حيث لم نتوقع أبدًا.

اتكأت بذراعيَّ فوق درابزين شرفة الباخرة. أتأمل صفحة المياه عميقة

الزرقة الممتدة نحو الأفق في كل مكان من حولي. وسط السكون اللانهائي المحيط بي – اللهم إلا من صوت رشرشة المياه وهي تداعب جدار السفينة الذي يشقها شقًا. لا يكاد يبهت امتداد زرقة الماء والسماء إلا بياض طائر النورس يجيء من حيث لا أدري. يدنو حينًا ثم يمضي بعيدًا إلى أن يندثر في غياهب عوالم موازية لا نبصرها. تناهت إليَّ من حيث لا أدري تلك الكلمات التي راودت عقلي واضحة جلية عبر السِفر الأول من الكتاب المقدس: سفر التكوين وبالذات الإصحاح الأول منه. يناديني بصوت رخيم يصدح في رأسي قائلا: "في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الارض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه." حقًا. كم أشعر الآن بروح الله يرف على وجه المياه من حولي في هذه اللحظة.

نعم. بدت لي المياه المحيطة من كل جانب وكأن الكون من حولي قد خلق لتوه. وكأنني أحيا الآن في اليوم السابع: يوم ارتأى الله خالق السماوات والأرض من بعد أن تأكد لديه واطمأن أن كل شيء خلقه كان حسنًا فارتاح أخيرًا. فهذه البحور من حولي تبدت لي صافية جديدة. لم تمسسها يد إنسان. ولم تلوثها مطامعه. ولا أصابتها دماء صراعاته. ولا مسها تقاتل سفنه. وتناحر جيوشه. وقنابل طموحه لم تهوَّ نحو أعماقه. لذا فإن روح الله بعدها ترف فوق هذه المياه النقية الكريمة.

ولكنني تفاجأت بخاطر آخر يلح على رأسي ويعصف بحالة السكون والتأمل التي اكتنفتني. خلد إلى ذهني وسواس نقاق لم يدعني وشأني مهما

حاولت أن أنزعه عنِّي. باءت كل محاولاتي بفشل تام – فها هو الهاجس الملح ما يزال يرتادني ونفس الفكرة تعاودني:

ألم يخطر على ذهن "الشيخ رضا" من قَبل أن روح الله هذا الذي رف فوق سطح المياه هو ذاته "الروح القدس"؟

نعم. هو روح الله القدوس الواحد الذي يؤمن به الشيخ رضا كذلك. والذي لم يلبث يعايرني رغم ذلك بادعائه بأننا نؤمن بآلهة ثلاث. لقد شرحت له ذلك الأمر مرارًا ثم – وبعد أن تأكدت من أنه لن يبدل من أفكاره عني – اضطررت أن أطلب إليه بل وأترجاه أن يتجاوز ما أومن به. أن يتناساه. وأن يدعني وشأني. نعم. رجوته ألا يضايقني بتلك المساجلات العقيمة. التي لا يأتي من جرائها طائل.

وها أنا ذا قد فررت من بلدنا "طرابلس" الحبيب. وتركت ورائي أبي وتجارته وما تتيح لنا من حياة مريحة رغدة. وأنا حتى الآن في الثالثة والعشرين من عمري لسبب الاضطهاد الذي يضايقنا به الوجه الآخر للشيخ رضا: السلطان "عبد الحميد الثاني" منذ احتلال العثمانيين للشام. مكمِّم الأفواه ومكبِّل الحركة لأهلي من الموارنة في لبنان وسوريا. والأكراد ببلاد العراق والأرمن في بلادهم. وبالأخص لمثلي من محترفي القلم وأصحاب الكتابة والنشر.

لكن الأمر العجيب يا عزيزتي روز هو في كون الشيخ رشيد رضا موجودًا معنا على متن نفس الباخرة المبحرة اليوم إلى ميناء الإسكندرية.

آه منه الشيخ رضا! لقد رآني في الميناء فأومأ إليَّ متعاليًّا ثم اختفى. أمره يحيرني على الدوام ويشغل خاطري. فهو ما يزال في الثانية والثلاثين من عمره. ممتلئ بالشباب والنضارة حد الشبع. متخم الجسد أبيض البشرة ذو عينين حادتي النظرة كالصقر. يرقبك بلا توقف. لكنه مع كل ذلك لا يعيرك التفاتة إن لم تدعه بكنية "الشيخ" قبل أن تلفظ باسمه. حقًا أن أباه "الشيخ علي رضا" هو شيخ قرية "القلمون" المجاورة لبلدتنا طرابلس وإمام مسجدها. ورغم أن ابنه هذا انتقل إلى طرابلس وتعلم بها. لكنه لم يصل – في رأيي – لأن يستحق هذا اللقب الذي يصر على أن ينعت به. لكنه على أي حال ما لبث أن واظب على حلقات ودروس الشيخ "الجسر" بطرابلس ثم عاد إلى القلمون يبشر أهلها. وكأنه أتى بالدين الجديد! لم يكتف الشيخ رضا – الابن – بمن يجئ إلى دروسه في المسجد بل كان يذهب هو إلى الناس في تجمعاتهم في المقاهي التي اعتادوا الجلوس إليها. لشرب الشاي والقهوة وتدخين النارجيلة ولم يستحِ من مرافقتهم ووعظهم هناك. بل وحثهم على الصلاة وترك عوائدهم. وبالفعل فقد أثمر ذاك الأسلوب المبتكر. فلقد أقبل الكثيرون على أداء الفروض والالتزام بالشرع والتوبة والإقبال إلى الله بسببه.

ولقد تعرفت إليه حينما كان يأتي إلى طرابلس يتبختر نحوي مساخرًا. بابتسامته المتهكمة. ولحيته المهذبة. والبالطو الرمادي الذي يضعه فوق قميصه بطول العام. ولو كنَّا بعز الحر. كنت أتهرب منه أولا لكثرة مضايقتي بأفكاره المتشددة. ولكنني انبهرت حين علمت بعلاقة الصداقة

التي كانت تربطه بالشيخ المصري الشهير: جناب الأستاذ "محمد عبده". وكان قد تعرف إليه حينما زار الأخير طرابلس فقرر التلمذة لديه.

دعيني أشرح لك الأمر يا روز. فقبل عدة أعوام كان الشيخ الجليل محمد عبده مفتي الديار المصرية آنذاك قد نُفيَّ إلى بيروت. لاتهامه بالمشاركة في حركة الضابط المصري "أحمد عرابي" بالقاهرة. ومن بيروت جاء الشيخ إلى طرابلس مرتين. وبلغني أنه التقى بالشيخ علي رضا وابنه رشيد. ومن أيامها لم يبتعد عنه. كم تحملت عبء هجومه الضاري أثناء تبادلنا النقاش أيامها – وإلى الآن – حول الاختلافات الكبرى – كما ادَّعى دائمًا – بين العقيدتين. وكم حاولت – وأحاول – أن أجذبه نحو معاينة المشترك بيننا. كل ذاك هان على أي حال في سبيل أن أستمع لكلامه عن الأستاذ. وأملًا في أن ألتقي به يومًا. فالشيخ محمد عبده كان – وما يزال – يمثل لي تلك النقلة التي أتطلع إليها لتحقيق التقارب بيننا جميعًا فتنتهي إلى الأبد فرقتنا وتحزباتنا. فهو الداعي إلى النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي. من بعد التقائه بأستاذه "جمال الدين الأفغاني" والمنادي إلى إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية.

صار هذا هدفي ومنشدي للخلاص من هذا الواقع المتردي الذي نعيش فيه اليوم. فالأتراك يصبون لعنة ضعفهم وتهاوي إمبراطوريتهم في أوروبا وهزائمهم المتتالية بها. فينزلون عقابهم علينا نحن المستضعفين في الشرق. بينما في الغرب انتصر العلم على الدين وسلطان رجاله. وها هو "بونابارت"

قد قام قبل مئة عام بغزو مصر والشام حتى استوقفه الإنجليز بعد ثلاث سنوات لمطامعهم في التهام الكعكة برمتها أو بعض منها على أقل تقدير. ثم ما لبثوا قبل ستة عشر عامًا أن احتلوا مصر العزيزة. إذن فهم يطمعون في بلادنا. وقد بلغت بهم قوة العلم مداها. بينما نحن منصرفون إلى فرقاتنا وتحزباتنا. لا نملك من أمرنا سوى البكاء والدعاء لرب المسيحيين وإله المسلمين دون جدوى. ولم نتقدم ولو خطوة واحدة نحو العلم والثقافة والتقدم ونتوحد ما بيننا حتى نقدر على مواجهة الزحف الغربي ذاك قبالنا.

لذا فأملي من هجرتي إلى مصر اليوم – يا عزيزتي – يكمن في إيجاد سبُل لتحقيق مثل هذه الوحدة المنشودة. والاتصال بأمثال الشيخ محمد عبده وغيره من الداعين نحو التقدم والتجديد. من أجل خلق جبهة موحدة تدفع بمشرقنا نحو غد أفضل.

لكن من العجيب هو أمر ذلك الشيخ الفاضل – صديقي الطرابلسي– وموقفه مني. لقد كنت واقفًا هنا بالأمس في ذات الموضع فوق ظهر المركب. فإذا بالسيد رشيد رضا الذي تبختر وجاءني وهو يتمايل برأسه مازحًا بعد أن لمحني واقفًا وحيدًا. فتقدم نحوي ببشرته البيضاء البضة وابتسامته الهازئة متسائلًا بسخرية:

– يا لك من عَبوس يا فرح! هل تتفكر بأن تقفز إلى الماء –يا بن أنطون– أم ما الذي يبقيك ها هنا وحدك؟

ابتسمت مشفقًا من صفاقته. وهززت رأسي نافيًا. ثم أجبته وأنا أشير نحو السماء:

– بل دفعني سنا القمر الأخاذ هذا لأن أتفكر في حال الوطن. وحالنا!

علت وجهه الذي أضاءه نور القمر حيرة من كلامي فرد بسرعة متهكمًا:

– وما هو الذي كنت تفكر به يا سيِّد فرح؟

وضغط بتهكم على لفظة "سيِّد" وكأنه يعايرني باستحالة أن أصير من الأسياد في عرفه. شرعت أفاتحه ببواطن نفسي واعترفت له بهواجسي التي ملأت عقلي وقلبي. وعن رؤيتي للحل وعن أملي المبتغَى.

بحت له برجائي في أن نتوحد فنرتقي بأوطاننا فنصير ندًا لهذا الغرب القوي بالعلم والعتاد. نجبره أن يحترمنا ويخشانا في آنٍ فلا يطمع في أن يغتاب أهلنا ولا أن يرثنا من بين أياد العثمانيين الآفل نجمهم. وكأننا حمل يتنازعونه زمرة الضباع تلك ما بينهم.

نظر نحوي لحظات ثم صرَّح مستهزئًا:

– أنتم النصارى تعشقون الوطن وتستميتون دفاعًا عنه. لأنه وطنكم الوحيد فإن ضاع ضعتم. وإن فني فنيتم معه. أما المسلمون فكل أرض المسلمين وطنهم حتى ولو سقط جزء ينشدون الملاذ في حضن آخر.

فطالعته متحيرًا فيما لو كان يسخر مني وينتظر ردة فعلي فيزيد من تهكمه. أو كان بالفعل يعني ما قاله. تصير مهمتي إذن في مهب الريح. لذا عاجلته بسؤالي:

– أتعني ما تقول يا شيخ رشيد؟

أما هو فلم يعقب. بل استمر يتطلع إليّ بنفس الهزء. لم أتحمل ذلك الصمت الممتد فسألته مجددًا:

– أتبغي أن تقول إنك لو سلَّمنا جدلاً أن سقط الشام في براثين الغرب المترقِّب كالصقر يترصَّد اللحظة المناسبة ليفترسنا ألن يعنيك أمر بلدك؟ هل تكتفي حينها فتشد الرحال إلى أرض الحجاز مثلًا؟ وهل تصطحب أسرتك أيضًا والشيخ رضا أباك كذلك أم تتركهم ورائك؟ ثم تعال هنا وقل لي: ماذا عن لبنان أرضنا ووطن أهلينا منذ قديم الزمن. هل يعد لبنان في نظرك أرض المسلمين كذلك رغم كون غالبية أهله من الموارنة؟

كان هو ينصت لما أقوله في صمتٍ واهتمام بينما هو يعبث بشعيرات لحيته متفكرًا. وفي النهاية سدد نظره نحوي. وهمهَم بكلمات مدغمة لم أفهمها. ثم انصرف دون أن يعلق ولو بجملة واحدة أستطيع أن أستجلب منها اتفاقه – أو حتى اختلافه – مع أيّ من هواجسي. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي لاقيته بها على المركب. بل وحتى بالميناء من بعد رسو الباخرة.

حملني جفاؤه هذا في وحدتي نحو موجة حزن. أخذتني وعبرت بي إلى حالة من الكآبة استدامت لساعات ولست أدري كيف وصلت بي في النهاية إلى ليلة موت جدتنا – هكذا على نحو مفاجئ. تذكرين بالطبع كل تفاصيل تلك الأيام البائسة – يا عزيزتي روز. كنتُ بعد صبيًّا لا يدري شيئًا عن المرض والذبول ثم الموت. ولكنني تذكرت الآن كيف بعث بنا

أبي إلى بيت ابن عمنا إلياس ففرحت جدًا لأنني كنت أرحب بلعبي معه بالضيعة. لم أكن أدري أنني لن يتسنى لي رؤية ست روز – التي تسميتِ أنت على اسمها – من بعد.

* * *

الثلاثاء 29 آذار (مارس) 1898

حين وصلنا إلى الإسكندرية بعد يومين فترجلنا عن الباخرة – اعتقدت أولا أن قبطاننا قد أخطأ الميناء. فرسا بنا في "بيراوس" ببلاد اليونان مثلاً أو في "مارسيليا" بفرنسا. أو أي من الموانئ الأوروبية التي زرتها مع أبي والعائلة من قبل. لأول وهلة لاحظت الفارق الشاسع بين طرابلس وبين الإسكندرية. وتساءلت في عقلي منبهرًا: ما كل ذاك التحضر! وأين منا ومن كل هذا النظام والسلاسة في التعامل مع موظفي الميناء. من أصغر عامل وحتى ضابط الجمارك المنوط بفحص الأوراق واعتمادها.

طالعني هذا الأخير بوجهه الأسمر وشاربه المفتول جالسا إلى مكتب خشبيّ بسيط – مفتوح فوقه دفتر عريض يدوّن فوق أوراقه بعناية فائقة بياناتنا. سألني حالما وصلتُ إليه:

– الاسم الثلاثي. والسن وتاريخ ومحل الميلاد؟

فقلت:

– فرح أنطون إلياس أنطون. ولدت في السابع والعشرين من آذار. في العام الألف والثمانمائة والأربع والسبعين. أي أن عمري الآن ثلاثة وعشرون عامًا وبضعة أشهر. ولدت في "طرابلس" بشمال لبنان.

تفحص الرجل أوراقي ثم تفل فوق سن القلم. حين عاد واستفسر قائلًا:

– أتجيد الكتابة لتوقِّع أم تبصم هنا؟

وأشار نحو موضع فوق سطور الدفتر المستعرض. فابتسمت مقررًا ببعض التفاخر بأنني كاتبٌ محترف. ثم وقعت باسمي مزهوًّا فوق المكان الذي أشار إليه.

وفي الخارج طالعتني الإسكندرية ببهاء منقطع النظير. الشوارع مبلطة بالحجر في أشكال بديعة. والبنايات الفاخرة ترتفع إلى أربعة أو خمسة طوابق. وحوانيت بأعداد لا نهائية تقبع أسفلها. وعربات الخيل التي يسمونها "حنطور" تجوب الطرقات فتملؤها بهجة وموسيقى. تصنعها دقات حوافر الخيل المنتظمة فوق البلاطات الحجرية إلى جانب رنات الأجراس المتتالية تجيء هنا وهناك. لتنبه المارة أو تغرد فرحة لمجرد مرورها بيننا.

كما أني لاحظت نجاح ثورة الأستاذ " قاسم بك أمين" التي كنا نتابعها سويًّا من طرابلس يا روز. فوجدت النساء والبنات تجبن الشوارع بشعور

مصففة. منسقة. لامعة. وقد خلعن عنهن الأحجبة فتزدان بهن الصورة بهاءً وحسنًا. إنما في الشوارع الداخلية والحارات الضيقة يرفل المصريون في قمصان طويلة تدعى "جلابية" يرتديها العامة وخاصة البسطاء منهم. أما النسوة فما تزلن تتوشحن بملاءات فوق أرديتهن الزاهية الألوان. وعن أبناء الطبقة الوسطى هنا فهم كأبناء اسطنبول يرتدون البنطال الأوروبي والطربوش الأحمر العثماني. لكن الطبقة الراقية هنا فحدثي ولا حرج بشأنهم. فلا تكادين أن تميزيهم عن أهل باريس ولندن: الشعور مصففة. والأردية منمقة. والأحذية براقة. والروائح مبهرجة.

في واقع الأمر كان ما أبهرني حقا حين طالعت الإسكندرية لأول وهلة هو تلك العمائر الشاهقة والفنادق الفخيمة التي تحف بشوارع المنطقة التجارية التي تدعى "المنشية" و"محطة الرمل". ما كل هذا الرُقيّ!

استأجرت عربة حنطور من الميناء – حيث رسونا – إلى وسط المدينة. أخبرت الحوذي عند بداية الطريق بأني كاتب صحافي فقادني نحو بناية بديعة أعلمني أن بها شققًا للإيجار. بشارع "باب رشيد" حيث "نادي محمد علي" – ملتقى الكتاب والمثقفين كما أعلمني الرجل. انبهرت بالشارع الممتد. واتجه بي الرجل إلى حيث العمارة تقف عند الشارع الأطول في الإسكندرية والذي يصل من ميدان "الإسكندر الأكبر" بتمثاله الهائل إلى ميناء "رشيد" شرقي "أبي قير" – مع تقاطعه مع شارع ضيق جانبي. فقررت على الفور السكنى بها. تذكرت عند ذكره الاسم: أبي قير موقعة أبي قير البحرية حيث

انتصر نابوليون بونابارت على حاكم الإسكندرية حينها: السيد "محمد كريِّم" وتم له احتلال المدينة. قبل أن يتجه إلى القاهرة. سررت لأنني أمضيت كل هذا الوقت في القراءة عن مصر قبل أن أصل إليها.

لكنني – رغم كل تلك البهجة الراقصة من حولي – شعرت بالحزن والألم لفراقك يا روز. وتركي لأبي وأمي والعائلة والهجرة من طرابلس بل وسوريا بأسرها. أحسست فجأة باليتم. وكأنني فقدتكم بل وعدمت كل شيء إلى الأبد.

* * *

الأربعاء 30 آذار (مارس) 1898

أما عن حديث الصحافة هذه الأيام منذ وصولي فانصب على اتهام مساعد القنصل الطلياني بالإسكندرية لجماعة من مواطنيه الفوضويين بمحاولة اغتيال امبراطور ألمانيا في أثناء رحلته إلى مصر وفلسطين. وبالفعل تم القبض على مجموعة من الشباب قيل إنهم تسللوا إلى هنا بأوراق مزورة. وبالكشف عن ماضيهم تبين أنهم جماعة أناركية ذات روافد وفروع تمتد من المغرب إلى إسطنبول إلى القاهرة وإلى هنا أيضًا. فرحت لوجودي في قلب الأحداث. في هذه المدينة العظيمة: عاصمة الثقافة في العالم منذ عهد

الإغريق وحتى الآن. أقرأ في جرائدها عن إيطاليا وألمانيا وعن الأناركية الفوضويين! شتان ما بينها وبين "طرابلس" الصغيرة. التي تكاد أن تحبو إذا ما قورنت بتلك المدينة الكوزموبوليتانية التي تعدو عدوًا. وتأملت خيرًا بصدد مهمتي التي جئت من أجلها ومن جدوى الكتابة بصحفها.

قررت أن أبتلع حزني من جراء ذلك الاغتراب الذي اخترته لنفسي. بل وانتقته لي الأيام. وأن أصب جهدي في تحقيق مرادي ذلك الذي تركت بلدي من أجله.

انكببت الآن أخط أول مقال لي حتى أرسله إلى جريدة "البلاغ المصري" أو "الأهرام": الجريدتين اللتين كانتا قد نشرتا له من قبل عدة مقالات وأنا بعدي هناك بسوريا.

لا أكاد أن أصدق أني أكتب (هنا) وأنا أقصد بـ (هناك) بلدي الحبيب. لكنها عجائب الأيام وألاعيب الزمن.

الثاني

السبت 30 نيسان (أبريل) 1898

ليتنا نتعلم ألا ننصت إلا لصوت العقل. ما بين الضوضاء الكثيفة التي تشوش آذاننا وأذهاننا.

فأنا لا أكاد أصدق أنه لم يتبق سوى أقل من عامين حتى نهاية القرن التاسع عشر. ويتقاول الكثيرون من المدَّعين بعلمهم ببواطن الأمور. بأن نهاية العالم سوف تحل عند نهاية ليلة الحادي والثلاثين من كانون أول من عام ألف وثمانمائة وتسع وتسعين. وقبل أن يحل القرن الجديد. لكنني لا أؤمن بذلك أو بمعنى أدق أشك في صحة تلك المزاعم. فما تعلمته في

طفولتي في "دير بكفتين" بالكورة وما درسته بين يدي مسيو "جبر ضومط" و"أنطون شحيبر" هناك يفيد بأنه لا يعرف ذلك اليوم ولا تلك الساعة إلا الله الآب في السماوات. ثم شببت وأدركت كذِب المتنبئين بحوادث الغد القادم فكأنهم يتطلعون نحو السماء فيبصرون السحب تجيء من الشمال فيجزمون بهطول المطر في الغداة. وقد تمطر فعلًا. أو لا تمطر كذلك. فإن فعلت آمنَّا بقدرتهم على التكهن. وإلا فتغاضينا عنها. إلى أن يصدقوا في نبوءتهم التالية. ومع مرور الوقت تبين لي أن إعمال العقل أجدى بطاقة الإنسان من الولوج إلى تلك الغيبيات التي لا طائل من ورائها.

والمسيو جبر ضومط ذاك له معي حكاية طريفة تأتيني الآن عبر تعاقب الأزمنة وتوالي السنين. فبين يوم وليلة أعلمونا في المدرسة أن معلم اللغة العربية قد انتقل إلى رحمة الله إثر حادث أليم. وبعدها بنحو أسبوع دخلنا إلى قاعة الدرس فوجدت المسيو جبر جالسًا خلف مكتبه الخشبي هناك عند ركن الغرفة. وكالعادة صار هرج معتاد حينما دلفنا إذ تهامسنا بعضنا البعض لسبب مظهره الغريب. بنظارته السميكة. وشعره المشعث. وهندامه المتواضع. ولكن دوت القاعة بالضحك حينما ترك موضعه وتحرك نحو المنتصف مشيرًا بيديه لنلتزم الصمت حتى يقدم نفسه. صرخت بأعلى صوتي قائلًا:

- إنه لم يكن جالسًا خلف المكتب!

تبين لي أنه لم يزد طوله عن متر واحد. حتى حسبناه قاعدًا من وراء

مكتبه لأول وهلة. بالطبع لم تكن تلك إلا بداية سيئة لعلاقتنا عبر السنوات. لكنني سعيت بكل ما أوتيت لأن أصححها مع الوقت لتعلقي باللغة العربية من ناحية ولطريقة المسيو جبر في تدريسها. والتي خرج خلالها عن النمط المعروف. ومن أجل ذلك فبرغم نبوغي – باعتراف معلميَّ بالمدرسة هناك – فقد كنت حتى ذلك الحين أحتقر ذلك الدرب من العلم والتعليم وأنبذه. هذا العلم المنهج بمكر حتى يؤدي بالمرء لأن يصير ترسًا في ماكينة تدور حول نفسها. أما المسيو جبر فلقد نجح في إزالة كل ريبة من جانبي وساهم في استزادة عشقي للدرس والمطالعة.

نعم. أنا أدرك تمامًا أن أبي كان يتمنى عليّ أن أشاركه أعماله. وفي نهاية الأمر أحمل عنه عبء تجارة الأخشاب وإدارة فروعها في لبنان وسوريا وتركيا. ولكني تبينت يقينًا ما إن تخرجت في السادسة عشر من عمري بأنني لم أخلق إلا للكتابة! فحتى ومن بعد أن عملت مع أبي لنحو عام نفرت من التعامل مع هؤلاء التجار. وآنيت بنفسي من تلك المعاملات المادية الخالصة المشوبة بالمكر والدهاء وخدائع التنازعات وصراعاتها. وسرعان ما نفضت يديّ من ذلك الأمر برمته. بمباركة من أبي الذي لا شك أدرك قصوري وقلة حيلتي فصرت كحمل وسط غابة من الضواري. ومع كل ذلك فلم أترك عني الكتاب يومًا. والقراءة بنهم كانت ملاذي الذي أحتمي به. وأنهل من بحورها في اللغتين العربية والفرنسية.

وكما تعلمين يا روز فسرعان ما ساعدني أبي – والشكر الموفور له –

في إدارة المدرسة الأهلية للروم الأرثوذوكس في طرابلس. كانت تلك فرصتي للاقتراب أكثر من عالم الكتب والابتعاد عن دنيا التجارة المنفرة. شرعت أول ما شرعت في تعديل مناهج الدراسة بها من حيث الاستزادة من حظ التاريخ والأدب. إلى جانب العلوم الطبيعية والرياضيات التي كنت قد تفوقت بها خلال دراستي لها. أما عن الأدب فأوصيت بأن على التلميذ أن يقرأ نصًا ما ثم يكتب عنه ناقدًا إياه وموضحًا جمالياته ونقاط القوة والضعف فيه.

إلا أن حتى تلك الوظيفة لم ترق لي لأمد طويل. فسرعان ما أبديت لأبي تذمري منها ونقمتي عليها. وفاتحته في رغبتي السفر إلى الإسكندرية والانتقال إلى قلب الأحداث لتحقيق مشروعي التقدمي الذي كنت أنشده. فصناعة القلم في عهد السلطان عبد الحميد كانت مقيدة بقيود وكأنها سلاسل من حديد.

أذكر أن ضحك أبي يومها وقال لي:

"أنت خلقت لتعذبني يا فرح! ألا تبقى على وظيفة يا بني؟ ما الذي تعرفه عن الإسكندرية حتى تترك بلدك من أجل الهجرة إليها يا إبني؟ أولى بك الآن أن تبحث عن عروس. حتى تستقر معيشتك. وترسى سفينة حياتك إلى ميناء!"

ولكنك تعلمين جيدًا مقدار عنادي وتصميمي على تحقيق أهدافي التي ارتأيتها. بالطبع عاودت ممارسة ضغوطي عليه حتى يتسنى لي أن أرحل

عن سوريا من أجل تأمين مرادي. الإسكندرية صارت هدفي من بعد ما قرأت عنها من مطالعتي للجرائد المصرية. أبتغي العيش في مدينة كبيرة تجمع بين أبنائها مختلف الجنسيات والأعراق. حتى تتقبلني كولد من أبنائها. كما إنها بلد ساحلي مثل طرابلس فربما تتحقق أمنية أبي لي بأن ترسى سفينة حياتي إلى ميناء!

* * *

الإثنين 2 آيار (مايو) 1898

الناس هنا يتكلمون لغة جديدة. عليَّ الاعتياد عليها. فمثلًا هم يسمون الحليب لبنًا. أما اللبن فيدعونه زبادي. ويصفون أنفسهم بصيغة الجمع فيقول الواحد "رحنا" و"أكلنا" وهو يتحدث عن نفسه. ويختمون جملهم بلفظة "أيُّوه" التي فهمت أنها علامة تعجب. وأشياء أخرى كثيرة. لكنهم يمتازون بالطرافة والظرف وسرعة البديهة بأكثر كثيرًا من أهلينا بطرابلس.

لكنني أشعر بوحدة شديدة حقًا.

آلمني كذا نبأ مرض أبي والتزامه الفراش بسبب آلام قدميه وعجزه عن الوقوف والسير. الله الشافي على أي حال...

لم أستطـع تكوين صداقة حقيقية مع أي مـن أهل الإسكندرية. رغم دفء طباعهـم والحفاوة التي استقبلوني بها. أفتقد جلوسنا أمام الأراضي الخضراء والزروع الممتدة أغني معك يا روز. وأبي يعزف على آلة العود في الأمسيات الصيفية الطويلة. ونسائم الجبل تهل إلينا من ناحية الغرب. أو عـلى شاطئ البحر عند الغروب مع إلياس ابن عمي حين يزورنا. نجري فـوق الأمواج المنكـسرة. أو نجلس فوق الرمال الذهبيـة الدافئة لنلتقط الأنفاس بينما نتابع مغيب الشمس. ونحن نتحدث عن أحلامنا وأمانينا. أو نجمـع الأصداف المتناثرة. وأصـوات اندحار الأمواج فوق الصخور تحيط بنا.

* * *

السبت 7 آيار (مايو) 1898

وبالفعل. فمنذ قدومي إلى الإسكندريـة نشـرتُ في صحيفة "الهـلال" مقالات تاريخية. وفي "المقتطف" مقالات علمية.

ولكنني أتوق الآن لأن أبحر أكثر في مجال الفلسفة والأفكار التقدمية الاجتماعية والسياسية. التي تماثل الأطروحات الغربية التي أقرأها. وقد لا تستوعـب مثل هذه الأفكار والتوجهات الجديدة المجلات والصحف

الموجـودة على السـاحـة هنـا. لذلك فأنا أفكـر جديًّا منذ فتـرة في إصدار مجلة جديـدة تحـوي كل هـذه الأفكار. حتى أني اختـرت لها اسمًا بالفعل- "الجامعـة". لما تحمل من شمولية جامعـة في الكثير من الأميـال الثقافية والأدبيـة والفلسفية معًا. لكنني - درءًا لمخاطـر المنـع - قـررت تسميتها "الجامعة العثمانية" على الأقل في الوقت الراهن.

وها أنا ذا أنتظر وصولك يا روز يا اختي الحبيبة من لبنان. إذ سيكون بصحبتك ابنك "ميخائيل" فيتولى هو إدارتها. بينما أنصرف أنا إلى تحريرها ونشرها ثم توزيعها.

* * *

الخميس 19 آيار (مايو) 1898

أنهض من مجلسي خلف المكتب على نحو مفاجئ. مدركًا أن الساعة اقتربت من الرابعة. أتوجه نحو المرآة فأجد شعري مشعثًا وذقني نابتة. بينما لم تبق على موعد قدوم "روز" الغالية وعائلتها سوى ساعتين. بسرعة أفتح ضلفتيّ دولاب الملابس وأخرج بدلتي الوحيدة. وألقي بها فوق الفراش. ثم أسحب فوطة واتجه فورًا إلى الحمام من أجل أن أستعد.

بينما أوزع رغوة الصابون فوق وجهي كنت أتفكر في أنه مضى لي في الإسكندرية اليوم عامٌ وخمسة أسابيع. منذ خطوت لأول مرة فوق أرض هذه المدينة العظيمة التي تلقفتني بالود. وسرعان ما بادلتها حبًّا بحب. وها أنا أدعو اختي روز وعائلتها للسفر من سوريا هربًا من طغيان العثمانيين بها. وقد بذلت جهدًا حتى استأجرت لهم منزلًا مستقلًا بحديقة من حوله لعلمي بولعك يا روز في تربية الكلاب. فلابد وأنك ستجلبين معك ثلة منهم لا تنفع معها السكنى بشقة مثل هذه.

وإلى جانب الحنطور أجَّرت كذلك "كارُّو": تلك العربة المسطحة التي يجرها الحمار والمنتشرة هنا. لتحمل متعلقاتكم التي ولا شك سوف ينأَ عن حملها حوذي الحنطور. اتفقت معه على اللقاء بالميناء في تمام السادسة. إذ تعلمت من خبرة معايشتي لأهل مدينتي الجديدة أن دقة المواعيد ليست من فضائلهم – فالسفينة لن تصل إلا في السابعة والنصف. وسوف يستغرق خروجكم من الميناء بعض الوقت كذلك. أما أنا فعليَّ أن أنتهي الآن من الاستعداد للقائكم.

أفتل شاربي وأنظمه وأصب حفنة من العطر فوق ذقني الحليق فأرجف قليلًا. أرتدي قميصي وبدلتي الذين أحضرهما صبي الكواء إليَّ قبل ساعتين. اضع الطربوش فوق رأسي واندفع خارجًا. أشير لعربة حنطور لتأخذني إلى الميناء الذي لم يكن يبعد أكثر من نصف الساعة من بيتي. أسحب الساعة من جيب صدريتي لأطمئن أن الوقت ما يزال مناسبًا لكي أصل في موعدي

أو قبله قليلًا. فأنا أعشق – كما تعلمين – دقة المواعيد.

بالفعل وصلت في توقيت مناسب جدًا. وكانت الحركة قد بدأت تدب في عمال الميناء. ولاح لي طيف باخرتكم هناك عند الأفق.

* * *

الجمعة 20 آيار (مايو) 1898

تلقيت بحزن شديد نبأ موت أبي "أنطون إلياس أنطون" الرجل الذي كان عضدي وعوني بطول الأيام. رحمه الله.

اكتنفتني حالة من الشجن والضيق منذ أبلغتني يا روز بالخبر بعد أن بذل الجميع الجهد العظيم في إخفائه إلى حين تأتون إلى الإسكندرية.

لكنني تعهدت بيني وبين نفسي على أن أحتفظ ببؤسي لنفسي متفكرًا في أن هذا عينه ما كان سيفعله أبي لو أمسى هو في مثل موقفي. نعم ينبغي ألا أعكر صفو انطباعكم الأول عن البلدة التي نزحتم إليها لأول مرة. بل ويلزم أن ألتبس ثوب البشاشة والبشر من أجلكم.

شعرت بطيف أبي يتبين لي فيبتسم في حنوه المعهود وهو يربت برفق فوق كتفي. معلنًا إليّ رضاه التام.

بالفعل حاذ اختياري للمنزل إعجاب الجميع من بشر وحيوان على حد سواء. صار أمر رحيل أبي أيسر عليكم إذ مرت أكثر من ستة أشهر منذ ارتحل فأفلحت رياح الزمن المتعاقبة أن تمحو ما علق بنفوسكم من ذكريات أليمة. بعكسي أنا الذي علمت بالبين لتوي. لكنني ما زلت على عهدي بكتمان مصابي.

وبالطبع جلت بكم إلى شتى معالم المدينة من "قلعة قايتباي". إلى "عامود السواري". وتمثال "الإسكندر الأكبر" عند طرف شارعنا باب رشيد. كما سهرنا في نادي محمد علي. وأمتعتكم بغداء في مطعم للأسماك والمأكولات البحرية بأبي قير. انبهرتم – مثلما انبهرت تمامًا لأول وهلة – بحضارة ورقي المدينة. ولم تخفِ يا روز فرحتك بالمجيء إليها. ركبنا الترام الذي تعمل قاطرته بالبخار من "المنشية" إلى "محطة الرمل" وسط دهشتكم.

في الطريق أبلغتموني أن حال تجارة أبي كان قد بدأ يعاني من واقع تضييق الحركة بين البلدان. لكن أخي الأصغر "أنطون" الذي حمل على عاتقه حمل ناصية العمل ما يزال يأبى مغادرة سوريا تحت أي ظرف. هذا هو أنطون ابن أبي. وتلك هي شخصيته العنيدة المثابرة التي عهدتها عنه.

* * *

الجو العام كان مبهجًا بصورة عامة بعد نجاحي في كبح مشاعري الدفينة. صارت المعاملات الأولى مع أهل الإسكندرية مدعاة لحبٍّ من أول لمحة –

كما يقولون. وشت تعليقات روز وزوجها بذلك. وتندروا كذلك بانتشار الطليان واليونانيين بصفة خاصة في شتى مجالات التجارة هنا وبشيوع سماع اللغات الفرنسية والانجليزية بين رواد "تريانون" والمقهى السفلي بفندقيّ "ماجستيك" وفندق "سان استيفانو" أشهر فنادق المدينة الساحلية وملاذي المفضل من الوحدة أو الاكتئاب منذ قدومي. ويتميز الفندق هذا – الذي شيِّد عام ألف وثمانمائة وأربعة وخمسين – بطرازه الأوروبي. وهو يطل على أجمل بقعة على البحر المتوسط. وقد سمِّيت أجنحته وغرفه الرئيسية بأسماء زعماء وساسة وفنانين كبار أقاموا فيه. وانبهروا بالنوافذ والشرفات ذات المشربيات الخشبية التي ميزت واجهة الفندق وحدائقه الواسعة. والتي تشبه حدائق قصر فرساي بفرنسا والتي كانت تصدح منها الموسيقى وتقام بها حفلات علية القوم. وأنشئ الفندق عندما استقر المقاول الثرى "كونت زيزينيا" أحد أصدقاء والي مصر "محمد على باشا" كأول ساكن أجنبي يقطن منطقة رمل الاسكندرية. وقد قام "الخديو توفيق" بافتتاح الفندق بنفسه – قبل نحو إحدى عشر عامًا – في اليوم السادس عشر من يونيو في عام ألف وثمانمائة وسبع وثمانين.

كنت فخورًا بنفسي وأنا أعلمهم بكل هذه التفصيلات التي تعلمتها منذ قدومي. أما روز فطبعت قبلة فوق خدي زهوًا بي وفرحًا.

لاحظوا جميعًا أثر انفصال محمد علي باشا – وأبنائه من بعده – بمصر عن الدولة العثمانية. فلقد حظيت الإسكندرية اليوم برائحة التحرر وبدأت

قيم الغرب والروح التقدمية تنتشر بين أبناء البلد مقارنة ببلدنا الأم. لكنني صارحت روز بتخوفاتي التي ظلت تراودني في أن يصل ذلك التمدد المتدرج من قِبل الغرب حد الإحلال والسطوة. هو ما بات يزعجني. بل ويهولني أحيانًا.

كنت أخشى من مغبة ما حدث بالفعل من احتلال بريطانيا لمصر قبل ستة عشر عامًا بذريعة حماية الخديو توفيق والأجانب الموجودين بمصر. فلقد اتخذوها ذريعة من بعد "هوجة عرابي" التي بدأت احتجاجًا على التمييز من قِبل الضباط الأتراك ضد المصريين وانتهت بقيام الأسطول الإنجليزي في عام ألف وثمانمائة واثنين وثمانين بضرب الإسكندرية وتدمير قسم من قلعة قايتباي. وتقويض أجزاء من أحيائها. اضطر الكثير من الأهالي يومها للهروب من المدينة. بينما واصل الأسطول القصف في اليوم التالي فاضطرت المدينة إلى التسليم ورفع الأعلام البيضاء من بعد تدمير الكثير من أحيائها. ومن بعدها دان لهم احتلال مصر برمتها. وانتقل السفير البريطاني لدى الباب العالي – "لورد دوفرن" إلى القاهرة كأول مندوب سامي. ثم أشرف بنفسه على محاكمة أحمد عرابي ونفاه الأسطول البريطاني مع زملائه عبد الله النديم ومحمود سامي البارودي إلى جزيرة سيلان.

* * *

الأربعاء 25 آيار (مايو) 1898

طالعتنا واجهات المحلات الفاخرة بشواهدها المكتوبة بالإفرنجية التي تكاد تكون أكثر منها بالعربية. وزاحمنا الباعة الجائلون من الطليان. وأهلَّوا جرسونات المطاعم والكافتيريات اليونانيين فأشاع كل هذا نوعًا من العالمية والبهجة في أرجاء المدينة. لكن أخشى ما أخشاه هو أن يجرعنا ذلك الوحش الجاثم فنذوب في أحشائه ولا يتبقى منَّا شيء نورثه لأبنائنا من بعدنا.

* * *

لذلك بات همّي الأصيل هو توحد أبناء البلدان العربية لكي يصيروا بمثابة حصن واق يدفع عنهم سطوة الغرب من ناحية. لكن دونما انغلاقهم التام عنه. كما كان العثمانيون يسعون إلى تحقيقه. وبقيّ حلمي في إصدار "الجامعة" أشد إلحاحًا الآن عن أي وقت مضى. خاصة من بعد أن نما إلى علمي أن صديقي السيد (الشيخ) رشيد رضا قد بادر وأصدر صحيفة بالقاهرة وأسماها "المنار" بعد أن استقطب نحوه الشيخ محمد عبده. لذا سارعت أصارح ابن أختي ميخائيل الشاب النحيل برغبتي وسط دهشة الجميع من مطلبي هذا إذ لم يمض على وصولهم سوى بضعة أيام. عجلت بشرح مقصدي لكيّ ما تعود الدماء فتسري فوق وجه

ميخائيل الشاحب بعد أن لوَّحته عاصفة مطلبي المفاجئ. وحتى أعفيه من حالة الإغماء الموشكة أن تقهره فقلت له:

– أعلم أنك بعد حديث العهد بالإسكندرية يا ميخائيل. ولكن سوف تدرك سريعًا مدى تقدم أهلها وسهولة التعامل معهم. وعلى أي حال فأنا لن أتركك أبدًا بل وسأكون إلى جانبك حتى تقف إلى كل تفصيلات متطلبات العمل هنا. كل ما أحتاجه منك هو همة شبابك في معاونتك إياي. كما إني لا أنوي إصدار "الجامعة" سوى مرتين في الشهر. لكن عليّ أن أتفرغ للكتابة والتحرير ثم التوزيع. وعلى أيٍّ حال فسوف أبدأ بترجمة وتلخيص أعمال كبار المفكرين والأدباء الغربيين.

سرعان ما زحفت ابتسامة خجلة إلى جانب من وجهه الشاب اليافع فرفعت شفته العليا ونصف شاربه الأخضر. أدركت أنه شبه موافق فتملكت مني سعادة وبشر لما هو آت.

الثالث

السبت 28 آيار (مايو) 1898

مخاض وآلام لابد أن تسبق كل مولود جديد. لكن في غمرة الأفراح دائمًا ما تنطمس الأوجاع.

أجلس في شرفتي بعد شروق الشمس بقليل. أتطلع إلى الجرائد. وأحتسي فنجان القهوة المعتاد. انشغلت الصحف هذه الأيام بالكتابة عن "الأمير سيف الدين" وخلافاته المستمرة مع "البرنس فؤاد" زوج اخته "الأميرة شويكار" بدعوة أنه كان يهينها بل ويضربها. إضافة إلى ابتزاز أموالها. وإنفاقها على

القمار والخمر. ها أنا أنقل حرفيًّا ما كتبته "المقطم" من أجل التاريخ!...:

"... ثم تطور الأمر إلى الحد الذي تجرأ عنده الأمير سيف الدين. والذي كان يوصف بالمخمور والمضطرب نفسيًّا بالاعتداء على البرنس فؤاد الذي كان في نفس الوقت ابن عم الخديو عباس حلمي.

"بل ووصل أمر الخلاف بينهما أنه في يوم السبت 7 أيار (مايو) الماضي – بحسب ما نقلته الجريدة – ذهب الأمير سيف الدين إلى الأزبكية وأوقف الحنطور أمام محل "بايوكي" للأسلحة وحيَّا الخواجة وأخرج مسدسه وطلب خرطوشًا له. ملأ بايوكي المسدس بخمس رصاصات ولف له خمسين في ورقة ناوله إياها. لكنها سقطت منه وهو يعاود ركوب الحنطور فتناولها خادم المحل ونادى عليه. لكنه أشار إليه بغير اهتمام. وكان اسم الأمير مكتوبًا على اللفافة. اتجه الأمير إلى "الكلوب الخديوي" بشارع المناخ.

"كان البرنس فؤاد يقف بالشرفة بالدور الأول مع صديقه "نقولا صباغ" يتحدثان ولم يكن المساء قد حل بعد. لمح نقولا حنطورًا قادمًا من شارع الإسماعيلية في اتجاه الكلوب الذي يقع على ناصيته. حدق بها فرأى الأمير سيف الدين فلفت نظر البرنس فؤاد. علق البرنس ضاحكًا:

– لعله قادم لقتلي.

ابتسم نقولا. ثم تقدم البرنس فؤاد إلى الداخل.

وفي نفس الوقت وصل الأمير سيف الدين وسأل البواب عن البرنس

فؤاد فأخبره بأنه موجودٌ. في قفزة واحدة كان في صالون الدور الأول. وقف "عياني باشا" لتحية البرنس فؤاد الذي دخل. وطوى "مظلوم باشا" صحيفة فرنسية كان يقرأها. لكنهم فوجئوا بالأمير سيف الدين يقف أمامهم شاهرًا مسدسه ووجهه ناحية البرنس صائحًا:

– سأقتلك..

توارى البرنس فؤاد خلف عياني باشا. ثم فر في اتجاه قاعة القمار. أدركه الأمير سيف الدين بثلاث رصاصات. استقرت واحدة في فخذه. وأخرى استقرت ببطنه. وطاشت الثالثة..

أمر "يعقوب باشا" الذي سمع التصايح وطلقات الرصاص بإغلاق باب النادي. وقبض الحراس على الأمير واقتادوه إلى قسم شرطة عابدين."

أطفأت سيجارتي وأنا أتعجب متذمرًا. فها هي الأخبار الشيقة التي تمتلئ أوراق الصحف بها هذه الأيام. لا تستحق تلك الجرائد ثمن ورقها وسعر الحبر لطباعتها. هل يجوز أن نملأ عقول الناس بمثل هذه التفاهات وأخبار هؤلاء السفهاء؟

* * *

الأحد 26 آذار (مارس) 1899

بالفعل صدر العدد الأول من "الجامعة العثمانية" في شهر مارس من عام ألف وثمانمائة وتسع وتسعين. أي بعد نحو عام من إصدار الشيخ رشيد صحيفة "المنار" القاهرية. كنت قد تلقيت بوجل خبر صدور أول عدد لها. رغم حرصه على تأكيد أن هدفها هو الإصلاح الديني والاجتماعي للأمة وبيان أن الإسلام يتفق والعقل والعلم ومصالح البشر. وإبطال الشبهات الواردة على الإسلام وتفنيد ما يعزى إليه من الخرافات. أفردت المجلة إلى جانب المقالات التي تعالج الإصلاح في ميادينه المختلفة بابًا لنشر تفسير الشيخ محمد عبده. وأفردت المنار أقسامًا لأخبار الأمم الإسلامية. والتعريف بأعلام الفكر والحكم والسياسة في العالم العربي والإسلامي. وتناول قضايا الحرية في المغرب والجزائر والشام والهند. إذن فالأمر كان إسلاميًّا خالصًا. يؤسس في رأيي للفرقة بين أبناء الوطن بسبب دينهم وهو عكس ما كنت أربو إليه.

لكن الشيخ رشيد نجح بالفعل في استجلاب "الأستاذ": الشيخ محمد عبده إلى جريدته التي صار يكتب فيها بصفة دورية. ما لي! عليَّ إذن أن أكد وأبذل جهدًا مضاعفًا لكي أصل إلى كتابة ما هو أهم وأرقى. من أجل أن أجتذب الأستاذ إلى صحيفتي فأكسب أفكاره المستنيرة إلى صالح قرائي.

* * *

انكببت أقرأ وأقرأ. أريد أن أجد ثغرة أنفذ منها إلى تحقيق مرادي. إنها الدرجة الأولى في السلم المؤدي إلى الارتقاء بإخوتي من شتى البلدان العربية إلى مصاف الشعوب القوية الفعالة في مثل ذلك العالم الذي نحيا وسط قوانينه ونظمه. ثم قررت وبعد انقضاء العام الأول على إصدار "الجامعة العثمانية" أن أنزع عنها صفة "العثمانية" – رمز التبعية والقهر الذي كنت أنادي بالتحرر منه.

كتبت عن الفيلسوف الفرنسي "جول سيمون" وترجمت أفكاره ومبادئه عبر أعداد متتالية في "الجامعة" باعتباره مثالًا ينبغي أن نقتدي به. كنت أحيل الناس إلى تطوير ذواتهم انطلاقًا منها.

شرعت أكتب قصة "الحب حتى الموت" والتي ضمنتها أفكار سيمون مؤطرة بأسلوبي الأدبي داعيًا إلى حياة اجتماعية متقدمة وسعيدة. كما عرَّبت رواية "البرج الهائل". بل وحولتها إلى مسرحية تدعو إلى الأخلاق الحميدة وتسمو بها وتحط من شأن الفجر والعربدة والسقوط. ذلك هو سبيلي لتحقيق هدفي المنشود.

لكنني لم أكتف بهذا. بل أضفت بابًا ثابتًا في "الجامعة" يبرز عظماء التاريخ ويعلو من شأنهم. كتبت عن الإسكندر الأكبر وتولستوي بل وترجمت أهم رواياته "البعث". كما عرَّبت ولخصت "الكوخ الهندي" و"بول وفرجيني" لبرنار دان دي سان بيير. و"أتالا" لشاتوبريان. كما كتبت عن "جون روسكين" وعن "نظرية داروين في النشوء والارتقاء". وأفضت في الكتابة عن الثورة

الفرنسية وترجمت رواية "نهضة الأسد" لألكسندر دوماس التي تتحدث عن مبادئها وخلفياتها وقادتها والأسباب التي أدت إليها.

* * *

الاثنين 1 كانون الثاني (يناير) 1900

احتفلنا بليلة رأس السنة بالأمس بمنزل روز. ابتاع "كرم" زوجها قنينة شامبانيا احتفالا بانتهاء القرن التاسع عشر وبداية القرن الجديد. ترى ما الذي يعده لنا القرن العشرون؟ كان كرم يحتفل كذلك – بل وربما أساسًا بافتتاح متجره الفخم لبيع المجوهرات. اتفق مع ابن عمه – ولا أذكر اسمه الآن – تاجر الألماس بجوهانسبرج على الشراكة وفتح منفذ للبيع هنا بالإسكندرية. وفقهم الله لما فيه الخير لروز. فلقد عانت كثيرًا لكثرة مصائبه وسوء خلقه وخياناته المتعاقبة لها.

سهرنا حتى الصباح. لم تقم القيامة كما زعموا على صفحات الجرائد... ثم لففت جسمي بمعطفي الثقيل وانصرفت عائدًا إلى شقتي. إلا أني عرجت إلى شاطئ الكورنيش لأستقبل أول شعاع ضوئي يرسله القرن الجديد أمام موج البحر. الطريق خال تمامًا. ولا تدرك أذناي إلا هزيز الرياح. غطت السحب المحاق الذي أضاء على استحياء زبد الموج المنقلب. الأمواج

تتوالى. أشعر وكأنها تنقل إليَّ رسائل غامضة. الجو بارد جدًا. يحول دون ما أن أستمع لرسائل البحر إليَّ. أدركت أنه ينبغي عليّ أن أعود إلى البيت فورًا.

* * *

انتابتني بعدها نوبات السعال الفظيعة. كما طفق العرق يجتاحني فيبلل من ثيابي وكأنني سقطت رغمًا مني في لجة بحر الإسكندرية دون أن أخطو خطوة واحدة خارج شقتي بشارع رشيد. ربما كانت زيارتي للكورنيش من بعد سهرة ليلة رأس السنة سببًا في مرضي. البرودة كانت قارصة ليلتها. نعم.. أذكر ذلك جيدًا الآن. عليَّ بشراب الشيح المغلي والاستدفاء بأوراق الجرائد فوق صدري وتحت ملابسي الداخلية. كما نصحني "عبد النور" بواب البناية التي أقطن بها. الرجل النوبي الدائم الابتسام والذي كان يبتاع لي الطعام كل يوم.

* * *

استمرت تلك النوبات تزورني بصورة شبه يومية. وتدريجيًا انسلت روح ضعف تسري بين جنباتي فلم أعد أقوى على الجلوس إلى مكتبي حتى يتسنى لي أن أقرأ أو أكتب.

حين جاء ميخائيل ليعودني وليجمع كتاباتي فيتضمنها عدد الجامعة

الجديد ذات صباح شتوي وجدني مطروحًا فوق فراشي. لا أقوى حتى على القيام لأفتح له الباب. ذلك الذي تركته منفرجًا له منذ مساء الليلة الفائتة تحسبًا لقدومه. هاله منظري. بل واقترب مني مستكشفًا إن كنت بعد على قيد الحياة – كما قال لي فيما بعد. أفاقني بهزه إياي. ثم حملني بعنفوان فوق كتفه كالشوال. ويبدو أنني كنت قد فقدت الكثير من وزني فحملني فوق ذراعيه الشابتين إلى مبرة "المستشفى الاغريقي" على الفور.

قضيت أيامًا هناك – كما تعرفين يا عزيزتي روز – وتخبط الأطباء في تشخيص حالتي. الأهم هو كوني قد تعافيت قليلًا بعد أن ضخوا السوائل إلى جوفي إضافة إلى الطعام الشهي والفواكه السكندرية الفواحة فاستعدت قواي سريعًا. بيْد إنهم نصحوني بالراحة التامة. ولكن أين لي من تلكم الراحة وأنا أعمل بمفردي – وأنا لا أغوِّر هنا من أهمية ابنك العزيز ميخائيل – فهو منقذي كما تعلمين وذراعي الأيمن.

وفي هذا الشأن أيضًا أرسل إليَّ صديقنا العزيز بشارة تقلا – صاحب جريدة "الأهرام" بالقاهرة – يطلب إليَّ الإشراف على صحيفة "صدى الأهرام" التي يتطلع إلى نشرها بالإسكندرية فيوفر لي سبيلًا إلى الراحة من عناء القيام بشأن جريدتي "الجامعة" بمفردي. ولست أعلم كيف تواترت الأنباء بسرعة هكذا حتى بلغته. لكنني على كل حال ممتنٌ لمساعدته. لذا وافقت على عرضه على أن أواظب على إصدار الجامعة مرة واحدة شهريًّا.

* * *

ولكن طرأ في الأمر أمرٌ. ومسني شيطان "أرنست رينان" الفيلسوف الفرنسي الشهير.

ترجمت إلى العربية كتابه التاريخي "تاريخ الرسل". ولكنه ما لبث أن أدخلني إلى رحاب عالم ممتد من الفلاسفة الغربيين الذين ترجمت كتابات بعضهم كذلك. لكن كتابه عن ابن رشد الفيلسوف الأندلسي العربي الجليل كان آخر ما وقع بين يديَّ من كتابات عن ذلك الفيلسوف الكبير الذي ضاعت كتاباته العربية فلم تصل إلينا إلا ترجمات أجنبية. وحدث أن كانت من ضمنها ترجمة أرنست رينان التي قرأتها مرارًا وتكرارًا. ثم قررت ترجمتها ونشرها بالعربية فوق صفحات الجامعة. متحسبًا ما قد تثيره من أعاصير. لكنني فطنت أيضًا إلى أن الهواء الفاسد القابع فوقنا لا بد وأن تطيح به الزوابع والأعاصير فيتبدد ويحل الهواء النقي مقامه.

ولكن بعد يوم واحد من توارد ذلك الخاطر إلى رأسي. تبدت لي سخرية الأقدار مني – إذ عاودني السعال وارتادتني الحرارة. وتدفق العرق مني كالسيل فسلبني المرض عافيتي من جديد. طلبت المعونة مستنجدًا قبل أن تخور قواي تمامًا. توجهتُ إلى المستشفى فإذا بالطبيب اليوناني "أنطونيادس زابا" يقول لي بكل ثقة وبالحرف الواحد:

– تحتاج إلى هواء نقي يبدل الجو العطن المحيط بك. كما يقتضي الأمر مراجعة طبيب أخصائي في أمراض الصدر يعمل هناك في آخر الدنيا – في مدينة نيويورك الأمريكية! هذا هو سبيلك الأوحد من أجل حسن التشخيص ثم الشروع في العلاج السليم.

وعلى الفور أرسلت إلى ابن عمي "إلياس أنطون" برقية. فهو يقطن مدينة نيويورك تلك منذ سنوات حتى بات يمتلك محلًا تجاريًّا هناك. طلبت منه مساعدتي في مقابلة الطبيب الأخصائي الذي أوصى به معالجي اليوناني السكندري.

جاء رده خلال ثلاثة أسابيع على نحو شبه معجزي ملحًّا عليَّ بالمجيء على الفور إذ اتفق مع الأخصائي بالفعل والذي وافق بدوره لأنه كان يعرف طبيبي هنا معرفة شخصيّة. لكن ما زاد من رغبتي في السفر وشجعني عليه كمُنَ في طرح إلياس ابن عمِّي فكرة مشاركتي في إصدار "الجامعة" من مدينة نيويورك فيساهم هو في التكلفة في مقابل مشاركتي في الأرباح. كما أنه لَمَّح برغبته في إصدار صحيفة محلية تعني بشئون المهاجرين العرب هناك. أعجبتني الفكرة وزهوت بإصدار الجامعة من نيويورك الأمريكية – شأنها شأن جريدة "نيويورك تايمز" وشجعني حماسه فشرعت فورًا في الإعداد للسفر.

* * *

الخميس 24 أيار (مايو) 1900

كان عليَّ أن أضع اللمسات الأخيرة على رواياتي الثلاث قبل الرحيل إلى نيويورك. الله وحده يعلم إن كنت سأعود من هناك أم لا – لكن صوتًا بداخلي ما زال يهمس إليّ بسلامة رجوعي.

الرواية الأولى "الدين. والعلم. والمال." (أو المدن الثلاث). كنت كتبتها منذ نحو عام وانتهيت منها قبل نحو شهرين – اللهم إلا بعض الرتوش القليلة المتبقية. وهي تدور عن رحلة "حليم" وصديقه "صادق" إلى مدن ثلاث – مدينة للساعين وراء المال. وأخرى للفئة المحبذة للعلم. وثالثة لذوي الميول الدينية. ينبهر الصديقان حين يدخلان المدينة الأولى بقصورها المبهرة وأناسها المتبرجين. ثم ينتقلان إلى الثانية حيث يعم الهدوء والسكينة. أما في الثالثة فالفخامة قاصرة على الكنائس والجوامع الموجودة بها. هناك يملأ الهواء أصوات المؤذنين مختلطًا بأجراس الكنائس. إنما يدور خلاف بين أهل المدن الثلاث فيشهد الصديقان اجتماعًا يطرحون فيه خلافاتهم ويسعون إلى حلها. أنا أعلم أنها ليست درامية بفحواها التقليدي – ولكنني أسعى إلى إيصال أفكاري بأي شكل على أية حال.

لذا فأنا أعترف بأنِّي لست أعتبر "الدين والعلم والمال" كذلك الأمر – رواية بالمعنى المتعارف عليه. بل أنا أعتبرها مجرد بحث فلسفي. اجتماعي. ينظر إلى العلاقة التي يفترض أنها قائمة بين الدين والعلم والمال. لكنني أطلقت عليها صفة الرواية على سبيل التساهل.

أما "الوحش. الوحش. الوحش." (أو سياحة في أرز لبنان). فهي تتحدث عن شابين "سليم" و"كليم" اللذين يقومان بسياحة في أرجاء شمال لبنان – فيصحبان معهما مكاريًّا ليرشدهما في الطريق. يطوف الشابان بعدة أشخاص من المؤمنين الرهبان في دير. ثم بأناس يرفضون أي أغراب

عنهم لاختلاف العقيدة. وبمجذوب فاقد العقل. وبمريض بالسل. وبشيخ مجنون. يتصارع كل هؤلاء لأن ثمة شبان أمريكيين قد وفدوا إلى القرية ليستأجروا منزلًا بها لغرض الاستجمام. إذ ما يرفض أهل القرية طلبهم لا لشيء إلا لأنهم من تابعي مذهب البروتستانت. يتداخل الصديقان في أحوال أبناء هذه القرية العجيبة. ويتبينا اختلافاتهم وصراعاتهم التي أدت إلى جل مشاكلهم. فيحاولان معهم حتى يدركوا أن الحل الأمثل من أجل البقاء يكمن في التماهي والتقارب ما بينهم. فتحل كل معضلاتهم في النهاية. هذه روايتي الثانية التي كتبتها خلال أسبوعين في خريف العام الماضي وأظن أنها اكتملت من حيث الصياغة ولقد انتهيت من مراجعتها بالفعل.

أم عن روايتي الثالثة – "أورشليم الجديدة" (أو فتح العرب بيت المقدس) فتدور أحداثها في عام 636 الميلادي. عشية عيد الميلاد بمدينة القدس. تعج المدينة بالحجاج الذين أتوا إليها منتظرين وصول "البطريرك صفرانيوس" لإقامة قداس منتصف الليل. تصير همهمة بينهم ثم تتصاعد إلى ضوضاء تفيد بأن ثمة "يهودي" مندس بينهم. فيبحث القوم ما بينهم ليجدوا شابًا اسمه "إيليا" يحسبونه ذاك اليهودي المزعوم فيوسعونه ضربًا. ولا تنقذه من بين أيديهم إلا امرأة تعرفت عليه وشهدت بأنه مسيحيٌّ مؤمن فيطلقونه. ثم يحوم الشك حول شيخ وابنته ويشتبه إيليا في كونهما فعلًا يهوديان فيسارع بالإعلان عن إنه يعرف أن الفتاة وثنية أتت إلى القدس لكي تتعمد وتصير مسيحية فيصدقه الجمع. ولكنهم يسلمونها إلى البطريرك

الذي حضر أخيرًا. فيأمر الأخير بإيداعها في أحد الأديرة وبإطلاق سراح الشيخ. أما عن إيليا فلقد بدأت عاطفته تتنامى تجاه تلك الفتاة. فيسارع للقائها بين جنبات الدير. وهناك يشمئز من تصرفات الرهبان وصراعاتهم فيما بينهم. ويلحظ إيليا أن الطبقية والظلم والتعالي موجودة بين أسوار الدير كما هي ماثلة خارجها. فالقامات العالية من الرهبان ترفل في الملابس الزاهية ويتحلون بالمجوهرات – بينما يقبع الشبان منهم في طين الحقول يزرعون ويحرثون ثم يلقون معاملة خشنة بل ويتعرضون للإهانة أحيانًا من قِبل الرؤساء حين يلقونهم.

يخلص الناس إذن أن الدين لا يصلح لإصلاح البنى الاجتماعية والسياسية في المجتمع. ومن ثم يجدون أن الحل يكمن في العلم لتدارك الأوضاع المعقدة التي آل إليها المجتمع. حيث أن الدين ومبادئه إنما وجدت لتقويم المجتمعات حينما كانت أكثر بداءة.

ثم تتساقط الممالك أمام الغزوات العربية المتوالية التي تصل أخيرًا إلى القدس. يتخلى الإمبراطور الروماني عن رعاياه في سوريا وفلسطين. ويدرك البطريرك صفرانيوس أنه لا محالة من تسليم القدس إلى العرب. لكنه يشترط ألا يقدمها إلا إلى "عمر بن الخطاب" لما تناهى إليه عن عدله ونزاهته.

الخميس 6 حزيران (يونية) 1901

وضعت منهاج كتابي القادم "فلسفة ابن رشد" الذي عليَّ إتمامه في أقل من ستة أشهر. لم يكن هذا بالأمر المستحيل ولكن ينبغي أن أكرس له كل جهدي. أما لماذا ابن رشد؟ فلسوف أجيب عن هذا التساؤل إليكِ أنتِ يا روز هنا فوق صفحات هذه المذكرات التي أعلم أنك لن تطالعيها إلا بعد رحيلي.

هذا المؤلَّف يا عزيزتي أعتزم أن أوجهه إلى عقلاء الشرقيين في الإسلام والمسيحية وغيرهما. الجيل الجديد. أو النبت الجديد الذي صار كثيرًا الآن في هذا الشرق. هؤلاء العقلاء الذين يشعرون بالمضار التي يجرها عليهم المزج بين الدين والدنيا فصاروا يطلبون وضع أديانهم جانبًا في مكانٍ مقدسٍ محترم فيتجنبون الإلحاد من جهة ومن الجهة الأخرى يرومون من ذاك الاتحاد بين الأديان اتحادًا حقيقيًّا ومجاراة تيار التمدن الأوروبي الجديد لمزاحمة أهله وإلا جرفهم جميعًا وجعلهم مسخّرين لغيرهم.

إن شرقنا العزيز يا عزيزتي بحاجة ماسة إلى الإصلاح كما تعرفين. ولأن البشر هنا لم يتعودوا مثل هذا الإصلاح حيث أنه نوعٌ من الخروج على عادات وتقاليد وأعراف مارسوها طويلًا وعلى أنماط عيشٍ ألفوها. فها أنا ذا أضع الكتاب تحت حماية هؤلاء العقلاء انطلاقًا من أنهم مؤهلون قبل غيرهم للاضطلاع بمهام الإصلاح.

أما عن الفيلسوف القرطبي الإسلامي ابن رشد فهو خير ممثل للجانب العقلاني في التراث العربي الإسلامي. فالأسس الفلسفية العقلانية التي توصَّل إليها لمحو الخلاف بين الدين والعقل (أو الحكمة والشريعة) هي نفسها الأسس التي تنهض عليها العقلانية الغربية الحديثة. ومن رأي ابن رشد أن الحاكم الظالم هو ذلك الذي يحكم الشعب من أجل نفسه لا من أجل الشعب. وإن شر الظلم هو ظلم رجال الدين. وإن أحوال العرب في عهد الخلفاء الراشدين كانت على غاية من الصلاح. فكأنما وصف أفلاطون حكومتهم لَمَّا وصف في "جمهوريته" الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالاً لجميع الحكومات. ولكن "معاوية بن أبي سفيان" – في رأيه – هدم ذلك البناء الجليل القديم وأقام مكانه دولة بني أمية وسلطانها الشديد. ففتح بذلك بابًا للفتن التي لا تزال إلى الآن قائمة قاعدة حتى في بلادنا هذه (الأندلس) كما كتب.

وتأييدًا لهذا القول ننقل ما رواه رنان في الصفحة 171 من كتابه (ابن رشد) وهذا نصُّه بحرفه: "كان خصوم الفلسفة يقولون إن هذه الصناعة تؤدي إلى الاعتقاد بقدم العالم ووجوب وجوده وإنكار البعث والحساب والمعيشة بلا قيد ولا شريعة جريًا مع الشهوات. (قال الغزالي): ومما لا بد من التصريح به أن العلم الطبيعي أدى أحيانًا ببعض العلماء المسلمين إلى شيء من المادية. فإن طائفة الحشَّاشين الذين كان الخلفاء والأمراء يرتجلون منهم في قصورهم إنما كانوا فلاسفة يقطعون أوقاتهم بتأليف كتب في الفلسفة. ولما دخل جيش المغول إلى قصرهم في علموت ذلك القصر

الذي كان بمثابة عشٍّ للعُقبان. وجدوا فيه مدرسة علمية كاملة ومكتبة واسعة وغرفة لدرس العلم الطبيعي بالتجربة والامتحان. ومرصدًا للفلك آلاته في غاية الإتقان. وفضلاً عن ذلك – فإن الفلاسفة عند العرب كانوا على وجه الإجمال قليلي الاهتمام بالعبادات. فإن (ابن سينا) كان يشرب الخمر ويحب الغناء ويعكف على الملاذ ويفعل أفعال الجاهلية. وكثيرًا ما كان يصرف الليالي مع تلامذته في هذه الأمور. ولما قيل له مرة أن الخمر محرمة أجاب: قد حرمت الخمر لأنها تثير الخصام والعداء بين الشاربين. وبما أنني معصوم من ذلك بحكمتي فإنني أتناولها لتنبيه فكري وحث خاطري. (رواه الغزالي). وبذلك كان فلاسفة العرب معتبَرين بين أبناء وطنهم بمنزلة (الفجَّار) في القرن السابع عشر عندنا لأنه يصعب التصديق بأن رجالاً واسعي النظر كأولئك الرجال لم يعلموا من قواعد الدين الرمزية فوق ما كان العامة يعلمونه. وقد قال الغزالي: وقد نجد أحدهم (أي أحد الفلاسفة) يقرأ القرآن ويحضر الحفلات الدينية والصلوات ويثني على الدين من شفتيه. إذا سُئل إذا كنت لا تعتقد بالنبوءات فلماذا تصلي؟ فإنه يجيب: لأن الصلاة عادة ووسيلة لإنقاذ حياتي من الموت. وهكذا لا يكف عن شرب الخمر وإتيان كل ضروب الشناعات والكفر."

"فإذا كان أبو الوليد قد عني بالزنادقة هؤلاء الذين لا يحترمون الفضائل الدينية وينصِّبون أنفسهم مثالاً رديئًا للناس وغرضهم إبطال الشرائع والفضائل كما كان غرض (الحشاشين) الذين كانوا بمنزلة الطوائف الفوضوية في هذا الزمان فإن له شيئًا من العذر فيما قاله. ولا ريب أنه

يكـون قد قال ما قاله مـن صميم قلبه لأن أفعالاً كهـذه الأفعال تهدم ما تبنيـه الفلسفة وتسـد السبيل في وجهها. إذ تنفر العقـول منها. ولكن إذا كان أبو الوليد أطلق اسـم (الزنادقة) على الباحثين بالعقل والمتطرفين في هـذا البحـث أكثر منه دون أن ينشأ عنهـم ضرر بالفضائل فليس له عذر غير عذر الاتقاء والاحتماء."

وأخيرًا فإنني أعتقد – يا أختي الغالية – أن رسالة ما قد وُضعت على عاتقي يوم جئت إلى هذه الدنيا. وأنا مطالَب بأداء تلك الرسالة على خير وجه. لذلك فأمر رحيلي إلى نيويورك هذا في عداد المغامرة. أتضرع إلى الله أن تكلل بالنجاح. ومع ذلك فإذا كانت تلك هي النهاية فعليَّ أن أنجز مهمتي أولاً قبل السفر لعل وعسى. وبالطبع فأنا لم أجرؤ أن أشاركك تلك الخواطر وجهًا لوجه – يا عزيزتي روز – لأنني أعلم مدى وقعها على قلبك الرهيف. ولكنني أطلق لقلمي العنان في وحدتي هذه الليلة فأطرح أفكاري بكل حرية على الورق. آملاً أن تفسر لك ذات يوم أسباب انعكافي وإصراري على إتمام هذا العمل الشاق خلال تلك الفترة الوجيزة.

السبت 26 نيسان (أبريل) 1902

تعطل السفر قليلًا لأسباب مادية بحتة. عليَّ أن أكثر من العمل لأوفر بعض المال يساعدني على الخوض في غمار التجربة بنجاح. قررت أن أفاتح

كرم زوج أختي بأمر العمل في محل المصوغات الذي امتلكه. رحب بدوره بل وأبدى ابتهاجًا غامرًا لم أتوقعه في الواقع. لكني أيقنت السبب بعدها. إذ تزامن طلبي مع طرده لأحد العمال الذي أمسك به متلبسًا باختلاس بعض الأموال من خزينة الدكان.

الأحد 4 كانون ثان (يناير) 1903

مرت ستة أشهر على عملي مع كرم. لم أعد أطيق الاستمرار أكثر من ذلك لسبب سوء سلوكه واستهتاره. فهو يحضر إلى محل العمل متأخرا في معظم الأيام بل وتفوح منه رائحة الخمر أحيانًا. كما أنه لا يستحي فيغازل النسوة في المتجر أمامي ويداعبهن بل ويتواعدهن إلى نزهة بالمنشية أو إلى إحدى الفنادق أو المطاعم الشهيرة وكأنني لست ظاهرًا أمامه – أو كأنني لست أخا زوجه وبيدي أن أصارحها بكل صنعه المشين.

ولكنني – رفقة بروز – لم آتيها بأي من تلك الأفعال التي من شأنها أن تحيل حياتها إلى جحيم بسببي.

بالأمس صارحته على أي حال بأنني لن أعود إلى العمل يوم الإثنين مكتفيًا بما أمنته من المال فيصير رصيدًا لا بأس به يكفي لابتياع تذكرة السفر على أقل تقدير.

السبت 14 شباط (فبراير) 1903

مررت اليوم بمكتب السفريات لأشتري بطاقة السفر إلى نيويورك فإذا بالموظف يفجر قنبلة في وجهي حين أعلمني بأن خطوط الملاحة إلى الولايات المتحدة لا تعمل أثناء فصل الشتاء لسبب سوء الأحوال الجوية هناك وخاصة عند عبور المحيط الأطلسي.

حسنٌ. عليّ بالانتظار حتى مقدم الربيع.

وفي نهاية الأمر أنتهز الفرصة للمزيد من الكتابة في الجامعة. لقد بدأت الأعداد في النفاذ. لكنها مع ذلك تستنزف كل مواردي فلا يبقى في جيبي قرشٌ واحدً لأدخره بين العدد والعدد الذي يليه.

هل يجوز ذلك؟ وهل أسمح بضياع ما جمعته من عملي مع كرم كل تلك الشهور؟

حتمًا لا! ولن أجد نفسي محتاجًا لخوض مثل تلك التجربة المريرة مجددًا.

طرأت ليَّ الآن فكرة نيِّرة. لماذا لا أتخذ من هذا الوقت فرصة للانتهاء من كتابي "فلسفة ابن رشد" وطبعه على نفقتي الآن؟ ما معي من نقود يكفي الكتاب وتذكرة السفر. لو لم أفعل هذا ستبدد النقود من بين يديّ.

الاثنين 14 أيلول (سبتمبر) 1903

أمضيت ستة أشهر طريح الفراش.

لقد احتل المرض كل نتفة من رئتيّ فتغلَّب عليّ السعال واشتعل جسدي بنار مستعرة وتصببت عرقًا كالسيول شهورًا طويلة.

انتقلت أمي من بيت روز لتبقى معي في شقتي لتطببني. ظلت تتفنن في إعداد صنوف من الطعام لعلي أقدر على استعادة ما فقدته من وزني.

فقدت ثلث وزني حتى انتصف موسم الصيف حين بدأت في التعافي.

لكن أحلى ما لممته من سُكنى أمي معي كان في حكاياتها التي لا تنقطع وهي ساهرة تواسيني في شدة مرضي. حكت لي يومًا أنها كانت جد فقيرة قبل أن ترتبط بأبي. ثم بعد السنوات الأولى من زواجهما تحسنت بهم الأحوال. اعترفت لي أنها صارت حينها تتعمد وضع قطع النقود المعدنية في قاع حقيبة يدها لكي تتسلى برنتها وهي ترتطم بعضها ببعض حين تسير بالطريق – كما تُباهي برجع ذاك الرنين البهيج المارة من حولها. وحكايا أخرى كثيرة ملأت بها أيامي ولياليّ الطوال حتى تماثلت للشفاء.

أما الآن وقد استرددت عافيتي تمامًا واستعدت نضارتي اتضح لي مع الأسف أن الخريف على الأبواب.

عليَّ بالانتظار حتى يزول الخريف ثم يرحل عنَّا الشتاء بدوره فيتسنى لي السفر. سوف أنهي مشروعي الذي بدأته في نشر كتاب ابن رشد.

أما الآن فالقراءة والكتابة ملاذي وملجأي إلى أن يحين الموعد.

الرابع

السبت 26 نيسان (أبريل) 1904

فوق ظهر باخرة جديدة رمت بي الدنيا مرة أخرى.

أبحرنا فجرًا بعد أن ودعتني باكية أختي الحبيبة روز. كانت نظراتها المتلهفة توحي بأننا لن نلتقي من جديد. أما عني أنا فكنت متأكدًا من عودتي بسلامة الله إلى الإسكندرية رغم أني كنت أخشى أن تطول بي فترة العلاج هناك فلا تسهب الأقدار من عمر روز لاستقبالي في الميناء يوم إيابي.

روز لم تكن اختي الكبرى فحسب بل أمي التي ربتني لانشغال امنا بصغارها "رمزه" و"ماريانا" وأنطون" قبل نحو عشرين عامًا. كما إنها صديقتي كذلك. ولا أذكر أبدًا أن اتخذت قرارًا واحدًا دون مشاورتها بشأنه. بل وحتى أسراري ومغامراتي الشبابية وطرقات العاطفة إلى باب قلبي كنت دائمًا ما أهرع جانبها لأفضفض إليها وألتمس النصح بين يديها.

من فوق ظهر السفينة ودعت روز وميخائيل وكرم أبيه. وشهدتُ مدينة الإسكندرية تتضاءل أمامي. وسرعان ما غرقت في لجة البحر الأزرق الذي أحاط بي من جديد. نفس الزرقة التي اكتنفتني يوم برحت طرابلس. غصت في اليَم ولم يتبق سوى رأسي طافيًا يناجيك يا الله.

يا الله رفقًا بهذا الجسد!

لقد فقدت إلى الآن الكثير من عافيتي ومن قدرتي على القيام بالعمل الذي جبلتني لأعمله. ألم تخلق فيّ أنت تلك الرغبة في العمل من أجل توحيد أبنائك؟ ألم تكن سبحانك صاحب تلك الجذوة التي أشعلتها بقلبي ونفسي منذ حداثتي؟ إلى متى تتركني أصارع الأمواج وحدي؟ إلى متى تسمح بأن تلاطمني أمواج العالم فلا تنتشلني يدك قبل أن أغرق؟ فهل خلقتني لكي أفشل في تحقيق الغاية التي آمنت بأنّي خلقت من أجلها. أم إنني أخطأت الهدف وغيمت الأوهام عينيَّ؟

* * *

أمضيت وقتي بين السعال المستمر وبين قراءة كتاب أرنست رنان عن ابن رشد. يا له من رجل ويا لها من سيرة. تيقنت في النهاية – رغم صدور كتابي عن "فلسفة ابن رشد" قبل فترة – إلا أن الكتابة عن ابن رشد وفلسفته سوف تصبح أول ما سوف تحويه مجلة "الجامعة" الصادرة من نيويورك. أجزم أن عدد قراء الجامعة بات يفوق مقتنيي الكتب هذه الأيام.

الباخرة لا شك أكبر وأكثر فخامة بالمقارنة بتلك التي حملتني من ميناء طرابلس إلى الإسكندرية. ركابها الأثرياء يرفلون في ملابسهم الزاهية الألوان وتشوح منهم عطورهم الأخاذة. ولكنني مع ذلك شعرت بوحدة قاتلة. بل وحتى الشيخ رشيد رضا افتقدت مناوشاته بل وغطرسته. ومع ذلك فربما أثر فيَّ بالفعل تعرضي للهواء الطلق فوق ظهر الباخرة. فلقد أخذ السعال يخف من حدته – ولو قليلًا. شعرت بمقدار من الارتياح إذ كنت أشعر بخجل شديد من إزعاج الركاب من حولي بنحيب الكلاب ذاك الذي أصدره باستمرار.

في غضون ثلاثة أسابيع وصلنا إلى ميناء "نيويورك" فطالعنا في أول الأمر "تمثال الحرية" الشهير. دهشت من عملقته وكنت أعتقده بحجم انسان مثلًا – أو نظيرًا لتمثال الإسكندر الأكبر بالمنشية على أفضل تقدير. فإذا به أطول من أي بناء شهدته بطول أيامي.

استقبلني ابن عمي إلياس بالميناء مرحبًا بالأحضان والقبلات. ولم أكن قد رأيته منذ كنا صبيين يلعبان سويًّا في حقول الضيعة بلبنان. الحق

أقول لكِ إنني بالكاد تعرفت إليه. فلقد أطلق لحيته وارتدى قبعة سوداء كما هو حال معظم الناس هنا. ربما صار إلياس أمريكيًّا بحق يا روز – لكنه عرفني على الفور بالرغم من بوادر المرض التي عصفت بي.

وفي لحظة غابت كل تلك السنين التي باعدت ما بيننا وكأننا لم نفترق أبدًا! يا لسعادة لقاء الأصدقاء ويا لغبطة اجتماع الأهل! في بهجة صار إلياس يشير إلى كل الأشياء من حولنا وهو يشرح لي أمر كل منها. يحدثني عن الشوارع والمحال التجارية وعن الصحف اليومية والمجلات الدورية وعن المقاهي والمطاعم التي يفضلها وعن الناس وأطيافهم. اكتشفت أن البشر هنا أصناف ومراتب حسب لونهم وأصولهم كما يحدد ذلك أماكن سكناهم ووظائفهم بل ونوع لباسهم وأين يجلسون في المركبات العامة وأين يأكلون ويشربون بل وأين يبولون. لم يتوقف عن الكلام لساعات طوال وكأنه بات ممنوعًا عن التكلم لسنين وأخيرًا أطلق سراح لسانه...

أدركت على الفور أمر النقلة الحضارية التي خضت عراكها. فالترام الذي بت أباهيكم به بالإسكندرية – وكان يشتغل بالبخار – أما هنا فهو يعمل بالكهرباء. وإلى ذلك فهو موجود بكل شارع تقريبًا. كما أعترف بأن لمحت بضعة عربات خاصة وعامة تسير بمحرك يهدر صارخًا – وإن لم تجرها الخيول. والبنايات التي اعتقدتها صروحًا بالإسكندرية ما هي إلا أقزامًا هنا مقارنة بمثيلاتها في كل مكان. تتباهى بعشرات الطوابق المتلاحقة حتى تصل إلى عنان السماء. والشوارع برمتها بل وحتى الحواري والطرقات

كانت كلها مبلطة بقطع من البازلت. وشديدة النظافة على نحو يجعلك تخجلين أن تخطيها بحذائك الذي داس فوق أرض معتادة من قبل.

إنما صفعني – مع ذلك – تكبُّر وغرور أهل مدينة نيويورك. باينَت طيبة وملاطفة أبناء الإسكندرية التي استقبلوني بها قبل أعوام.

الكل هنا يبدون في عجالة من أمرهم وكأن الحياة برمتها على وشك الانتهاء في أية لحظة. عجرفة الكلمات الممجوجة. وتعالي النظرات المحتقرة. وامتعاض الشفاه المقلوبة. بينما الأيدي مضمومة إلى صدور ضيقة أو مخفية في جيوب سراويل تعدو مبتعدة.

عربة الترام الكهربائية تلك أقلتني وإلياس ابن عمي. ثم قذفت بنا إلى "ميدان الأوقات" (كما ترجمت اسمه " تايمز سكوير" لابن عمي فانفجر ضاحكًا). شقته الضيقة تقع في الطابق الثالث من بناية هائلة تقوم إلى أحد جوانب شارع ضيق متفرع من الميدان الشهير هنا. العمارات الشاهقة الارتفاع تطل إلينا في تعال وكبرياء في كل مكان. وعجبت لمقاعد مرتفعة تكاد تحف بكل جدار. يجلس أمام الواحدة منها زنجيٌّ محتضنًا بين قدميه صندوقًا خشبيًّا لتلميع الأحذية. وموظفين بشارات سوداء تغطي أكمام قمصانهم يحتلون الكراسي واضعين أقدامهم في تكاسل فوق الصناديق الخشبية وهم يتصفحون جريدة أو كتاب. لكن حتى ماسحي الأحذية هؤلاء يجولون بفرشهم الناعمة ويسحبون أقمشتهم فوق النعال الملساء في تعال وحذق وكأنهم يصوغون عملية جراحية.

عقدت الأمر على تعلم لغتهم بأي طريقة حتى يتسنى لي أن أفهمهم.

الملحوظ هنا يا روز أن الجميع يقرأون – في الترام وحول مناضد الغداء وفي الحدائق المنتشرة في كل مكان. أبشرت خيرًا من إصدار جريدتنا هنا فالعدوى لا بد أن انتقلت إلى العرب النازحين أيضًا.

والطريف كذلك أن المطر يسقط هنا في لجة حر الصيف. تفكرت في الأمر قليلًا – يا عزيزتي – فأدركت أن الله لابد يحب هؤلاء القوم أكثر منا – رغم الاعتقاد الشائع بعكس ذلك. فما احتياجنا للأمطار في الشتاء والتي تزيد من برودة الجو في بلادنا؟ أما هنا فالمطر ينهمر في الصيف فيلطف لهم الجو الحار الخانق الذي يكاد أن يفتك بي! ومن الطريف كذلك متابعة هؤلاء البشر وكيف يستقبلون تلك الأمطار الهاطلة بشدة لم أر لها مثيلًا من قبل. فهم يفتحون مظلاتهم في عجالة حتى بغير أن يتوقفوا عن مسيرهم ولو للحظة. لا يأبهون إذا تبللت قمصان الرجال أو فساتين النساء. بينما في بلادنا يعلنون حالة الطوارئ إذا ما نزلت الأمطار في فصل الشتاء فهمَّت ورطبت ستراتنا ومعاطفنا التي نلتحف بها وتحولت شوارعنا إلى ترع ومصارف. فتتوقف بنا عجلة الحياة. ونعتكف في بيوتنا أيامًا حينذاك.

ما يزال السعال يعاودني وإن بات أقل من ذي قبل.

* * *

الأربعاء 18 أيار (مايو) 1904

على أي حال فلقد اصطحبني إلياس صباح اليوم إلى مستشفى "بريسبيتيريان" (أو المشيخة كما فسر لي اسمها إلياس) لمقابلة الأخصائي الذي أوصى طبيبي السكندري أنطونيادس زابا بمعاودته. لا أخفي عليكِ أمر انبهاري بضخامة المبنى ونظافته الخيالية – يا عزيزتي روز. استقبلتنا سيدة تجلس إلى مكتب فخم تعلوها يافطة تقول "استعلام". حسبتها زوج مدير المستشفى أول الأمر لما كانت عليه من أناقة ووقار. سألها إلياس بطلاقة انجليزية حسدتُه عليها عن الطبيب البروفيسور. فأجابته عبر شفتين مطليتين بأحمر وقور. ثم أشارت بيد بيضاء رقيقة نحو المصعد هناك. نعم عزيزتي مصعد كهربي كالغرفة الضيقة تدخلينها فيرتفع بك إلى الطابق الذي تختارين. لكن ما بالي أصف لك حال المصعد في حين النساء هنا يرجلن في جمال أخاذ كفيل بأن يصعد بروحك نحو طوابق أعلى فأعلى..

تفكرت – يا عزيزتي – لحظتها في أني لو أراد الله تحقيق مشيئة أبي في أمر الزواج فلن أختار لي عروسًا إلا من هنا.

في مكتبه الوثير تلقانا "البروفيسور توماس وليامز" بحاجبيه الكثيفين المعقودين فوق عينين زرقاوين عاتيتين كعينيّ نمر. وشعره الكستنائي.

وشاربه ولحيته الصفراوين. وخديه الأبيضين المشبعين بحمرة نضرة. فأضحى الكهل كمهرجان من الألوان. تولى إلياس الحديث عني بينما كنت أتسلى أنا بالسعال المتقطع. ومتابعة أنفاس غليونه وهي تتصاعد تباعًا من فمه ومنخاره. بينما انصرف يتفوه بكلمات لا أفهمها وكأنه قاطرة تسحب قطارًا خلفها تصدر صفارات متناغمة.

وبعد وقت ليس بقليل توقف الرجلان عن الكلام. ثم أشار الرجل إلى ممرضة شقراء كانت تقف بعيدًا عند باب الحجرة فأسرعت هي بالاقتراب نحوي. أعطاها البروفيسور – فور انتهى من مخاطبة إلياس عني – كراس كان يدون به بعض الأشياء. ثم سحبتني هي بحسم لطيف داعية إياي لأن أقوم وأتبعها. خرجنا من غرفة الطبيب. ثم سرنا في ممر طويل نحو غرفة أخرى على بعد عدة أمتار. كنت أرمقها خلسة حينما انكفئ فوق كفي المضموم لأسعل. ثم أعقد مقارنة موضوعية بين جمالها وبين بهاء السيدة التي لاقتنا عند مدخل المستشفى. تفكرت بأنه لا شك في إن تلك كانت أحلى وأكثر أناقة. أما هاذي فهي أنضر وأكثر شبابًا وحيوية. وسط حيرتي فوجئت بها تدفعني نحو الغرفة المنشودة وتطلب مني أن أخلع ملابسي بإشارة من أصابعها إذ أدركَت أنني لا أتحدث الإنجليزية. رددت طلبها بفرنسيتي التي أتقنها لكنها أومأت نافية فهمها لأي مما تفوهت به.

استدرت واستجبت لأوامرها ولكنني واجهتها لما انتهيت بملابسي الداخلية وأنا أتحرق خجلًا. لكنها أصرت على أن أخلع عني قميصي الداخلي

كذلك ففعلت متأففًا. إذ طفقَت تلك أول مرة أتعرى هكذا أمام أية امرأة من قبل – حتى عند أيام الصبا – ولا حتى حيال أمي أو قدامك أنت يا عزيزتي روز. أما عنها هي فلم تهتز لها شعرة. لا بد أن ألفت مثل ذلك الأمر. أو ربما يسمح لها المجتمع هنا بتقبل مثل ذاك الأمر ببساطة واعتياد.

الطول والوزن بل وحتى درجة الحرارة هنا تقاس بوحدات قياس لم نألفها. فلما انتهت من إعلامي بها قامت بتدوينها فوق أوراق الكراس الذي كانت تحمله. ثم نهضت فجأة وتركتني وحدي بالغرفة.

بعد دقائق عادت بصحبة البروفيسور وليامز. صار هو يطرق بأصابعه فوق صدري. ويكبس بيديه بطني وأمعائي. ثم استمع لأنفاسي بسماعة طبية كالتي استخدمها طبيبي بالإسكندرية. لمَّا انتهى كلم الشقراء موجزًا. ثم أشار إليها بالخروج من الغرفة. وأضحى يرمقني بنظرات قلقة ولكنه التزم الصمت. رجعت الممرضة بصحبة إلياس هذه المرَّة فبدأ البروفيسور يخاطبه.

قال إن المستشفى بحوزته جهاز حديث جدًا. لم يظهر للوجود سوى في شهر أبريل الماضي. يمكن بواسطته أن يرسل بضعة أشعة إلى صدري فيبصر صورة لما كانت عليه أحشائي. لأنه يشك في علة ما برئتيَّ. شرح لي إلياس كل ذلك فوافقت وأنا أضع ملابسي فوقي من جديد. واستعددت لرحلة نحو عالم التقدم.

وبالفعل اصطحبتني الممرضة الحسناء من جديد إلى المصعد هذه المرَّة. كانت تلك فرصة أكبر لأتحقق من نظريتي عن حسنها ونضارتها عن قرب. لاحظت بعد طول تدقيق وجود بعض البثور الدقيقة فوق خدها وخلف أذنها المواجهة لي. كانت هي متعجبة من نظراتي المتفحصة. حتى شعرت في النهاية أنها بدأت تتأفف من تحديقي بها على هذا المنوال فأدرت رأسي بعيدًا. نزلنا سويًّا إلى قبو المستشفى. ثم سرنا في ممرات معتمة عديدة حتى وصلنا إلى الغرفة المنشودة.

في تلك الحجرة انطرحت فوق سرير معدني بارد. وتدلت من السقف أمامي عدة مواسير. وصناديق. وأنبوب زجاجي. وزمرة أشياء كثيرة لا أفهمها. قلت في نفسي:

"لا بد أن هذه هي صورة المستقبل."

لم أشعر بشيء. أعني لم يكن هناك ألمًا ما. مجرد شعور بالغثيان اجتاحني لثوانٍ معدودات ثم رحل عني وراح بعيدًا.

استسلمت قابعًا فوق السرير الضيق حتى حضر البروفيسور وليامز وبصحبته إلياس. خاطبني ولكن موهجًا رأسه نحو إلياس حتى يعلمني معنى كلماته كل بضعة ثوان. قال بأنني مريض بجرثومة السل. وبأن علاجي يكمن في الراحة المطلقة. والغذاء الجيد. والتعرض للهواء النقي.

نصحني البروفيسور بالانتقال لمصحة تقع في شمال ولاية نيويورك.

بحذاء بحيرة بين الجبال الخضراء والمناخ الصحي. يمتلكها ويديرها طبيب يدعى "إدوارد ترودو". قال بأن العلاج بها ليس مجانيًّا ولكنهم سيتفهمون حالي كمهاجر حديث. أضاف بين طفقات من دخان غليونه:

– وربما يقبلونك بها بسعر زهيد. لكنك لا بد وأن تبدأ العلاج فورًا لأن هذا المرض قاتل مع الأسف.

رغم بشاعة قوله هذا إلا أنه لم تهتز له خلجة. ولم يظهر ولو تعاطفًا ولو للحظة. حتى لفظة "مع الأسف" قالها في سياق الكلام للتعبير عن خطورة المرض ليس إلا. أدركت لتوي الفرق بيننا وبينهم. فهم قوم ماديون يهتمون بأمور العلم. بينما نهتم نحن بالمشاعر والأحاسيس. ينصرفون هم نحو العمل والمعرفة أثناء استغراقنا نحن في متابعة دواخلنا وخفقات جوانحنا.

خلال الأيام القليلة التالية تولى إلياس أمر التراسل مع مصحة "ترودو" تلك. ولم يستغرق الأمر سوى بضعة أيام في العثور على عنوانها. وبالفعل عبر مراسلات بيننا وافقوا على قبولي لديهم بمصاريف تعادل ثمن الإقامة بفندق متواضع يقدم ثلاث وجبات في اليوم.

قلت لنفسي بأنها مغامرة لا بد لي من الخوض فيها – على الأقل حتى أقي إلياس خطر العدوى. ثم أنها ستكون فرصة متاحة لأن أكتب ما شرعت في الكتابة فيه في الجامعة عن فلسفة ابن رشد. لعلها تكون مدخلًا مناسبًا أحقق من خلاله حلمي المأمول في النهضة بأبناء جبلتي.

لكي نواكب هذا العالم المنطلق نحو العلم والتقدم. بينما نحن منشغلين بحسابات ما إذا كان خضوعنا للدولة لعثمانية فضلًا من أفضال الله علينا أم لا.

وفي غضون بضعة أشهر كنت أستقل القطار متجهًا شمالًا نحو بحيرة "ساراناك" حيث مصحة الطبيب إدوارد ترودو.

* * *

الإثنين 19 أيلول (سبتمبر) 1904

استقبلوني في المصحة كأفضل ما يكون عليه الاستقبال. لكنني انبهرت بالفعل بجمال الطبيعة الخلاب هناك. فكما تعرفين يا عزيزتي روز أن جبل لبنان قشيب – وكم هي فاتنة الطبيعة هناك. لكنك مع ذلك لن تصدقيني حين أقول لك إن الطبيعة هنا آسرة بأكثر كثيرًا. فالبحيرة الشاسعة ذات المياه الرائقة الزرقة تعكس صورة غابات من أشجار الصنوبر تحف بجبال باسقة الارتفاع وتلال عميقة الاخضرار. المشهد شديد الحسن إلى جانب الهواء النقي الذي تشعرين معه أن أحدًا لم يسبق ويستنشقه من قبلك. بالإضافة إلى إنهم يصِّفون أسرة المرضى فوق شرفة عريضة تطل

على تلك الجنة الموعودة. أمضي الوقت مستلق فوق فراش أثير. يأتوني إليه بطعام شهي وصحي في آن واحد. تقدمه إليَّ حسناوات شقراوات لا مثيل لجمالهن في بلادنا. كما أنهن لا تبتغين بقشيشًا بل وترفضن ذلك في إباء مخجل. لا أبالغ حين أقول بانخفاض معدل السعال رغم أني لم أمكث هنا إلا بضعة أيام.

أما عن جارتي في الفراش التالي لسريري فتعرفت بأنها فتاة كندية من مقاطعة "كيبيك" وتدعى "ميشلين". لحسن الحظ عرفت بأن أهل تلك الناحية يتحدثون بالفرنسية دون الإنجليزية التي يتخذها بقية مواطني كندا. أضحت المسكينة كالخرساء بالمصحة لعدم قدرتها على التخاطب هنا لأسابيع. حتى جئت أنا فتوليت ترجمة فرنسيتها إليهم بإنجليزيتي المتواضعة التي اكتسبتها منذ وصلت. لذا فلقد انطلقنا نتخاطب بطلاقة. فتواصلت ما بيننا أواصر صداقة أظن أنها ستمتد معي لسنوات بعيدة.

عرفت أنها من أسرة ثرية. يقتني أبوها مقاطعة كبيرة. ومزارع قمح وشعير. ومواشي وأبقارًا. كما يمتلك عددًا لا بأس به من العبيد الزنوج يعملون لديه. لكنهم ابتلوا بجرثوم السل الذي ربما جلبه إليهم واحد من هؤلاء الأفارقة حين قدم إليهم. قالت بأن المرض اللعين قضى على عدد من العبيد ثم انتقل إلى عائلتهم فقتل أمها وأخاها الأكبر. حتى عرفوا بأمر مصحة دكتور ترودو هذه فنقلوها إليها على الفور.

انبهرت ميشلين حين علمت أنني كاتب. وطلبت مني أن أقص عليها

فحوى كتابتي. فأثنت عليَّ حين فعلت. بل وأعلمتني بأنها شاعرة. ولكنها إنما تكتب لنفسها فلا تجرؤ على مفاتحة أحد بأمر كتابتها. لأنه ما يزال أمرًا غير مستحب لأن تخوض به امرأة هناك. بل وكنت أول من استمع لما كتبته من أشعار. قرأتها لي من كراس كانت تحتفظ به تحت وسادتها.

تبادلنا الأحاديث كل ساعات صحونا إلى أن يغالبنا النعاس حين يحل الليل الصامت الذي تغيب معه الطبيعة المبهرة أمامنا. وكأنها تنام مثلنا. أدهشتني أفكارها الثائرة والداعية لتحرر المرأة. بل ومشاركتها للرجل في أمور السياسة أيضًا. حدثتها عنك يا روز وكيف تديرين اليوم صحيفة نسوية بالإسكندرية فانبهرت.

سرعان ما تسللت البرودة إلى المكان فتتالت الأغطية فوق أجسادنا دون جدوى. وإلى ذلك صارت برودة الليل إلى نحو لم أعهده قبلًا. لذلك بات سريري أول ما أعلن هزيمته من بأس الصقيع. فانزاح من الشرفة العريضة إلى داخل جدران المصحة.

وعلى أي حال ففي غضون يوم أو اثنين تبعتني ميشلين – وكنت افتقدت نبرات صوتها وحكاياتها عن بلدتها وبيتها. كلما شاركتها بفحوى قصصي عن طرابلس والإسكندرية.

انفردنا بالغرفة لأسابيع فصارت أحاديثنا أكثر حميمية. وكأننا نتكلم في رحاب بيتنا. لكن الأمر لم يطل بنا مع الأسف. فلقد ساء حال ميشلين

بسرعة. وازداد سعالها. وبدا أن مجرد الكلام صار يرهقها. وأضحى عبئًا لا تقوى عليه.

ثم توالت الأسِرَّة المنهزمة تزاحمنا في وحدتنا بالغرفة. حتى صارت كمثل عنبر بمستشفى بأي مدينة. وباتت الطبيعة الخلابة تطل علينا عبر زجاج الشرفة الموصد. وسرعان ما تصايح السعال هنا وهناك.

بعد أيام ذوا نور الحياة من عينيّ ميشلين. بل ولم تعد تقوى حتى على السعال.

ذات صباح التفتُّ نحو هدوئها المريب. فإذا بوجهها الشاحب قد اتخذ لونًا جيريًّا كالحًا توقفت معه أنفاسها. وكاد أن يودي بأنفاسي. طلبت منهم يومها أن يسمحوا لي بمغادرة المصحة.

* * *

السادس

الجمعة 30 أيلول (سبتمبر) 1904

ليتنا نتعلم معنى التعايش.

حالما عدت إلى مدينة نيويورك مستقلًا القطار. استقبلني إلياس بالمحطة. رغم الحزن الذي اكتنفني بعد رحيل مشلين إلا أني لاحظت رجالًا يرتدون معاطف وقبعات سوداء وتتدلى خصلات ملفوفات من شعورهم السمراء إلى جانبي أصداغهم. وهم يطأطئون رؤوسهم ويعدون بسرعة وكأنهم يهربون من أمر ما لا أعلمه. طلتهم الداكنة السواد وانطوائهم على ذواتهم

تناغمت مع حالة الحداد القاتمة التي مرت بها نفسي في ذات التوقيت. سألته عن أمرهم فأجابني إلياس بأنهم من اليهود الأشكنازية اللذين يهرعون الآن إلى بيوتهم قبل غروب الشمس لأسباب دينية لا تسمح لهم بعمل أي شيء بعد غروب شمس الجمعة وحتى غروب شمس السبت. لذلك فحتى السير في الشوارع محرم عليهم – ما عدا صباح السبت للذهاب إلى معابدهم. وحتى ذاك فلا يجوز لهم أن يقوموا به على ظهر حيوان أو بداخل مركبة مثلًا.

فتساءلت عن تقبل الغالبية المسيحية لأمر هؤلاء بسلوكهم الذي يبدو علية المغالاة في الاختلاف بهذا النحو.

أجابني بأن هؤلاء البشر ها هنا تعلموا من جراء نزاعات دموية – بل ومجازر مهولة – أن السبيل الأوحد للبقاء يكمن في التعايش بسلام بين شتى صنوف البشر.

تفكرت في ميشلين بأسى. لقد تبين لي أن البشر قد تباعد ما بينهم دروب الحياة ولكنهم يتشابهون في النهاية في بشريتهم وضعفهم. بل وفي مشاعرهم وطرق التعبير عنها أينما كانوا – فها هي الشابة الكندية والرجل الشامي يلتقيان دون سابق ترتيب بولاية نيويورك بأمريكا بعد أن عصفت بهما نفس الجرثومة اللعينة فيتبادلان الكتابات والأشعار.

وإذا كان الله – يشرق بشمسه على الأشرار والأخيار معًا – المتدينين

وغير المتدينين – فينبغي على الإنسان أن يتشبه به. ولا يضيِّق على غيره لكون اعتقاده مخالفاً لمعتقده. فليس على الإنسان أن يهتم بدين أخيه – أياً كان– لأنه يوجد من حيث هو إنسان فحسب. بعيداً عن صفة الدين التي تقع في دائرة اختير إليها الإنسان في غالب الأمر فانضم إليها – أو اختارها لنفسه في أضيق الحدود. ولكن في كل الأحوال ليس من حق أحد الحجر على حريته. ينبغي أن نتساهل ونتسامح في ما بيننا لا أن نتشدد. ولا يمكن لمثل ذلك التساهل أو هذا التسامح في نظري أن يتواجدا بهذا المعنى إلا في دولة تفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية.

وهي دولة تقترن– بأربعة مبادئ ملازمة لمفهوم التسامح – أولها: أن التسامح لا يوجد أو يتأسس من حيث هو ممارسة معرفية واجتماعية ودينية حرة إلا في الدولة المدنية التي تقوم على احترام الأديان في تنوعها وعدم التدخل فيها. وثانيها: إن السلطة الدينية لا تقدر على التساهل بحكم طبيعتها البشرية التي لا يمكن فصلها عن الأهواء والمصالح. ولأنها تنبني على التعصب. معتقدة اعتقادًا جازمًا أنها على الحق وغيرها على الباطل. الأمر الذي ينتهي إلى التمييز بين المواطنين. والمبدأ الثالث يتعلق بالحرية من حيث هي حق طبيعي للإنسان يتجلّى في أن يعتقد أو لا يعتقد ما يشاء. وأن اعتقاده أو عدم اعتقاده الديني لا علاقة له به من حيث هو مواطن. ويقترن المبدأ الرابع بأثر التسامح في تقدم المعرفة. خصوصاً من حيث هو تقبل الاجتهادات المخالفة. واحترام لكل محاولة للخروج على المتعارف عليه بما يؤسس لقيم الاختلاف والتنوع المعرفي الخلاّق.

أقترح تواجد أربعة أسس للخروج من المأزق الحضاري الذي تعيشه المجتمعات العربية والإسلامية: هي الدين. الوطن. الاتحاد. الارتقاء. الله واحد للمسلمين والمسيحيين وكذلك اليهود. وعلى هذا الاتحاد أن يحقق التقدم والرقي ولا يكتفي بالتغني بالماضي.

صار ذلك نص مقالي التالي بجريدة الجامعة الصادرة من نيويورك.

السبت 8 تشرين أول (أكتوبر) 1904

وقفت أمام المرآة أتأمل وجهي اليوم. لقد فقدت الكثير من وزني. بدا الأمر جليًا إذ انكمش خداي وبرزت عظام وجنتيّ. لكن ما يزال شاربي المفتول يحتفظ بلمعته التي أضفي إليها بريق ذاك الدهان السحري الذي يعيرني إياه إلياس كلما استعددنا للخروج. كما تضخمت استدارة عينيَّ وغطستا في مقلتيّ فتبدتا وكأنهما جاحظتان من فرط فقدان كل ذاك اللحم من حولهما. ازداد كذلك بروز جبهتي وتراجع شعر رأسي قليلًا وكأنما تقدم سنِّي أعوامًا وأعوام. لكن البياض لم يتسلل إلى شعري بعد – على الأقل كما فعل بإلياس – رغم تقارب عمرَينا.

* * *

أحتفل اليوم بمرور عام على صدور مجلة "السيدات والبنات" والتي أوكلت أمر إدارتها إليكِ – شقيقتي الأديبة روز أنطون. وهي مجلة تعنى بالشأن النسائي وتعتني بتعليم المرأة وتحريرها وتوجيهها بما يتلاءم مع دورها العائلي في مجتمعها الصغير كما في وطنها والمجتمع الإنساني بوجه عام. وقد قمتِ يا روز بهذا العمل على أكمل وجه فصارت المجلة علمًا على ساحة النشر المصرية والعربية. ونبراسًا مع ميلاد القرن العشرين يهتدي به النساء عبر الأجيال القادمة.

حسنًا يا عزيزتي روز. فأنا أفتقدك بشدة هنا. لاسيما من بعد أن تسلل الصقيع من حيث لا أدري. فأدرَك عظامي ولحمي وجلدي الذي اكتسى بزرقة مريبة. إلياس الذي ما يزال يحتفظ بطفولة الروح وبراءتها لم يكف عن السخرية مني مهددًا ببرودة قادمة لا تخطر لي على بال – إن كان جو أكتوبر هذا لم يتحمله جسدي الضعيف. لو صح كلامه هذا يا روز فأنا أؤثر العودة سريعًا إلى الإسكندرية. لكن على أي حال أنتظر موعد لقائي بالبروفيسور وليامز المحدد سلفًا في مطلع الشهر كما أرسلت إليك في برقيتي الأخيرة.

السعال أقل كثيرًا. وإلياس (يعلفني) بإصرار وكأنه ينوي أن يذبحني يوم عيد الشكر – الذي يحتفلون به هنا خلال أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) كعادتهم كل عام.

على أي حال لست أعلم إن كنت سوف أصمد هنا إزاء تلك البرودة

المنذرة حتى يجيء موسم الأعياد هنا. رغم أن إلياس يلح عليَّ بالبقاء لمتابعة الاحتفالات التي تكسب مدينة نيويورك ببهاء وبهجة لا مثيل لهما.

الأربعاء 12 تشرين أول (أكتوبر) 1904

صحوت مبكرًا أكثر من العادة اليوم. ومع ذلك أدركت خروج إلياس قبل أن أستيقظ. شربت كوب عصير البرتقال الذي أعده لي إلياس قبلًا وتركه في جوف البراد. سرت في جسدي قشعريرة لبرودته. قررت أن أترك الشقة وأترجل في الشوارع المحيطة. فأبتاع لي قدح قهوة ساخن يعينني على التأمل فيما أنوي الكتابة عنه قادمًا.

حلقت ذقني في عجالة ثم أبرمت شاربي والتحفت بقدر من الملابس الثقيلة ثم سحبت كتاب "أرنست رنان" عن ابن رشد وخرجت.

لم تباغتني برودة الجو التي توقعتها خاصة أن الشمس كانت ساطعة في ذلك الصباح الخريفي. لكنني لاحظت الفرق حين أخطو إلى الجانب من الرصيف الذي تحجب البنايات عنه أشعة الشمس نسبة إلى الجانب الآخر. على أي حال فلقد وصلت إلى المقهى الذي اصطحبني إلياس إليه مرات. وابتعت كوبًا من القهوة السوداء – أي دون إضافة شيء من الحليب أو السكر إليه.

على بعد نحو مئتي مترٍ وجدت حديقة صغيرة. اتخذت لي بها مجلسًا تغمره أشعة الشمس الدافئة وصرت أرشف من قهوتي باستمتاع عجيب وكأنه أول عهدي بالقهوة الأمريكية. وسرعان ما فتحت كتابي وانصرفت أقرأ. تقافز السناجب من حولي لم يعد يحوز انتباهي كما بات عند مجيئي.

لم يعكر من هدوئي واستمتاعي بالقراءة أو بالقهوة مخلوق. انصرف الجميع إلى أعمالهم وحالت برودة الجو دون خروج الأمهات بصغارهن إلى الحديقة كما كن يفعلن خلال الصباحات الصيفية. حتى العربات والباعة اختفوا لسبب أو لآخر. أو ربما كانوا يمرون في هدوء وسكينة لم تفسد عليَّ انسجامي مع رحلة رينان الذي تسلل بي ببراعة نحو عالم ابن رشد وفلاسفة اليونان القدامى. ولا أفلح هاجس ما من أن ينتزعني من الاستغراق في دفء أشعة الشمس التي سكبتها فوقي والاستمتاع بمرارة قهوتي المحببة.

بعد نحو ساعة – وكنت قد انتهيت من قهوتي ومن عدة فصول من كتاب رنان الذي أقرأه اليوم للمرة الثالثة وجدتني أطوي الكتاب وأضعه جانبًا. ومن دون أية مقدمات تسللت إلى ذهني على نحو مباغت صورة ميشلين وهي مستلقية إلى سريرها حيالي بينما تقرأ عليّ قصيدة من شعرها.

"ما الذي اعتراني من أمرك يا ميشلين؟ أتراني قد وقعت في شراكك أيتها الفتاة الطاهرة الكندية. التي انتزعها الموت بغتة من أمامي ذات صباح كهذا؟

"أهي لغتِك الفرنسية بلكنتها العجيبة. أم هي موهبتِك في صياغة الأشعار. أم هي براءتِك الطفولية وولعِك بالحكي. أم هو نقاء سريرتِك وغياب الادعاء والتكلف. أم هو ضعفِك ووهنِك حيال مرضنا الفتاك. والذي لم يتحمله عجز جسدِك الصغير؟"

وجدتني أقول لها فيما يشبه الصلاة:

"أينما تكونين الآن – يا أيتها الروح الوضيئة – فثقي أن ذكراك لن تفارقني الآن وإلى الأبد. آمين."

* * *

الجمعة 18 تشرين الثاني (نوفمبر) 1904

ماذا لو أردت أن أحيي آراء كتبها الأولون وتغاضى عنها أهلنا اليوم لعلهم يستفيقون من غفوتهم السرمدية هذه؟ لو تجاسرت وسطرت أفكاري أنا فلا مناص من أن أجد مقاومة عنيفة كوني شاميّ الأصل وخاصة لسبب ديانتي. في حين أن نقل مفاهيم وعقيدة قامة فكرية معترف بفضلها على الإنسانية جمعاء وفوق ذلك تدين بالإسلام – فلا شك في قدرتها على تحريك المياه الساكنة. وخلخلة الغربال لعلها تنفصل الحبوب المبتغاة عن الحصو المحيط.

لذا قررت أن أكتب عن ابن رشد في الجامعة خلاصة ما قرأته عنه. وما كتبته عنه في كتابي "فلسفة ابن رشد" – عن آرائه وتعاليمه وتبيان مذهبه المبني على مذهب أرسطو. سوف تقوم الدنيا وتقعد هناك في المشرق. أنا مدرك لذلك تمامًا ومستعد له. على أي حال فسوف تصير افتتاحية العدد التالي للجامعة هكذا – وليكن ما يكون:

كل الفلاسفة والعلماء من حين نشأة الفلسفة والعلم إلى اليوم تنحصر آراؤهم عن الخالق والخلق في رأيين: الأول – وجود خالق حر مختار في أعماله. يهب متى شاء ويمنع متى شاء. وله عناية إلهية تدبر العالم. وهو سبب قُوى الطبيعة أي أن هذه القوى موجودة فيه لا فيها. ووجود نفس بشرية جوهرها خالد لا يفنى. والرأي الثاني يقول إن المادة أزلية أي لا بداية لها. وإن نشأة الكون إنما هي من تحول دقائق هذه المادة بقوتها الخاصة تحولاً ترتقي به من حالة إلى حالة أسمى. وذلك يقتضي وجود طبيعة ثابتة ونواميس ووجوب الوجود وعقل تُبنى عليه النواميس. وفناء الإنسان في الكل الذي أُخِذ منه مع الاعتقاد بوجود خالق – ولكن اعتقادًا مبهمًا. هذان هما الحزبان اللذان تنازعا ويتنازعان العلم والدين.

ومما لا يحتاج إلى بيان أن أنصار جميع الأديان موجودون في كل مكان حتى الأديان الوثنية نفسها من الحزب الأول. لأن كل صفحة من صفحات كتبهم تدل على تلك المبادئ. كما أنه لا يحتاج إلى بيان – أيضًا – أن فلسفة أرسطو من الحزب الثاني. لأن كل صفحة في كتبه تدل عليها. وقد تابعه في

ذلك فلاسفة العرب كابن سينا والكندي والفارابي وابن رشد فكانوا من الحزب الثاني. فبعد هذا البيان لا نظن أحدًا يلوم "الجامعة" على وضعها المتكلمين (من المسلمين أو من المسيحيين) في الحزب الأول. ونحن على يقين أن علماء الدين في المذهبين (الإسلامي والمسيحي) لا يرون في ذلك شيئًا يسوؤهم ما داموا يطلبون البقاء على المبادئ الإسلامية والمسيحية التي ربوا فيها. ولكن إذا أريد التوفيق بين هذين المبدأين لجعل مذهب المتكلم واللاهوتي موافقًا لمذهب الفيلسوف. وذلك بواسطة التأويل فإن المسألة تتخذ وجهًا آخر. ذلك أن مريدي التوفيق يضطرون حينئذ إلى إهمال كل ما كان في الكتب المنزلة مخالفًا لمذهبهم والتفتيش بالفتيلة والسراج – كما يقول العامة – على كل ما يوافقه. فحينئذ ينفتح باب واسع هائل. وهذا الباب هو تفسير الكتب والآيات كما يشاء المؤول. ومتى ابتدأ الانسان بالتأويل فإنه لا يعلم إلى أين ينتهي.

وهذا أبلغ سلاح كان في أيدي مناظري ابن رشد. فإن هذا الفيلسوف كان يوجب التأويل للتوفيق بين الدين والفلسفة. وأما هم فإنهم كانوا يقولون: إن تأويلك هذا يخرج الدين عن شرعه ويبدله بدين آخر لا نعرفه. ومما كان يزيد حجتهم قوة ما قرأوه في كتابات الإمام الغزالي من الرد على تلك الفلسفة اليونانية التي كان ابن رشد يدافع عنها ويدعو إليها. فكانوا يكرهون التوفيق بين الشريعة الإسلامية وفلسفة مردودة منقوصة لم تثبت صحتها. ولو قاموا اليوم من قبورهم الأبدية وسمعوا ما يكتبه

الإفرنج من الاستهزاء بفلسفة أرسطو وتلامذته لأغرقوا في الضحك وعادوا إلى راحتهم الأبدية بنفوس مستريحة. لأنها لم تحارب حقًا ثابتًا. ففلسفة المتكلمين كما ذكرناها مبنية على قاعدتين: الأولى. تنزيه الخالق عن كل قيد. والثانية. حفظ الدين من حدوث خرق فيه بواسطة التأويل وتطبيقه على العلم لا سيما وأن ذلك العلم لم يثبت ثبوتًا لا يقبل الجدال. وحسبنا دليلًا على ذلك ما ذكره العارف الواحد الصمداني الشيخ محيي الدين بن عربي في كتاب له إلى الإمام فخر الدين الرازي قال: "إن كل موجود عند سبب ذلك السبب محدث مثله. فإن له وجهين: وجه ينظر به على سببه ووجه ينظر به إلى موجده وهو الله تعالى. فالناس كلهم ناظرون إلى وجوه أسبابهم والحكماء والفلاسفة كلهم وغيرهم. إلا المحققين من أهل الله تعالى كالأنبياء والأولياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام. فإنهم مع معرفتهم بالسبب ناظرون من الوجه الآخر إلى موجِدهم. ومنهم من نظر إلى ربه من وجه سببه لا وجهه. فقال: حدثني قلبي عن ربي. وقال الآخر وهو (الكامل): حدثني ربي إذا ما كان وجوده مستفادًا من غيره فإن حكمه عندنا لا شيء - أي أن الأسباب ليست بشيء تذكر. لأن وجودها مستفاد من الله." انتهى بحرفه نقلاً عن بهاء الدين العاملي.

إن المتكلمين - أي علماء الكلام - في الدين الإسلامي (وهم الذين يدافعون عن الإسلام بموجب شريعته) قد وضعوا فلسفة خاصة بهم. وربما لم يكن من الصواب أن تدعى تعاليمهم فلسفة - لأنها عبارة عن

مباحث دينية محضة. ولكن كل ما جرى فيه كلام عن الخالق عز وجل وعالم الغيب وما وراء الطبيعة – فهو فلسفة. ومن المعلوم أن كلمة فلسفة يونانية الأصل وهي مشتقة من كلمتين: فيلو (ومعناها محبة) وسوفيا (ومعناها الحكمة). فالفلسفة معناها إذن (محبة الحكمة). وهل في عالم الفكر – الذي هو أشرف العوالم شيء – يستحق أن يسمى حكمة غير البحث في أصل الحكمة ومصدرها الأعلى.

ففلسفة المتكلمين هذه مبنية على أمرين: الأول حدوث المادة في الكون أي وجودها بخلق خالق. والثاني وجود خالق مطلق التصرف في الكون ومنفصل عنه ومدبر له. وبما أن الخالق مطلق التصرف في كونه فلا تسأل إذن عن السبب إذا حدث في الكون شيء – لأن الخالق نفسه هو السبب وليس من سبب سواه. إذن فلا يلزم عن ذلك قطعيًّا أن يكون بين حوادث الكون روابط وعلائق وكأن ينتج بعضها عن بعض. لأن هذه الحوادث قد تحدث بأمر الخالق وحده. وفي الإمكان أن يكون العالم بصورة غير الصورة المصوَّر بها الآن وذلك بقدرة هذا الخالق.

أما فلسفة ابن رشد فإنها تناقض الفلسفة التي تقدمت وإليك خلاصة منها: إن أعظم المسائل التي شغلت حكيم قرطبة مسألة أصل الكائنات. وهو يرى في ذلك رأي أرسطو. فيقول: إن كل فعل يفضي إلى خلق شيء إنما هو عبارة عن حركة. والحركة تقتضي شيئًا لتحركه ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق. وهذا الشيء هو في رأيه المادة الأصلية التي صنعت الكائنات

منها. ولكن ما هي هذه المادة؟ هل هي شيء قابل للانفعال ولا حد له ولا اسم ولا وصف؟ بل هي ضرب من الافتراض لا بد منه ولا غنى عنه. وبناء عليه يكون كل جسم أبديًا بسبب مادته. أي أنه لا يتلاشى أبدًا لأن مادته لا تتلاشى أبدًا. وكل أمر يمكن انتقاله من حيّز القوة إلى حيّز العمل لا بد له من هذا الانتقال. وإلا حدث فراغ ووقوف في الكون. وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم. ولولا هذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم. بل لما حدث شيءٌ قط. وبناء عليه فالمحرك الأول الذي هو مصدر القوة والفعل - أي الخالق سبحانه وتعالى يكون غير مختار في فعله.

وبالفعل اضطلع إلياس إلى نشر المقال على صفحات الجامعة الصادرة من نيويورك.

* * *

السابع

الإثنين 9 كانون الثاني (يناير) 1905

استجبت بالفعل لدعوة إلياس فبقيت معه واحتفلنا سويًّا بأعياد الشكر. ثم الميلاد. فرأس السنة الجديدة. فتحقق له ما أراده من إضفاء لجو العائلة على وجوده كمهاجر. غريب. ووحيد. لأول مرة منذ رحل عن سوريا. أما عني فكما توقع هو انبهرت بتلك الاحتفالات التي فاق ألقها وبهاها كل خيال.

لكنني أبتغي أن أصف لكِ غبطتي وسعادتي يا روز يوم أفقت من نومي فإذا بملاءة بيضاء قد هبطت من السماء بينما الناس نيام. فغطت

صفحة بيضاء كل شيء. نعم كان هذا هو أول لقاء لي مع الثلج. بالطبع سمعت به من أهل الجبل بلبنان إنما لم أعاينه من قبل. ما أجمله من نور أبيض ساطع يضوي شوارع المدينة وأرصفتها. لا يفرق بين حي غني يسكنه البشر البيض. أو آخر فقير يقطنه البشر السود. الكل صار جديدًا ناصعًا متساويًّا في البريق والجمال.

فكرت أن أخرج لألامس ذاك الثلج وألهو به كباق الأطفال هنا. إلا أن إلياس منعني لئلا يعاودني المرض والسعال من جديد. فالثلج – كما قال – والشمس الساطعة تنيره بالضياء المبهرة. مخادعة. كشأن الحياة. تفتح ذراعيها وكأنها تتهيأ لأن تحتضنك في حين يدركك صقيعها حين ترتمي فتعانقها. ومن ثم فقد تتحول بغتة إلى تمثال من ثلج.

وعلى أي حال فلقد ألقت زيارتي للبروفيسور وليامز في شهر نوفمبر المنصرم ببعض الطمأنينة إلى نفسي بعد أن فحصني ونوه بتحسن أكسبني إياه استشفائي بمصحة دكتور ترودو.

ساح الثلج ثم جاء غيره مرات ومرات. لكنني في كل الأحوال لم يكن ليخطر ببالي – ولا في أشد أحلامي غرابة – توقع مثل ذاك الصقيع الذي نمر به الآن يا روز.

الثلاثاء 14 آذار (مارس) 1905

توقعت أن تفتح عليَّ أبواب الجحيم على مصراعيها فتسكب حممها من بعد نشري المقال عن ابن رشد وعلاقته الأثيرة بفكر أرسطو الفيلسوف الإغريقي. ومع ذلك فلم يحدث أيٌّ من هذا لدهشتي. لكن ألم يحدث أي شيء حقًا؟ ربما تكون في العبارة الآنفة بعض المبالغة – فلقد أطلق البركان بعض دخان حممه. والقليل من الصخور السمراء المنصهرة. ولكنه لم ينفجر بأي حال.

لقد وصل عدد الجامعة إلى القاهرة فقرأه الشيخ رشيد رضا. ومن ثم فلقد تطوع – لوجه الله بالطبع – بإفراد محتواه إلى أذن الشيخ محمد عبده. نعم. الأستاذ شخصيًّا. فانبرى هو بدوره بكتابة رد على صفحات منار الشيخ رشيد رضا. ولم يكتف (صديقي) بهذا بل وكلف خاطره فأسرع بإرسال نسخة من الجريدة إليَّ هنا. ليُسر قلبي وتبتهج عيناي بمطالعة كلمات الأستاذ:

"قرأت ما نشرت الجامعة من ترجمة ابن رشد. مررتُ على ما نقلتْ من آراء المتكلمين وآرائه بغير تدقيق لأنني أعرف آراء الفريقين من قبلُ ولم يكن لي قصد إلى النقد وإنما أريد أن أستفيد جديدًا.

"لاقاني بعض قراء تلك الترجمة فرأيت الأثر في نفسه أشدّ ولسانه في العتب أحدّ. وذكر أشياء في غير هذا الفصل من الترجمة ولفتني إلى إعادة النظر فيها. رجعت إلى الترجمة فوجدت فيها موضعين آخرين يطلبان مني الكلام عليهما وبأن أحادث الجامعة فيهما. لو كانت منزلة الجامعة من نفسي منزلة غيرها من المجلات التي لا يُعنى كاتبوها إلا بنقل ما يقع تحت أنظارهم. أو تحبير ما يعبر عن أهوائهم وأفكارهم. من دون عناية بتقرير الحقيقة ولا رعاية لمعتقدات القراء – لوجدت من شواغل عملي ما يصرفني عن ذكر ما عرض فيها.

"لهذا رأيت أن أذكر لها ما رأيت في ذينك الموضعين وأبيّن حقيقة الأمر في الثالث. أما الموضعان فهما (فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود) و(فلسفة ابن رشد وآراؤه في خلق العالم واتصال الكون بالخالق وطريق اتصال الإنسان به والخلود) وهما موضوع كلامي اليوم.

"حدوث المادة عند المتكلمين ليس معناه أن تكون بخلق خالق. فإن الخلق في اصطلاحهم هو الإيجاد وكون المادة صادرة عن موجد لم يختلف فيه المتكلم والفيلسوف الإلهي. فأرسطو يقول إن المادة قد استفادت وجودها من موجدها وهو الواجب. وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعّال على ما سيأتي بيانه وإن كان لا أول لوجودها. وإنما حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الأجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة بحيث يفرض لوجودها بداية زمنية تنتهي إليها سلالتها

من جانب الماضي. ولا يجوز أن يوصف بالأزلية إلا الله وحده وصفاته عند القائلين بأنها وجودية. وقبل هذه البداية التي لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون فأوجده من العدم البحت. هذا هو بناء مذهب المتكلمين وهو مذهب أهل النظر من المسيحيين واليهود أيضًا فلم يخالف فيه مليّ من أهل الملل الثلاث.

"أما كون هذا المذهب وحده هو الذي يصح أخذه من القرآن أو أنه يجوز أن يتفق مع معاني القرآن رأي آخر بل هو الذي يظهر منه. فلذلك بحث آخر لسنا بصدده الآن فإن كلامنا في تصوير مذهب المتكلمين.

"الأصل الثاني – وهو وجود خالق مطلق التصرف – لازمٌ للأصل الأول لأن هذا العالم إذا كان موجودًا بعقل موجد فموجده هو خالقه وهو مطلق التصرف – بمعنى انه يختار ما يخلق على الوجه الذي يخلق. والمتكلمون وإن اتفقوا على أن خالق العالم مختار انقسموا إلى فريقين عظيمين: فالقدرية منهم ويسمون بالمعتزلة أيضًا قالوا إن الخالق وضع للكون نظامًا تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين وأودع في المخلوقين قوى أو قُدَرًا تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية أو بطريق الإرادة والاختيار. فهذا فريق من المتكلمين لا يخالف الفلاسفة في قولهم بلزوم الآثار لمصادرها أو تأثير قدر المخلوقين في أفعالهم. وقد بقي من أهل هذا المذهب إلى اليوم طائفة الشيعة الإمامية والزيدية فإنهم لا يخالفون المعتزلة في هذه الأصول.

"والفريق الآخر الذي عنته الجامعة وهو الذي يرى إسناد الآثار

إلى الخالـق مباشرة لم يقطع العلاقة بين الأسبـاب الظاهرة ومسبباتها. بل قـال إن الله يُصدر وجود المسبِّب عنـد وجود السبب. فلا يقال إن الأكل (مثلًا) هو الذي يحدث الشبع. بل الشبع شيء يحدثه الله عند الأكل. ولكنه لا يحدث عند الخوى إلا إذا أراد أن يخرق النظام الذي جرت به سنته لأمر عظيم يريد توجيه النفوس إليه.

"هذا الفريق من المتكلمين يستند في إثبات صفة العلم لله تعالى إلى ما في هذا العالم من النظام وإلى ما حواه ذلك النظام من الأسرار والحكم. وهل يتأتى هذا الاسناد منهم إن لم يقولوا بوجود العلاقة بين الأسباب ومسبباتها؟ كان من هذا الفريق أئمة تناول بحثهم كثيرًا من الفنون كالطب وعلوم المواليد الثلاث الحيوان والنبات والمعدن. منهم الأئمة الرازيون كفخر الدين الرازي وأبي بكر ومحمود الرازي وأمثالهم.

"فإذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه الذي جرت سنة الله بأن يكون معه. وإن شئت قلت سأل عن السبب الذي أصدر الله وجوده عنده.

"فإن شئت أن تقول إنه مذهب مع ذلك غامض يكد الذهن في فهمه فلك أن تقول وأن تنعم النظر حتى تفهم مبانيه وأصوله وأن تناقش بالدليل الدليل. وعلى الله قصد السبيل.

"هذا ما يتعلق برأي الجامعة في مذهب المتكلمين أو فلسفتهم. وننتقل

الآن إلى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيها فيه.

"يعلم كل ناظر في مذاهب فلاسفة اليونان انهم كانوا فريقين – إلهيين وماديين. والأولون فرقان – مشاؤون وإشراقيون. واشتهر أتباع أرسطو باسم المشائين. وأتباع أفلاطون باسم الإشراقيين.

"وأول مميز للإلهيين عن الماديين ان الأولين يقولون بوجود واجب بريء من المادة والماديات وبوجود عقول مجردة عن المادة وغواشيها. وبأن للواجب علمًا بذاته وبجميع ما يصدر عنه وعن آثاره وأن للعقول المجردة عقلًا وعلمًا بذواتها وبمبدئها وبما يصدر عنها. والماديون لا يقولون بشيء من ذلك البتة. فالتقريب بينهما تقريب بين النقيضين. وابن رشد من مقرري مذهب أرسطو فهو من الإلهيين.

"أثبت أرسطو وتبعه ابن رشد وجُل فلاسفة الإسلام أن نفس الإنسان التي هو بها إنسان – وهي التي يلقبونها بالنفس الناطقة – جوهرٌ مجردٌ عن المادة لا هو جسمٌ ولا حالٌ في جسم. وإنما له علاقة بالجسم. يدبره ويصرفه وشبهوا هذه العلاقة بعلاقة الملك بالمدينة. وهو خارجٌ عنها ولهذه النفس آلة في الجسم بها يكون التدبير.

"ثم أن الفيلسوف وأتباع مذهب أرسطو ذكروا آراء بعض الفلاسفة ممن لا يُعتد بقولهم. وفيهم ما يشبه ما نسبته الجامعة لابن رشد. منها أن الجوهر العاقل إذا عقل صورة عقلية صار هو إياها. واستدلوا على

استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه أن تصير النفس جميع المعقولات التي تحصل لها. وتصير المعقولات كلها معقولًا واحدًا. بل يلزم عليه انعدام النفس. ووجود ما عقلته أو استحالة النفس إليه.

"إن النفس الناطقة التي هي موضوع ما للصورة المعقولة غير منطبعة في جسم تقوم به. بل هي جوهر عاقل ذو آلة بالجسم. فإذا استحال الجسم عن أن يكون آلة لها وحافظًا للعلاقة معها بالموت. لم يضر ذلك جوهرها. بل تكون باقية بما هي مستفيدة الوجود من الجواهر العقلية. فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية على استقلالها لا تعدم شخصيتها بالفناء في شيء سواها. لا عقل فعال ولا وجود واجب وهي تسعد بكمالها العلمي والأدبي الذي حصلته مدة تعلقها بالبدن.

"بقي علينا أن نشير إلى ما نقله فلاسفة أوروبا عن الفيلسوف الجليل ابن رشد في مبدأ العالم ومصدر وجوده قالوا: لم يكن يعرف العلم والفلسفة عند الأوروبيين إلا في مدارس المسلمين في إسبانيا. فكان يقصد تلك المدارس طلاب العلم من كل ناحية. كان يجلس في درس الفيلسوف عددٌ عظيم. لم تأتِ نهاية القرن الثاني عشر (الميلادي) إلا وقد انتشر بين المشتغلين بشيء من العلم رأيٌ زعزع طمأنينة الكنيسة وأفزع القابضين على مفاتيح القلوب بذلك الوقت. الواقفين على أبوابها يأذنون لما شاءوا من العقائد والأفكار أن يدخل فيها ويطردون عنها ما شاءوا. ذلك الرأي الذي أخذ يتسرب إلى القلوب رغم حجابها هو أن الكون أجمع يرجع في

وجوده إلى واحد هو حياة الكل. وهو روح يقوم به كل جزء منه. وقالوا: إن الذي نشر هذا المذهب هم تلامذة ابن رشد ففهم بعض علمائهم من ذلك أن ابن رشد كان يقول إن مبدأ العلم هو أصل عرضت له صور العالم. أو روح ظهر في مظاهر الكائنات كما يقول الصوفية – أو نحو ذلك. واستتبع هذا رأيًا آخر وهو أن كل صورة من صور الموجودات إذا بطلت فإنما تعود إلى أصلها وهو الوجود المطلق. وظن الواهم أن الأرواح تعود بعد مفارقة الأجسام إلى مشرقها العام وتفقد امتيازها فيه وذلك كله وإن ذهب إليه بعض النظار من الأوربيين غير ما يقول ابن رشد.

"ولعل الجامعة لا تعتب على الكاتب فيما كتب وفيما أجاب به من طلب. فقد وفّى حقًا لها لو أغفله مع علمها بالقدرة عليه لحقّ لها أن توجه العتب إليه".

الأربعاء 15 آذار (مارس) 1905

أعدت قراءة ما كتبه الأستاذ صباح اليوم – وإنما بتأن. فالكتابة عسيرة على الفهم للوهلة الأولى.

في الحقيقة سررت في النهاية لسببين – أولاً لأنه استخدم أسلوبًا راقيًا في وضع مقاله ينم عن سعة أفقه وثقافته العريضة. كما أنه لم يهاجمني شخصيًّا–

ولو قليلًا. ثانياً لأن ما خطه الأستاذ ينم عن أنه قرأ كتابي "فلسفة ابن رشد" برمته – وليس مجرد مقالي بالجامعة. وهذا عندي جل مناي. أوليس هذا مقصدي الأول وقلب مرادي منذ بدأت حرفة الكتابة؟

سوف أعد ردًا على مقال الأستاذ إذن ثم أنشره أيضًا. يا لها من سعادة تعتريني حين نتحاور فوق صفحات الإصدارات الصحفية. شأننا شأن الغرب اليوم!

لن يصمد رأيٌ بأننا شعوبٌ متخلفة إذن. يلزمها التدخل الغربي والحماية. لقد نضجنا وصرنا أندادًا لهم بدءًا من اليوم. وغدًا نفوقهم علمًا وثقافة. نعم. فنحن جديرون بمثل هذا.

* * *

الثامن

الثلاثاء 9 أيار (مايو) 1905

عكفـت على كتابة ردِّي عـلى الأستاذ طيلة الأشهـر السالفة. لم ألحظ حتـى تعاقب الفصول. وقـدوم الربيع الذي أنهى بـدوره الصقيع الذي سجننا لأشهر وأشهر. وفي نهاية الأمر كتبت:

يؤخذ من رد الأستاذ أنه يخطئ الجامعة في أربع مسائل: الأولى أن المتكلمين لا ينكرون الأسباب. والثانية أن فلسفة ابن رشد غير ما ذكرته الجامعة. والثالثة إن مذهب الفلاسفة في العقول غير ما ذكرته الجامعة.

والرابعة تخطئة الأستاذ الجامعة في أمور جزئية سنشير إليها.

أذكر أن جلست في اليوم الأول أكتب وأكتب. ولم أتوقف لساعات. اشتملتني فرحة طاغية عبرت بي فوق الزمن. لم أحسس مرور الوقت ولا تعاقب الساعات. ولم أستشعر قيام شمس أو خفوق قمر. لم أتوقف من أجل فنجان قهوة أو كوب شاي. لم أدر إلا وإلياس ابن عمِّي يلح عليّ أن أنهض لتناول طعام العشاء معه بعد أن أعلمني أنني عكفت على الكتابة لست وثلاثين ساعة متصلة.

أفندت كل نقاط اختلاف الأستاذ مع مقالي بالجامعة. باستفاضة وقورة تليق بمثل شأنه العظيم في نفسي. وظللت فخورًا بمثل ذاك الحوار الراقي الذي جمع بيننا. والذي شاء القدر أن يجمعني أنا الملتمس لقائه ذات يوم. فصرت بغير ترتيب أقارعه الحجة بمثلها. وبت أبادله الفكرة بأخرى في حوار فلسفي عميق ها هو ذا ينشر فوق صفحات الجرائد كأرقى ما يكون للثقافة والتحضر من شأن.

شعرت بزهو النجاح يعتريني وبنشوة تحقيق نصف ما كنت أسعى إليه. ألم أكن أروم لقاء الأستاذ لأتباحث معه شئون حياتنا الثقافية والفكرية؟ ها نحن نفعل رغم نأي الزمن بي نحو هذا المنفى الاختياري – أو قل الإجباري الذي انتهيت إليه عند نهاية العالم كما وصفه طبيبي اليوناني الطيِّب ذات يوم. ومع ذلك فلقد تمخض ذلك البعد الجغرافي عن حوار كأسمى ما يكون الحوار مع الأستاذ وعلى مرأى من عشرات

الألوف من القراء بالقاهرة وبمصر كلها بل وربما ببلدان أخرى.

هنيئًا لك يا فرح يا بن أنطون!

الخميس 29 حزيران (يونية) 1905

حين وصل إلياس في المساء طالعني بوجه مبتهج. وتراقصت نظراته ابتهاجًا. تواشجًا مع السرور الذي اعتراني اليوم بطوله. طفقت كفه تخبط بجريدة مطوية في إيقاع منتظم جانب فخذه القريبة وهو يتوجه نحو المشجب ليعلق قبعته. ثم تحول بجسده متجهًا نحوي بينما هو يتغنى بموسيقى لم أتبينها. ثم توقف أمامي بحركة مسرحية وهو يلوح بالجريدة القابضة بها أصابعها بقوة وكأنه يبارزني بها.

في الحقيقة لم أفهم كنه كل هذا وخاصة كون مزاجي قد صار مكتئبًا من بعد أن طاف بي روح ميشلين قبل ساعات.

توقف إلياس من بعد أن شهد الحيرة تطل من عينيَّ. ويبدو أن تسللت معها نفطة من المرارة ففضحت كآبتي. لكنه فض بسرعة الجريدة المبرومة وفرد صفحاتها أمامي. وكأنه ساحر يستعد ليقدم لعبته المرتقبة. لاحظت على الفور أن الجريدة عربية. ولمحت اسمها "المهاجر" بينما يقلب هو أوراقها يبحث عن خبر محدد. ثم توقف فجأة. ثم صار يقرأ بنبرة عاطفية

وكأنه يتغنى فقال:

"جلست بقرب من أحبَّتها نفسي أسمع حديثها. أصغيت ولم أنبس ببنت شفة. فشعرت أن في صوتها قوة اهتزّ لها قلبي اهتزازات كهربائية فصلت ذاتي عن ذاتي. فصارت نفسي سابحة في فضاء لا حد له ولا مدى. ترى الكون حلمًا والجسد سجنًا ضيقًا.

"سحر عجيب مازح صوت حبيبتي وفعل بمشاعري ما فعل وأنا لاهٍ عن كلامها بما أغناني عن الكلام.

"هي الموسيقى أيها الناس. سمعتها إذ تنهدَت حبيبتي بُعيد بعض الكلمات وابتسمت في بعضها. سمعتها لما حكت تارة بألفاظ متقطِّعة وآونة بجمل متواصلة وأخرى بكلمات أبقت نصفها بين شفتيها.

"تأثيرات قلب حبيبتي. رأيتها بعين سمعي فشغلتني عن جوهر حديثها بجواهر عواطفها المتجسمة بموسيقى هي لغة النفوس. والألحان نسيمات لطيفة تهز أوتار العواطف. هي أنامل رقيقة تطرق باب المشاعر وتنبه الذاكرة فتنشر هذه ما طوته الليالي من حوادث أثرت فيها بماضٍ عبر."

استوقفته وقد شعرت بالكلمات توقظ مشاعر قلبي وتعيد خوالج النفس التي بت أسعى إلى تناسيها. فسألته:

– مهلًا. مهلًا يا إلياس يا أخي. لمن هاتي الكلمات النورانية؟

أما هو فسارع بأن رد متابعًا قراءته:

– انتظر يا فرح تريث قليلًا وخذ هذه أيضًا:

"الموسيقى كالمصباح. تطرد ظلمة النفس. وتنير القلب. فتظهر أعماقه.."

"الموسيقى تقود أضغان المسافرين وتخفف تأثير التعب وتقصّر مديد الطرقات.."

"وإذا بكى الرضيع اقتربت منه والدته وغنّت بصوتها الموسيقي المملوء رقّة وحنوًّا فيكف عن البكاء ويرتاح لألحان أمه المتجسمة من الشفقة وينام."

"ينتقي الرجل شريكة حياته وتتّحد نفساهما برباط الزواج. متمّمين وصيّة كتبتها الحكمة منذ البدء على قلبيهما. فيجتمع الأقارب والخلّان ويصدحون بالأناشيد والأهازيج ويقيمون الموسيقى شاهدًا عندما يربط القران عرس المحبة.."

"وعندما يأتي الموت. ويمثّل آخر مشهد من رواية الحياة. نسمع الموسيقى المحزنة ونراها تملأ الجو بأشباح الأسى.."

فقاطعته أيضًا مستفسرًا:

– بالله عليك يا إلياس بح لي إذن. لمن تكون هذه الكلمات وأين أتيت إليّ بها؟

فتوقف أخيرًا ثم طوى صفحات الجريدة. وأشار إلى اسمها وهو يصرِّح:

– إنها جريدة المهاجر يا عزيزي. أما صاحب الدراسة المسمَّاة: "الموسيقى" فهو شامي مثلنا – واسمه "جبران خليل جبران" – من بِشَرِّي بشمال لبنان. أما الآن فهو يحيا ببوسطن.

لم أرد بل سرحت في نغم الكلمات التي رجعت أصداؤها إليّ.

أما إلياس فدهمني بقوله:

– ما رأيك في أن تذهب إلى بوسطن قريبًا يا فرح. فالرحلة بالقطار قد لا تتجاوز ست أو سبع ساعات على الأكثر. أتضن بتلك المغامرة من أجل صاحب كلمات مثل هاتي؟ ومن يدري – فربما استطعت إقناعه بالكتابة في جريدة نصدرها هنا في نيويورك. فبالتأكيد سوف تلقى نجاحًا أبعد من تلك التي تصدر بالشمال حيث قلة المهاجرين العرب نسبيًّا هناك.

أمضيت بقية أمسيتي أقرأ كلمات "موسيقى" جبران هذا. وأدونها بمفكرتي. لاسيما نهايتها التي تروح:

"كرّموا يا سكان الأرض كهنتها وكاهناتها وعيّدوا لذكر خدّامها وشيّدوا لهم التماثيل. صلّي أيتها الأمم وسلّمي على أورفيوس وداود والموصلي وعظّمي ذكر بيتهوفن وفاغنر وموزارت. وغني يا سوريا اسم شاكر الحلبي. ويا مصر باسم عبده الحامولي. كبّر أيها الكون الأُلى بثّوا

في سمائك أنفسهم وملأوا الهواء أرواحًا لطيفة وعلّموا الإنسان أن يرى بسمعه ويسمع بقلبه. آمين."

وجدتني أقهقه وأنا أتخيل أن يقرأ تلك الكلمات يومًا الشيخ رشيد رضا. ترى ماذا يكون وقع تلك الصلاة المباركة عليه؟ وكيف يقبل طلبه من الأمم أن تصلي وتسلم على أورفيوس الوثني. وداوود اليهودي. وبيتهوفن المسيحي؟

الثلاثاء 4 تموز (يوليو) 1905

احتفلت أمريكا اليوم بعيد الاستقلال التاسع والعشرين بعد المائة. إذ استقلت الولايات المتحدة عن الاحتلال الإنجليزي في الرابع من يوليو من عام ألف وسبعمائة وستة وسبعين. انقطع العموم عن العمل هنا وامتلأت الشوارع بالناس. ونزلنا إلياس وأنا نطوف الطرقات والشوارع وسطهم. تمتاز نيويورك بمقيمين من كل الملل بل ويتحدثون شتى اللغات. لذا فلم يستوقفنا أحد لاعتبار أننا غرباء نزحمهم في عيدهم الوطني. وعند حلول المساء تجمعت الحشود إلى ضفاف نهر الـ"هدسون" يتابعون انطلاقات المفرقعات والألعاب النارية المبهجة احتفالًا بالعيد.

الجمعة 7 تموز (يوليو) 1905

اتخذت مقعدي بجوار نافذة القطار المتجه إلى بوسطن في ذلك الصباح الحار من شهر تمـوز. نعم يا عزيزتي روز – فأشهر الصيف هنا شديدة الحـرارة. وترتـفع أيضًا درجـة الرطـوبة خلالها فأشعـر وكأنني لم أغادر الإسكندرية.

صرت أراجع كلمات موسيقى جبران المنشورة على صفحة الجريدة بين يديّ – وأنا أعد نفسي للقائه.

"وجد الإنسان فأوحيت إليه الموسيقى من العلاء لغة. ليست كاللغات. تحكـي ما يكنّه القلب للقلب. فهـي حديـث القلوب. وهي كالحب عمّ تأثيرها الناس..."

يا لها من كلمات. أحيَت في جنبات قلبي ذكرى غالية إلى نفسي – أيقظت نسمات الجبل القادمة من الشمال البعيد. لاح إليّ طيف ميشلين. وجهها يبتسم نحوي وهي تشدو بقصائدها الرقيقة.

وعلى وقع رتابة دمدمات عجلات القطار نمت. وبعد نحو ساعة أفقت على طرق معدني للمحصل يطلب مراجعة تذكرة القطار. ثم سرحت بأفكاري في إلياس ابن عمي الذي أسرني بكرمه. فهو من اشترى لي هذه

التذكرة من بعد أن اتصل بطريقة ما ببيت جبران خليل جبران ببوسطن وطلب لقاءنا. ثم أعطاني عنوانه من دون أن أفعل أنا أي شيء أو أعدل بأدنى جهد من جانبي. بل ولعله أنقذ حياتي برمتها كذلك حينما دعاني للقدوم والاستشفاء هاهنا. فمن يدري لعل المرض اللعين كان قد قضى عليّ لو لم أجئ لمراجعة البروفيسور وليامز أو أزر مصحة الطبيب ترودو – والذي لم أعاينه شخصيًّا ولو لمرة واحدة في حياتي – وإن كنت مدينًا له بالنجاة من براثن مرضي المميت. وعلى ذكر الموت فأنا أدين لإلياس كذلك – ولو بطريق غير مباشر – بأنه كان سببًا في اختباري لمشاعر الحب لأول مرة في حياتي حين التقيت ميشلين رحمها الله.

حين وصلت إلى بوسطن كان المساء قد حل. وحين خرجت من المحطة والمطر ينهمر فتحت المظلة بنفس الهدوء الذي تعلمته من أهل هذا البلد الأمريكيين ثم اتجهت بخطوات واثقة نحو الفندق القريب الذي دلَّني إليه حوذي العربة التي استقللتها إليه.

تطلعت إلى الدولارات الخمس التي أعطاني إياها إلياس وأنا ما زلت أحمد مؤازرته الدائمة لي.

السبت 8 تموز (يوليو) 1905

في الصباح تناولت فطورًا خفيفًا في حجرة الطعام بالفندق. ومع آخر رشفة من قهوتي السوداء تطلعت نحو النافذة فإذا بالجو صحو والشمس مشرقة فاستبشرت خيرًا.

استقللت عربة الترام إلى العنوان المنشود. وبعد نحو ساعة كنت أطرق باب منزله.

تلقتني امرأة مائلة للبدانة قصيرة البنية في منتصف العمر لا تخلو من جمال شامي أصيل بابتسامة مرحبة. أخذتني إلى حجرة للاستقبال وسألتني ما إذا كنت أرغب في فنجان قهوة عربية فأومأت مرحبًا – لكن بالطبع بعد أن تمنعت شاكرًا تعبها مقدمًا كما هي عادة شعوبنا. ذكَّرني شعرها المموج والذي تتخلله خصلة بيضاء فوق الجبهة – بأمي. فأثار أشجاني وأشعل أملي في العودة إلى الإسكندرية لألقاكم.

جلست وحيدًا أتأمل الصور المعلقة فوق الحائط وأنتظر. لم تكن صورًا فوتوغرافية – كما هي العادة. إنما كان معظمها مرسومًا بالفحم فوق ورق أبيض يغلب عليها طابع الحزن – لكنها بديعة الشكل وبالغة التأثير.

فجأة جاء شاب عشرينيّ. كثيف الشعر والحاجبين. ذو شارب أسود

غزير. تعلو وجهه ابتسامة واسعة. مد لي يده القوية قائلًا:

"جبران خليل جبران – الحمد لله على سلامتك. ألم يأتك أحد مشروبًا؟ يا لعيب الشؤم!"

وقفت ثم ضحكت وأجبته بسرعة:

– لا بل وعدتني الوالدة – على ما أعتقد – بالقهوة! وأنا فرح أنطون من طرابلس.

أما هو فربت فوق كتفي وقال:

– غنيٌّ عن التعريف يا أستاذ فرح – فأنا قارئ قديم للجامعة ومعجب بآرائكم التقدمية.

طلب مني الجلوس. ثم بحركة مسرحية أخرج الشاب جبران بورقة مطوية من جيب سرواله الأسود. وسرعان ما فضَّها وهو يمثل أمامي بقوامه القوي الممشوق ثم بدأ يقرأ:

"يا أصدقائي ويا رفاق طريقي. ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين."

"ويل لأمة تلبس مما لا تنسج. وتأكل مما لا تزرع. وتشرب مما لا تعصر."

"ويل لأمة تحسب المستبد بطلًا. وترى الفاتح المدلّ رحيمًا."

"ويل لأمة تكره الشهوة في أحلامها. وتعنو لها في يقظتها."

"ويل لأمة لا ترفع صوتها إلا إذا مشت في جنازة. ولا تفخر إلا بالخرائب. وتثور إلا وعنقها بين السيف والنطع."

"ويل لأمة سائسها ثعلب. وفيلسوفها مشعوذ. وفنّها فنّ الترقيع والتقليد."

"ويل لأمة تستقبل حاكمها بالتطبيل وتودعه بالصفير. لتستقبل آخر بالتطبيل والتزمير."

"ويل لأمة حكماؤها خرسٌ من وقر السنين. ورجالها الأشداء لا يزالون في أقمطة السرير."

"ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء. وكل جزء يحسب نفسه فيها أمّة."

نظرت نحوه منبهرًا. ثم شرعت أضحك بهيستيرية – ولكن صوت خرج مني على غير إرادتي:

– وهل تحسبنا مؤهلين لمثل تلك الكلمات النارية؟

ثم ندمت على الفور على تفوهي بمثل هذه الكلمات الانهزامية. إذ ملأ وجه جبران امتعاض عجز هو عن مداراته.

عندها دخلت أمه بصينية القهوة. فحمدت الله على مثل ذاك التوقيت الذي أتاح لي فرصة لمراجعة أفكاري وإعداد كلماتي. ومن ناحيته هو فلقد

تبدل استياؤه من تعليقي بفرحة مرحبة حينما ولجت أمه إلى الحجرة.

أخذت أرشف من قهوتي – بينما جالستنا السيدة "كاميلا" والدته بعد ما عرفتني باسمها في حضور نجلها. صارت تسألني عن طرابلس وعن عائلتي. وتبين لي أنها كانت تعرف بيت عمي وزوجته. وتذكرَت إلياس حينما كان طفلًا. أثار حديثها الدافئ نوعًا من الألفة قطعت شراك التذمر التي كانت نشبت أوصالها في أرجاء الغرفة. بل دفعتها الذكريات إلى الإتيان بطبق من الحلوى الشامية المتراصة فوق مفرش أبيض مطرز. ينسدل بأريحية من فوق أطراف الصينية. أعادني على الفور إلى بيتنا بطرابلس. سرعان ما تقاسمنا الحلوى مع مرارة القهوة اللذيذة.

انصرفت أمه ثانية بصينية القهوة وما تبقى من الحلوى – تاركة إيانا لنتباحث سويًّا. تكلمت أولاً:

– أرجو ألا تكون كلماتي إليك كمثل سهم انطلق بتسرع فأخطأ الهدف يا عزيزي جبران. كلماتك ضوء براق لمع في سماء وجداني – لا شك في هذا. وهي إلى ذلك تحقيقًا قويًّا لكل ما أصبو إليه. لكن لعل جرأتك العجيبة وقوة بيانك هما ما جعلني أنفعل فأتفوه بما يمكن أن جرح مشاعرك. لكن يا أخي العزيز – أعتذر إليك. وأعلن لك أن كلماتك هذه تشَرِّف أي كتاب يحويها. وعلى ذكر هذا – فهل نشرت هذه الكلمات بعد؟

أما جبران فاستعاد ابتسامته وارتخت ملامحه القوية. ثم أجاب في هدوء:

– لا بل هذه بعض أفكار أرجو أن أطبعها في كتاب. أو سلسلة من الكتب تحوي أفكار نبي جديد قد يأتي إلى هذا العالم المضطرب. ألا ترى معي أن زمن مجيء هذا النبي قد حان يا أستاذ فرح؟

سرعان ما قام الشاب دون أن يتلقى جوابًا عن سؤاله الفلسفي. ثم عدل من قميصه الأبيض حديث الكواء. وطلب أن نخرج لنتمشى حذاء نهر "تشارلز" الذي يخترق المدينة. استجبت بالطبع إلى دعوته. وإن كانت قوة شخصيته لم تدع لي مجالًا للاعتراض. عوضًا عن كوني غريبًا عن المدينة بل وعن الولاية والبلد برمته بصفة عامة.

أنستني عجرفة أهل بوسطن وتعاليهم كل ما عانيته من أصحاب مدينة نيويورك والتي لاقوني بها حين وصلت من الإسكندرية. لابد أن للعنجهية والتكبر مسارًا يمتد عبر علم الأنثروبولوجيا فيتضخم كلما اتجهت الشعوب شمالًا.

أما عن نهر السيد "تشارلز" هذا – فكان جميلًا حقًا وإن شابت مياهه صبغة بنية تميل للقتامة. لكن تناثرت خلاله قوارب يجدف أصحابها عبره. وأحاطت به أشجار باسقة. أما سوره الحجري الذي يفصل ما بين ضفته والطريق فامتد في تنسيق بديع. وحوطت المشهد الجذاب أشعة شمس براقة أشاعت من حولها برقًا أخاذًا – وبرقت خاصة فوق سطح السور الحجري وبلاطات الشارع التي غسلتهما أمطار الأمس.

أخبرني جبران أنه هاجر مع أمه إلى بوسطن وهو في الثانية عشر من العمر – إلى حيث يسكن خاله – والتحق بالمدرسة هنا. وإنما بعد أن مرت ثلاث سنوات خشيت أمه أن يذوب في الثقافة الغربية التي أولع بها. فأصرت على أن يرتحل ثانية إلى بيروت ليلتحق بمدرسة الحكمة هناك. وبالفعل أنهى دراسته الثانوية بها ثم عاد مجددًا إلى بوسطن قبل نحو ثلاث سنوات.

وعلمت أيضًا بأنه اتجه أول ما مسه شيطان الفنون إلى الرسم. فالتحق بمدرسة للفنون ببوسطن وتتلمذ على يد "فريد هولاند داي" وحظيت رسومه بإعجاب واسع حتى تصدرت واجهات كتب عدة. ولكنه اتجه مع ذلك لكتابة الشعر إلى جانب الرسم.

عرفت فورًا صاحب اللوحات التي كنت أتابعها في صالون بيتهم – بينما أنتظر مجيء القهوة.

سألته إن كان يمانع في النشر في الجامعة فأبدى ترحيبًا مريحًا. بل وأخرج الورقة المطوية من جيبه وأعطاني إياها. ولكنه رجاني ألا أنشرها الآن لأنها جزء من عمل لم يكتمل بعد.

ثم باغتني بسؤاله عما لو كنت مرتبطًا – أي متزوجًا. في الحقيقة تلعثمت قليلًا أولاً لقلة خبرتي الاجتماعية – وبالذات النسائية. فجللت أولًا وأنا أتساءل بيني وبين نفسي: لماذا يسأل الناس عن دومًا عن ما ينجزه المرء من علاقات من حوله خارجة عن وجوده وعن ذاته؟ لماذا لا يكتفون بمعرفة

تحقيقاته الشخصية من عقل ومعرفة؟ لماذا يطالبون بإلحاح أن ينجز الواحد علاقة ما أو يروحون فيطالبون بإلحاح بنتاج لتلك العلاقة فيسألونك عن الأبناء كذلك؟ ألا يمكن الاستغناء عن كل ذلك بحصيلة ثقافة وأفكار المرء منَّا؟ أم لا يعد ذلك في نظرهم إنجازًا؟ ثم وجدتني أبوح إليه بحكاية ميشلين وبعاطفتي نحوها – ولو على سبيل التفاخر. ما إن صرحت له باسمها حتى توقف عن المسير واستدار ليواجهني. ثم سألني وقد استرعت قسماته نظرة خبيثة:

– ماذا قلت لي عن اسمها؟

– ميشلين!

ولم ينبس بكلمة بعدها. بل تركني أحدثه عن ميشلين ورِقَّة مشاعرها. بل وبادرت بإلقاء بعض من أشعارها التي استرجعتها بالفرنسية.

ولم يعلق هو. بل وسرعان ما عرج بنا جبران نحو مبنى عال مواجه للنهر. صعدنا إلى الطابق الثالث دون أن يعلن لي سببًا لذلك أو تفسيرًا. أما أنا فاستجبت خجِلاً من أن أخوض في أمر خاص لم يشأ هو أن يعلنه لي.

طرق باب شقة مواجهة للدرج. وانتظرنا قليلاً. ثم فتحت له امرأة آية في البهاء. وبدا لي أنها كانت تنتظر قدومه. لأنها أطلت وهي في كامل حلتها. ثم سارعت وعانقته ثم طبعت قبلة فوق خده قبل أن تلحظ تواجدي إلى جواره. ابتسمَت المرأة نحوي متسائلة. فإذا بجبران يقدمني

إليها بالفرنسية – ثم التفت نحوي واستمر يقدمها بالفرنسية كذلك قائلاً:

– أقدم إليك ميشلين. حبيبتي. مدرسة اللغة الفرنسية التي عبرت المحيط الواسع لتختطف قلبي.

بالطبع أصابني الذهول!

"ميشلين" جديدة. وقصة حب. وطلّة بهيّة. ولغة فرنسية! يا لهذا العالم الدائري! كلها دوائر. صغرت كانت أم كبرت. تماست أو تباعدت أو حتى تقاطعت. لكنها ما تزال دوائر تدور بنا. وندور عبرها. فنلتقي أحيانًا. فنتهلل فرحًا حينئذ ولكننا سرعان ما نبتعد ثانية. فيعترينا ألم الفراق. لكننا ندور معها ثانية. كل في دائرته السابق أن أعدتها له الأقدار.

أما هو فاحتفظ بابتسامته الماكرة. ولم يصرِّح بشيء لها عن ميشلين الخاصة بي. ثم أخذنا جبران إلى مطعم يقدم جراد البحر (التي يسمونها إستاكوزا بالإسكندرية) التي يشتهر بها الساحل الشمال شرقي للبلاد ها هنا. كان لحمها طريًّا لذيذًا وكانت طازجة حتى أنها كانت حية في وعاء زجاجي ضخم حينما ابتعناها. اختارها هو مشيرًا للبائع الذي التقتها ببراعة ثم ألقاها في حلة كبيرة لتطبخ بالبخار خلال دقائق أمامنا. واحتسينا أكوابًا من الجعة المثلجة. ثم دار حوار فرنسي عن الحياة في أوروبا مقارنة بها هنا. بعده تحدثت أنا عن حياتنا بالمشرق. وعبَّرت عن وجسي من استعمار

فرنسي انجليزي وشيك. ثم أضفت بالطبع معبرًا عن أملي في أن نذيب الفوارق العقائدية بين شعوبنا – تلك التي تفرق ما بيننا فتجعلنا لقمة سائغة للغرب. وأخبرتهما بهدفي في أن تنصهر كل تلك الفوارق الاجتماعية والدينية والعنصرية بين أبناء المشرق. فنتحد وإلا ابتلعنا الغرب المترقب أفول نجم العثمانيين الغارب. لدهشتي وجدت استجابة بل ترحيبًا من قِبل ميشلين رغم كونها فرنسية الجنسية.

حدثتهما عن حواري الفلسفي الدائر مع الشيخ محمد عبده فوق صفحات جرائدنا العربية.

لكن جبران أجابني معلنًا أن نظرته للعالم تعبر أفق وطننا العربي وتتخطاه. نادى بأن المخرج الوحيد للإنسانية عمومًا هو في التوافق وتذويب الفواصل والحدود ما بين الشعوب وبعضها. قال إن الكل يبحر في سفينة نوح. وقد عم الفيضان الأرض. فإن غرقت المركب غرقت معها البشرية برمتها.

اندهشت من رؤيته العميقة – بل والعالمية. وهو بعد شاب في الثالثة والعشرين فتوقعت له مستقبلًا مبهرًا.

شددت فوق يده بقوة وأنا أشكره على اللقاء وعلى موافقته على الكتابة في الجامعة.

وودعت ميشلين شاكرًا إياها على سعة أفقها. ثم انصرفت عائدًا إلى نيويورك. وما تزال كلمات جبران ترن في أذنيَّ:

"يا أصدقائي ويا رفاق طريقي. ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين."

* * *

التاسع

الأربعاء 12 تموز (يوليو) 1905

عكفت على ترجمة الفيلسوف رنان الذي اضطهده المسيحيون وهو يكتب عن ابن رشد الذي اضطهده المسلمون. فخطر لي أمر كتابة مقال بعنوان "الاضطهاد في النصرانية والإسلام" وفيها أعرض لمقابلة بين الدين المسيحي والدين الإسلامي من حيث اضطهاد العلماء وتكفيرهم وإهانتهم وقتلهم دفاعًا عن تقاليد الدين. وهذه المقابلة تقتضي سؤالًا وهو: أيُّ كان أكثر تسامحًا وأقل تعصبًا فيما يختص بالعلم والعلماء: الدين المسيحي أم الدين الإسلامي.

فمنهم من يرى أن الدين المسيحي كان أكثر تسامحًا لأن بعض علماء النصرانية وكتابها قالوا فيها أقوالًا في منتهى التطرف والغلو والتحامل ومع ذلك لم يضرهم شيء. أما ابن رشد الذي أهين كل تلك الإهانة فإنه لم ينكر شيئًا من أصول الدين ولكنه نظر بعقله في الكائنات وشرح فلسفة لسواه فقامت قيامتهم عليه. فكيف به لو قال في المذهب الإسلامي عُشر معشار ما قاله فولتير وديدرو وروسو ورنان في المذهب المسيحي.

فيرد عليهم آخرون بقولهم بل أن الدين الإسلامي كان أكثر تسامحًا من الدين المسيحي. فإنكم هل رأيتم في تاريخ الدين الإسلامي علماء يُحرقون وهم في قيد الحياة لأنهم أنكروا ما أنكروه كما جرى في ديوان التفتيش في إسبانيا. كلا. وذلك لعدة أسباب. منها احترامنا العلم وانطباع حبه في نفوسنا نأخذه مع مبادئنا الدينية. وثانيًا إن كل من يدخل في مذهبنا يكون أخًا لنا. ونحن نحترم هذا الإخاء فيه أشد احترام ولذلك فإننا إذا أسأنا إليه لإنكاره بعض عقائدنا فإننا نجعل للإساءة حدًا لا تتعداه. فنكفره وننفيه ونمنع كتبه. ولكنا لا نسفك دماءه لأننا نحترم إخاءَه.

أما نحن فلا نفصل بين هذين القولين ولكننا ننظر إلى هذه المسألة من وجه آخر. وذلك إننا نرى أن السلطة المدنية في الإسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معًا. وبناء على ذلك فإن التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية. فإن الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلًا بديعًا مهد للعالم

سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي وذلك بكلمة واحدة وهي: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وبناءً على ذلك فإن السلطة المدنية في هذه الطريقة إذا تركت للسلطة الدينية مجالًا للضغط على حرية الأفراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلًا عن قتلهم وريّ الأرض بدمائهم البريئة فإنها تجني جناية هائلة على الإنسانية. وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك إذا بدا منها نقص ولو كان هذا النقص أخف من نقص شقيقتها. لأنه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام.

وهنالك اعتبار آخر. وهو أن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي ولذلك نما غرسهما في تربة أوروبا وأينع وأثمر التمدن الحديث. ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الإسلامي وفي ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحًا مع الفلسفة.

هذه المقابلة بين الدين المسيحي والدين الإسلامي من حيث اضطهاد العلماء وتكفيرهم وإهانتهم وقتلهم دفاعًا عن "تقاليد الدين" فهي لا تعني بذلك أن المسلمين والمسيحيين اضطهدوا علماءهم دفاعًا عن الدين لأنها تعلم أن المبادئ الدينية المنزهة عن كل شائبة في النصرانية والإسلام براءةٌ من وصمة الاضطهاد الذي وقع على العلماء. وإنما تبعة ذلك واقعة على التقاليد الدينية لا على الدين نفسه.

الثلاثاء 12 أيلول (سبتمبر) 1905

وصلتني اليوم نسخة جديدة من مجلة المنار أرسلها إليّ (صديقي العزيز) (الشيخ) رشيد رضا بالبريد.

كتب لي في خطاب منفصل أن الأستاذ قد توفاه الله في شهر تموز (يوليو) الفائت بعد أن كتب تلك الدراسة المستفيضة ردًا على كتاباتي.

أسقط في يدي. مات الأستاذ؟ حقًا رحل من قبل أن يكتمل حوارنا؟

رحمة الله عليه وسلامه. وغفرانه فليشمله. فيسكنه فسيح جناته.

كم كنت أتمنى أن ألقاه وجهًا لوجه. وإنما لا بأس فلقد التقينا مرارًا على صفحات الورق ولسوف نعاود اللقاء مرة أخرى يوم أرد على أفكاره التي نشرها هنا.

قرأت المجلة مرة. ثم اثنتين. خمس وثلاثون صفحة! ثم قررت أن أدون بعض مقاله هنا. حتى أستوعب كل كلمة به. لعلني أقدر أن أجيبها بحق قدرها.

رد الأستاذ الثاني (رحمه الله) قال إنه يجاوب عن مقال الجامعة: "الاضطهاد في النصرانية والإسلام" بجوابين: جواب إجمالي وجواب تفصيلي.

"أما الجواب الإجمالي فقد قال فيه قولين. الأول: "إن كان الإنجيل قد فصل بين السلطتين (الدينية والمدنية) بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد عن كل رأي بكلمتين كبيرتين. قال في سورة البقرة: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم" وقال في سورة الكهف: "وقل الحق من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر".

"وأما الثاني: فاسأل الجامعة في جوابه أين الاضطهاد الواقع عن المسلمين – يمكن الجامعة أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأميركان وهي مدارس دينية خصوصًا مدارس الجزويت. فهل يمكنني أن أجد طالبًا واحدًا مسيحيًا في مدرسة دينية إسلامية؟ فهل سُمع أن والدًا اضطُهد لأنه بعث بولده إلى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون؟

"لولا أن موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة إلى العلم والفلسفة وحدهما لذكَّرتُ لصاحب الجامعة أن يوجد في بلاده طائفتان تعد آحادهما بالألوف وتزعم كل منهما أن لها نسبة إلى الإسلام وهي تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة. وأجمع فقهاء الأمة على انهما من قبيل المرتدين والزنادقة لا تؤكل ذبائح أفرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم ومن

العلماء من قال لا تقبل توبته. وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والإسلام في أوج القوة."

ثم انتقل الأستاذ إلى الجواب التفصيلي فقسمه إلى ثلاثة أقسام (الأول) نفي القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد. و(الثاني) تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة. و(الثالث) إظهار طبيعة الدين المسيحي وأصوله لإثبات أنها مناقضة للعلم والعقل والمدنية.

في نفيّ القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد قال الأستاذ:

"لم يُسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين والأشاعرة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائدهم - نعم سُمع بحروب تُعرف بحروب الخوارج كما وقع من القرامطة وغيرهم وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة - وقد وقعت حروب في الأزمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة وهي ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية والوهابيين ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر أن يعرف أنها كانت حروبًا سياسية - أما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس وأضعفت الأمة وفرَّقت الكلمة فهي حروب منشأها طمع الحكام وفساد أهوائهم - وأكبر داء دخل على المسلمين في هممهم وعقولهم إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم. أقول (الجهلة) وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين

لم يهذبهم الإسلام ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم".

"ما لنا وللحكام نعرض لهم. على أن هـذا الأمـر الذي جاءت به الجامعة وألجأتنا إلى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسـيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء الجامعة بقيـة هذه السنة. هل أذكـرهـا بما كان يقع في القسـطنطينية من سفك الدمـاء بين الأرثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين؟ هل أذكرهـا بحادثة برتلمي سنتهريل التي سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانت وأخذوهم في بيوتهم على غرة وقتلوهم نساءً ورجالًا وأطفالًا؟ بماذا أذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التي اسودَّ لها لباس الإنسانية".

وفي تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة قال الأستاذ:

"قال المستر درابر أحد المؤرخين وكبـار الفلاسـفة من الأميركان إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام. بل فوضوا إليهم كثيرًا من الأعمال الجسام. ورقوهم إلى المناصب في الدولة حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه".

"وقال الخليفة العباسي المأمون: إن العرب زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة

ما أتوا على حدود مملكة الرومانيين. ولست في حاجة إلى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس وأقاموا من المراصد وما حشدوا من الكتب إلى المكاتب لأن هذا خارج عن بحثنا الآن".

"أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس ابن بختيشوع طبيب المنصور. كان فيلسوفًا كبيرًا علت منزلته عند المنصور لأنه كانت له زوجة لا تُشتهى فأشفق عليه المنصور وأنفذ إليه بثلاث جوارٍ حسان فردهن وقال: إن ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت حية. فأعلى مكانته حتى على وزرائه. ولما مرض أمَر المنصور بحملِه إلى دار العامة وخرج إليه ماشيًا يسأل عن حاله فاستأذنه الحكيم في رجوعه إلى بلده ليدفن مع آبائه فعرض عليه الإسلام ليدخل الجنة فقال: رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار. فضحك المنصور وأمر بتجهزه ووصله بعشرة آلاف دينار.

"وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل بن توما النصراني المنجِّم وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان. وله كتب في التاريخ جليلة ونقل كتاب أميروس إلى السيريانية بأفصح عبارة.

"وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون أقامه كذلك أمينًا على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة.

"وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيبًا عند المعتصم ولما مات جزع عليه

جزعًا شديدًا وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى.

"وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متفننًا في جميع العلوم العقلية أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت إليه الرئاسة في بغداد وكان من أهل ديـر قني ونشـأ في مدرسة مار ماري وقرأ على روفاييل وبنيانين الراهبين اليعقوبيين.

"ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الإسلام. ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام. هل تريد أن أتمم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الإسلام المسلمين الذين نالوا أسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك؟ هل أنا في حاجة إلى ذكر فيلسـوف الإسـلام أبي يوسف يعقوب الكنـدي وهو بصري الأصل. ابن الأمير إسحق الذي كان أميرًا للمهدي والرشيد على الكوفة وهو من ذرية الأشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عالمًا بالطب والفلسفة والهَيأة والحساب والموسيقى واشتغل بالترجمة كما اشتغل غيره بها فترجم كثيرًا من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده أحمد. هل أنا في حاجة إلى ذكر بني موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الأرضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الأمراء والخلفاء؟ أأذكر ابن سينا ومنزلته في قومه ووصوله

إلى مسند الوزارة عند شمس الدولة؟ أم أذكر الفارابي وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان".

"أظن أنه يسهل عليّ أن ألتمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قيل إنها حدثت للدين ما حدثت له. بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء. أو جهالة عمياء أو تأريث بعض السفهاء".

أما عن إظهـار طبيعة الدين المسيحي وأصولـه لإثبات أنها مناقضة للعلم والعقل والمدنية. فقال الأستاذ:

"أول أصل قام عليه الدين المسيحي وأقوى عماد له هو خوارق العادات (العجائب أو المعجزات) تقرأ الإنجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلًا على صدقه (كذا) إلا ما كان يصنع من الخوارق (العجائب) وعددها في الإنجيل يطول شرحه (كذا) - ثم أنه جعل ذلك دليلًا على صحة الدين لمن يأتي بعده - وإذا تتبعت ما قاله الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات - وزاد الإنجيل على هذا أن الإيمان ولو كان مثل حبة خردل كافٍ في خرق نواميس الكون كما قال في الاصحاح السابع عشر من متى: "فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم".

"وبعد هذا الأصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي مُنحت للرؤساء على المرؤوسين في عقائدهم. وقد أحكم هذه السُلطة ما ورد في 16–19 من إنجيل متى: أعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولًا في السموات. فليس المعتقد حرًا في اعتقاده ينصرف في معارفه كما يرشده عقله بل عينا قلبه مشدودتان بشفتيّ رئيسه."

"وبعد هذين الأصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة – والحث على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل البشري."

وقد استشهد الأستاذ على ذلك بآيات من الإنجيل منها: "لا تقدرون أن تخدموا ربين الله والمال" و "لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون. لأن الغد يهتم بما لنفسه" و "لا تقتنوا ذهبًا وفضة ولا نحاسًا ولا مزودًا ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصًا" وقوله عن الرهبانية: "يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات. من استطاع أن يقبل فليقبل".

"وبعد هذه الأصول أصل رابع وهو عند عامة المسيحيين أصل الأصول لا يختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا بروتستانت وهو أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها وأن من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به. قال القديس انسليم: يجب أن تعتقد أولًا بما يُعرض على قلبك بدون نظر ثم اجتهد بعد

ذلك في فهم ما اعتقدت. فكأن معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلي به نفسه على إيمانه بغير المفهوم".

"ثم ينضم إلى الأصول الأربعة خامس وهو إن الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوي على ما يحتاج البشر إلى علمه في المعاش والمعاد – قال تيرتوليون: إن الله علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون فالكتاب المقدس يحوي من العرفان على المقدار الذي قدِّر للبشر أن ينالوه – وقال بعض فضلائهم: إنه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس".

"ينظِّم تلك الأصول كلها أصل سادس وهو الذي ورد في الإصحاح العاشر من إنجيل متى: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها." وروح الشدة التي جاءت في قوله: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا" إلخ. هي التي بقي أثرها في نفوس الأولين من المعتقدين بالدين المسيحي وعفت على آثار ما كان يصح أن تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأخر".

"من هنا أعرض المسيحيون الأولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه إظهارًا للغنى بالإيمان والعبادة عن كل شيء من أمور الإيمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة كما أفهمه المسيح بعمله على حسب ما ورد في

الإنجيل. فقد قيل له: "أمك واخوتك واقفون خارجًا طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقائل من هي أمي ومن هم أخوتي. ثم مدّ يده نحو تلاميذه وقال ها أمي واخوتي." ونحو ذلك ما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيءٍ من معتقده – وتقرر عند القوم أن الجهالة أم القوى – ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة – ولما ظهرت ذات الذنَب التي تُنسب إلى هالي في سنة 1682 اضطربت لظهورها أوروبا ولجأوا إلى البابا واستجاروا به فأجارهم وطردها من الجو فولت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد إلا بعد خمس وسبعين سنة".

"أنشئت المراقبة على المطبوعات وحتم على كل مؤلِّف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عُين للمراقبة وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئًا لم يُعرض على المراقب أو ينشر شيئًا لم يأذن المراقب بنشره. وأُنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصًا في جنوب فرنسا وإيطاليا. وقد أُنشأت هذه المحكمة الغريبة بطلب من الراهب توركمادا. وقامت بأعمالها حق القيام. ففي مدة ثماني عشرة سنة من سنة 1481 إلى سنة 1499 حكمت على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصًا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا. وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشُهروا وشُنقوا. وعلى سبعة وتسعين ألفًا وثلاثة وعشرين شخصًا بعقوبات مختلفة فنُفّذت. ثم أُحرقت كل توراة بالعبرية."

"ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة (المقدسة)؟ وسيلة واحدة هي أن يُحبس المتهم وتُجرى عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نُسب إليه عند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ."

"اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة إلى كسبه ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها – في المدن. في البيوت. في السراديب. في الأنفاق. في المخازن. في المطابخ. في المغارات. في الغابات. وفي الحقول. فوفت بما كُلفت به مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين عملاً بالقول الجليل: "ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا."

"لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوروبا على رغم القسوس وكان ابن رشد أستاذًا يتعلم عنده الكثير من اليهود صُبَّ غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معًا. فصدر الأمر في مارس سنة 1492 بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان على أي حال كان يجب أن يترك بلاد إسبانيا قبل شهر يوليو وفي فبراير سنة 1502 نُشر الأمر بطرد المغاربة (المسلمين) من إشبيلية وما حولها."

"إن الإصلاح البروتستانتي لم يكن أكثر تساهلًا من الكنيسة الرومانية فإن كلفين أمر بإحراق سيزفيت في جنيف. وأحرق فايتي في تولوز سنة 1629. وكان لوثير أشد الناس إنكارًا على من ينظر في فلسفة أرسطو وكان

يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ونحو ذلك من الألقاب التي لا بأس بها إذا صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه؟؟ وكان كلفين أقل شتمًا للفيلسوف من لوثير لكنه لم يكن أحسن ظنًا به ولا أوسع صدرًا لم يطلع على شيء من كتبه (كذا) وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف (المعلم الأول) فتأمل الفرق بين الفريقين."

"الدين دين الله وهو دين واحد في الأولين والآخرين لا تختلف إلا صوره ومظاهره وأما روحه وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير - إيمان بالله وحده وإخلاص له في العبادة ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا. وهذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية. ونعتقد أن دين الإسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول ومن أهم وظائفه إزالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم إلى الاتفاق والإخاء والمودة والائتلاف وهذا ما عمل عليه المسلمون قرنًا بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالإسلام."

"فإذا سأل سائل. إذا كان ذلك الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الأوربيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده في معاداته فما هذا الانقلاب الذي حصل في أوروبا وما هذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها؟ فجوابه في الكلام على الأمر الرابع مما ذكرت الجامعة وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الإسلامي."

"لم أر كالإسلام دينًا حفظ أصله وخلط في أهله. لا هم فهموه فأقاموه ولا هم رحموه فتركوه. سواسية من الناس اتصلوا به ووصلوا نسبهم بسببه. وقالوا نحن أهله وعشيرته وحُماته وعصبته. وهم ليسوا منه في شيء إلا كما يكون الجهل من العلم والطيش من الحلم وأَفن الرأي من صحة الحكم. ظن (خليفة) أن الجيش العربي قد يكون عونًا لخليفة علوي لأن العلوين كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم. فأراد أن يتخذ له جيشًا أجنبيًّا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها بإحسانه. هنالك استعجم الإسلام وانقلب عجميًّا. استولى ذلك الجيش على الحكومة وارتدى الترك والديلم (الفرس) ثياب العلم وأدخلوا في الدين ما ليس منه خدمة لملوكهم. هذه السياسة سياسة الظلمة وأهل الأثرة هي التي روّجت ما أُدخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملًا كان يخترق به أطباق السموات. فجلُّ ما تراه الآن مما تسميه إسلامًا هو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج وقليل من الأقوال التي حُرِّفت عن معانيها."

* * *

بعد أن انتهيت من القراءة والتدوين عرتني عاطفتان. الأولى عاطفة الدهشة والثانية عاطفة الأسف. تفكرت بأنني نشدت مقارعة كتابية على صفحات الجرائد وها هي ثمرة جهدي واجتهادي.

هل أفرح وأحتفل فقط يوم تزخر المساجلة بمشاعر قوية تدعم التقدم وتهفو إلى التنوير وتذيب القيود المعيقة للتحضر. ثم أأسف حينما يكتب الأستاذ اعتراضه على أصول الديانة المسيحية وتهكمه على كتبها؟ ولكنني عزمت ألا أكتب ردي الآن ريثما أهدأ قليلًا.

* * *

العاشر

الأربعاء 20 أيلول (سبتمبر) 1905

لا يبقى شيء على حاله أبدًا.

مثلما تبدل الربيع بالشتاء. والصيف بالربيع. تحولت فجأة أوراق الأشجار إلى ألوان برتقالية. وصفراء. بل وحمراء كذلك. في طرفة عين. انتزع مناخ بارد لذيذ لهيب الحرارة والرطوبة من مدينة نيويورك. فانطلقت مجددًا إلى شوارعها أتسكع بين حوانيتها ومقاهيها. أحتسي القهوة هنا. أو أقرأ كتابًا هناك. فوق مقعد خشبي عتيق ملقى بإهمال تحت سنديانة عملاقة مطلة على حديقة منسقة. أو بين جدران مكتبة عامة.

لكن حنيني إليكِ يا روز وإلى أمي. وإلى شقتي بالإسكندرية. ومناكفتي لميخائيل ابنك. أو لكرم زوجك. بدأ يداهمني.

أود كتابة ردٍ عما كتبه الأستاذ (رحمه الله وأسكنه واسع جناته) في صحيفة المنار. لكنني أتمنع لئلا أكتب ما يعكر من صفو ذلك الحوار المتناهي. أعرف مقدمًا ما أود خـطُّه لكنني بعد غاضب من كتابه الأخير. وأخشى أن يفسد حنقي هذا من صفاء حديثنا. لذلك عزمت أن أرجئ الكتابة إلى حين.

الثلاثاء 26 أيلول (سبتمبر) 1905

تشاغلت عن ذلك الأمر الملّح بأمر حسبته أكثر أهمية بالنسبة لطول بقائي هنا في أميركا. فكما تعرفين يا عزيزتي روز فإن حصيلتي من اللغة الإنجليزية واهية على أحسن تقدير. رغم غزارة معرفتي وطلاقتي في اللغة الفرنسية التي تعلمناها منذ الطفولة في طرابلس.

لذلك ابتعت لنفسي نسخة من قاموس "لاروس" إنجليزي – فرنسي ثم عكفت على ترجمة كل كلمة تنشرها صحيفة "نيويورك تايمز" الصادرة هنا. ربما أدى بي ذلك الأمر لأن أتناسى ولو قليلًا مبلغ الإساءة التي اجتنبتني من رد فضيلة الأستاذ على مقالنا بالجامعة من ناحية. وإلمامي باللغة الإنجليزية التي أعيش وسط أهلها فأتفهم أفكارهم وأعرف أحوالهم من الناحية الأخرى.

الاثنين 16 تشرين أول (أكتوبر) 1905

حان الآن ميعاد الكتابة. لقد هدأت نفسي كثيرًا وغلبني سكون وبهاء الخريف هنا. فشرعت أكتب ردي على الأستاذ رغم رحيله عنا – فالموت لا يمكن أن ينهي حوارًا بدأ وخاصة إن بدأه من هو بقامة الشيخ محمد عبده وهو من هو. لكن الأمر لا يعدو أن يكون مقابلة الحجة بالحجة نصابًا للحق لئلا يشك أحد من قراء المنار أو الجامعة على السواء بأن قول الأستاذ صار القول الأخير الذي لا إجابة لدينا بشأنه. فكتبت:

نحن نعلم أن الأستاذ لا يقصد الطعن لأنه أرفع من ذلك ولا إبطال أصول الأديان لأنه يعلم أن العقلاء لا يعترضون عليها ولا يبحثون فيها كما قال ابن رشد لأنها كلها لا غرض منها عند الذين "يُحسنون تأويلها" إلا الحث على الفضائل. فما هو غرضه إذًا؟ هل غرضه أن يثبت أن الإكليروس المسيحي قد أخطأ فيما مضى من الزمن في فهم الكتب المسيحية وتأويلها ولذلك صبغ تاريخه بالدم وحشاه بالصغائر؟ إذا كان هو غرض الأستاذ فنحن معه لأن هذا الأمر حقيقة لا شك فيها وقد قالت الجامعة في هذا الأمر أشد من ذلك بكثير. وحسبها أنها عرَّبت كتاب تاريخ المسيح والرسل للفيلسوف رنان الذي ترتعد من ذكره فرائض المتغطرسين والمتعصبين من رجال الدين. ولكن لو كان هذا غرض الأستاذ لكان ذكره ولو في عبارة واحدة في كلامه. ولو ذكره الأستاذ في عبارة واحدة على الأقل لنفى عن

فضيلته تهمة التحامل على عواطف فريق كبير من أخوانه المسيحيين الذين كانوا علّقوا به آمالاً كثيرة وعهدوا أنه أجرأ وأشجع من هذا. ولكن استحق عند الأجيال الآتية شيئًا من الشرف الذي ناله ابن رشد بتصريحه في كتابه "تهافت التهافت": "إن كل الأديان حق لأنها تحث على الفضائل ولكن يجب تأويل أصولها ومبادئها أحسن تأويل" – ولذلك أسفنا نحن مريدو الأستاذ وعارفو فضله ونزاهته من صدور ذلك عنه.

وليس السبب في هذا الأسف وتلك الدهشة مما نشره الأستاذ من القول الجارح للعواطف المسيحية. كلا فإن هذا عندنا وجوده وعدمه سيان. لأننا والحمد لله لسنا من الذين يتاجرون بالأديان لنقول إن الجامعة غرضها الدفاع عن الدين. بل هي أرفع من ذلك بكثير. وقد أثبتنا في ما تقدم أن المبادئ الدينية المنزهة عن كل شائبة في الإسلام والنصرانية أقوى من أن تحتاج إلى دفاع. فليس يهم عقلاء المسيحيين أن يقال في دينهم كل ما يقال كما أن عقلاء المسلمين الحقيقيين لا يهمهم كل ما يقال في دينهم أيضًا لأن الفريقين يعلمان أن هذه الأقوال كلها ليست سوى هباءٍ منثور ذاهب في الهواء. وإنما الذي يهمنا نحن مسلمين ومسيحيين وأوجَب أسف الجامعة ودهشتها هو رؤيتنا أن العدو الألد للدين الإسلامي والدين المسيحي يستطيع أن يأخذ أقوى أسلحته من رد الأستاذ ويهدم به كل الأديان على السواء.

ذلك إن العدو الحقيقي للإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والكونفوشية والوثنية في هذا الزمان لم يعد منها بل صار خارجًا عنها. فهو عدو جديد أخرجه التمدن الجديد. وهذا العدو اللدود تطربه أصوات تنازع الأديان

بعضها مع بعض ويثلج صدره سرورًا كلما رآها تكفِّر بعضها بعضًا ويطعن بعضها على بعض. وهذا العدو الذي يتهددها كلها على السواء. والذي يود لو استطاع أن يهدمها كلها. والذي إذا استطاع هدَّم احداها هدم معها الباقيات بلا مراءٍ: هو "المبادئ المادية" المبنية على البحث "بالعقل" دون سواه.

فالمسيحية والإسلامية تتصالحان تصالح الشقيقتين أمام هذا العدو الذي يتهددهما معًا وإلا جرفهما معًا. ولذلك لا يستجيز عقلاؤهما في هذا الزمان الكلام في أصولهما ومبادئهما لئلا يُعطي كلامهم لذلك العدو سلاحًا يحاربهما به. ذلك لأنهم يعتقدون أن العقل متى هدم المسيحية هدم الإسلام أيضًا. ولا يبقى حينئذٍ بعدهما إلا ما يبقى من الطيب في القارورة بعد ذهابه منها. أي رائحة كل دين بحسب درجته من السمو والكمال في المجتمع الإنساني.

وربَّ قائل يقول إن الأديان لا تُهدم لأن أصولها مطبوعة في قلب الإنسان لا في الكتب. فلا خوف على الأديان في الأرض ما دام الإنسان إنسانًا. ولذلك لا يجب وضع حد للعقل وصده عن البحث فيها.

فنجيب على ذلك أننا بسطنا رأينا في ذلك عند كلامنا عن "العقل والقلب". وليس كلامنا الآن فيه لأننا في مقدمة الذين يطالبون بحقوق "العقل" ولكنا نضيف إليها حقوق "القلب" أيضًا. وإنما كلامنا هنا في أن لكل دين أصولاً وشرائع. وهذه الأصول والشرائع منها "ما يعم ومنها ما يخص" كما قال ابن رشد وأن هذا الذي يعم والذي يخص لا غرض منهما إلا الحث على

الفضائل. فالفضائل إذًا هي أساس الشرائع. وإذا كان في الشرائع أقوال متعارضة متناقضة أو متشابهة (وهي موجودة في كل كتاب) فالواجب على الحكيم العاقل "أن يتأولها أفضل تأويل" كما قال ابن رشد أي يجعل النتيجة الخارجة منها فضيلة لا رذيلة. وبناءً على ذلك تُنزَّه الكتب الدينية عن كل كلمة تضر أو تسوء. وإذا كان بعض أهلها في الزمن الماضي قد أساءُوا فهمها وتأويلها لجهلهم أو لأغراض سياسية أو لضعف الطبيعة البشرية فلا يجب أن يُقال إنها باطلة كاذبة تعطل قوى الإنسان. وإنما يجب إلقاء التبعة في ذلك على الذين لم يفهموها للغرض الذي وُضعت له (كما صنعت الجامعة في نسبتها اضطهاد ابن رشد إلى الحسد لا إلى الدين) – وبذلك تصير الأديان كلها طرقًا للفضيلة والصلاح والوئام لا للفساد والجهل والبغض: هذا هو الغرض من الأديان. وهذا هو سبيل الحكماء والعقلاء معها كما قال ابن رشد رحمه الله. فكل باحث يؤول القواعد الدينية والآيات تأويلاً يقصد بها جهتها الضعيفة المضرة لا جهتها الفاضلة النافعة ويلقي تبعة ذلك الضرر على نفس الدين لا على البشر الذين أساءوا استعماله يخطئ إلى جميع الأديان على السواء. لأن جميع الأديان لا تسلم من حوادث كتلك الحوادث وتأويل كذلك التأويل. ومتى عمت هذه الحالة الأديان كلها فماذا يبقى منها. وهل تسلم المسيحية وحدها أو الإسلام وحده من هذا الطوفان الهائل. كلا ثم كلا. إن الإسلامية والمسيحية شقيقتان مرتبطتان بعضهما ببعض. فكأنهما توأمان متصلان – "دوديكا" و"راديكا". بل أن التوأمين قد يُفصلان كما فصلهما الدكتور "دوّين" الفرنسوي في هذا العام فتموت دوديكا وتبقى

راديكا. وأما الإسلامية والنصرانية فالعدو الذي يقتل احداهما يقتل الأخرى معها لأن دعائمهما مشتركة من عدة وجوه. وقد ذكرنا ذلك العدو الهائل الذي صار له السلطان والقوة في هذا الزمان.

وإذا طلب منا القارئ مثالًا على ما تقدم فنحن نورد له مثالًا واحدًا ونكتفي به لأننا لا نريد الإطالة في موضوع كهذا الموضوع. مثال ذلك ما أورده الأستاذ وأوله أسوأ تأويل. فإن المسيح كان في ذات يوم في بعض النواحي يعظ ويعلم وفكره منصرف إلى أمر واحد وهو تأييد مبادئ الخير التي يدعو الناس إليها والتأمل في العثرات العظيمة التي في سبيلها ونفسه مستغرقة في حماسة الحقيقة والوعظ والألم من تلك العثرات. وإذ جاءه قوم يقولون له: "أمك واخوتك واقفون خارجًا يطلبونك" فأجابهم بحماسةٍ: "من هي أمي ومن هم اخوتي (ثم أشار إلى تلاميذه والذين كانوا يسمعون وعظه وقال) ها أمي وإخوتي" – وقد ورد مثل ذلك تقريبًا في القرآن. فإنه يظهر أن بعضًا من رفاق سيد العرب الجليل ومجدد حياة تمدن الشرق "صاحب الشريعة الإسلامية" كانوا أحيانًا يتقاعدون عن محاربة الوثنيين لنصرة الدين والحق تشاغلاً بأولادهم ونسائهم وأموالهم فجاء في القرآن لهذا الغرض "إنما أولادكم وأموالكم فتنة" – نقول فكيف يجب هنا تفسير آية الإنجيل وآية القرآن المتشابهتين. هل يجب أن يفسرهما العقلاء محترمو الأديان والمعتقدات بأنهما تدوسان أشرف عاطفة للإنسان والهيئة الاجتماعية نعني العاطفة العائلية والبنوية التي يُبنى عليها الاجتماع في هذا الزمان. ولماذا هذا التفسير وما الفائدة منه. نحن نعلم أنه لا فائدة منه إلا "للزنادقة

الذين يرومون إبطال الشرائع والفضائل" كما قال ابن رشد.

وقد وعدنا في ما تقدم بأن نكتفي بمثال واحد. ولكنا الآن لا نرى بدًا من ذكر مثالٍ آخر وهو رواية الأستاذ قول الإنجيل: "ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا" ونضيف إليه قول القرآن: "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا إن الله مع المتقين" – فكيف يجب تفسير هاتين الآيتين. لا ريب إن ظاهرهما يدل على أن الإنجيل يجيز التفريق بين البشر من أجل الاعتقاد والقرآن يوجب مقاتلة غير المشاركين في الاعتقاد إلى أن يصيروا مشاركين فيه ولو صارت الأرض كلها ساحة حرب ونزال. ولكن هل وُضعت هاتان الآيتان لذلك على وجه الإطلاق أم هما مقيدتان بالزمان والمكان والأحوال الماضية. لا ريب إنهما مقيدتان بالزمان والمكان والأحوال الماضية بدليل ورود عدة آيات بعدهما تنسخهما. فلماذا إذًا نؤولهما تأويلاً ضيقًا ولا نؤولهما تأويلاً واسعًا.

ذلك ما تصان به رامة الأديان في هذا الزمان. ويُتقى بواسطته شر ذلك العدو الهائل. وتحفظ به الفضيلة في كل الشعوب. وتبنى عليه قواعد الإخاء والوئام بين عناصر الشرق المختلفة. فعسى أن يكون لهذا الكلام الصدى الذي نريده له بين أفاضل الشرقيين ونبهائهم أياً كان مذهبهم وإن كنا لا نرجو كثيرًا أن يكون مثل ذلك الصدى عند فريق من رجال الدين في الملّتين الذين لا سلطة لهم ولا موجب لوجودهم إلا بدوام النفار والخلاف.

وما عدا هذا وذاك فهناك اعتبار آخر: وهو أن الدين لمَّا نشأ كان منفردًا بالإنسانية. أي أنه كان المدبر الوحيد لشئونها الروحية والزمنية. وكان

يومئذ يهزأ بكل علم دونه لأن كل علم كان قاصرًا ضعيفًا لا شيء له من عظمة العلم العملية التي لعلم في الصناعة والتجارة والزراعة في هذا الزمان. وإنما كان العلم يومئذ عبارة عن أقوال جدلية ومقالات يحيكها التصور والذهن. فكان الدين يومئذ معذورًا في احتقاره وازدرائه العلم إذ قيمة الشيء متوقفة على نتائجه. وقد كانت نتائج الدين حماسة نفوس تفتح الأرض من الشرق إلى الغرب وتقى وزهدًا وصلاحًا تهدم الفساد وتنشر الخير. ومن حق صاحب هذه النتائج العظمى أن يزدري ذلك العلم الضئيل الذي كان يصرف كل وقته في المجادلات والمشاحنات. ولكن ما شبَّ العالم وشاب. لمَّا تقدمت الهيئات الاجتماعية ورأت أن تكوّن الوحدة في الأمة بالدين لا يكفي الأمة بل يجب مع الوحدة الترتيب والتنظيم. وأن الترتيب والتنظيم لا يتمان بالتقوى والصلاح فقط بل يجب أن يكون هنالك فضيلة عملية تُبنى على علوم وفنون شتى – تغير يومئذ وجه المسألة. يومئذ ظهر احتياج الدين إلى العلم أشد احتياج لتنظيم وترتيب ما تعب الدين بجمعه. زمن ذلك الحين عرف العلم قدره وأخذ ينازع الدين سلطته عندما رآه لا يستغنى عنه. وقد استمر هذا النزاع في كل أمة وكل ملة وقتًا طويلًا. وكانت الغلبة أولاً في جانب الدين لأنه كان معضودًا من الأرض والسماء. ولكن بعض أعاظم البشر الذين ترسلهم العناية الإلهية إلى الأرض لإنفاذ مقاصدها السامية بوجوب السنن السامية الموضوعة للعالم وضعوا في جانب العلم ثمار عقولهم الموهوبة لهم من السماء فأمالوا كفة الميزان نحو العقل والعلم إمالة هائلة.

ونريد بذلك اكتشاف نواميس الكون وابتداع مخترعاته البديعة التي تخفف شقاء الناس وتزيد رفاه البشر. فلما أصبحت نتائج العلم العملية ظاهرة إلى هذا الحد لم يعد في وسع الدين إنكارها. فنادى يومئذٍ بأنها تنطبق على مبادئه بعد أن صرف عمره في مقاومتها. وأخذ منذ ذلك الحين يقرأ كتبه بإمعان ليستخرج منها آيات يشدها ويمطها ليطبقها على مبادئه.

فكان فوز العلم من هذا الوجه عظيمًا. ولكن ما معنى هذا الفوز. معناه بالكلام الصريح أن الدين في كل أمة وكل ملة صار يشكل بنفسه. وصار رؤساؤه يتخذونه آلات لكبح جماح الشعب وقضاء أغراضهم السياسية أو الخصوصية. ولذلك خمدت واأسفاه تلك الحماسة الدينية اللطيفة التي كانت كنورٍ أضاء العالم في صدريّ المسيحية والإسلام. ولذلك أيضًا ضعفت آداب الشعوب وانحطت أخلاقها بارتخاء تلك الفضيلة السامية. فالتساهل من هذا الوجه إنما هو عبارة عن شك "بحرف" الدين. والشك بالحرف شكٌ وإن سلم المعنى.

الأحد 17 كانون أول (ديسمبر) 1905

رغم إعدادي المقال للنشر إلا أن ظروفنا المادية لم تكن على ما يرام. لذلك قررنا إرجاء صدور عدد الجامعة إلى الربيع. فعلى كل الأحوال انشغلت المطابع هنا بمناسبة أعياد الكريسماس.

وبالمناسبة – تلقيت رسالة من جبران خليل جبران قبل أسبوعين تفيد بمجيئه إلى نيويورك بصحبة ميشلين لقضاء الكريسماس هنا في نيويورك. سألت إلياس فرحب بشدة وأصر على تلقيهما بشقته.

لكن بعد أسبوع واحد تلقيت رسالة ثانية منه تفيد بتغيير خطتهما. فلقد قررا الذهاب إلى باريس. بل وقرر جبران الالتحاق بمدرسة هناك لدراسة الرسم والتصوير.

في الحقيقة اهتممت إثر تلك الرسالة. إذ كنت أتطلع للقائهما الذي أضفى إليَّ الكثير من الغبطة يوم قابلتهما ببوسطن.

على أية حال فلقد خطوت مشوارًا بعيدًا في تعلم اللغة الإنجليزية حتى أنّي بت قادرًا على قراءة صحيفة نيويورك تايمز يوميًا.

راعني خبر تزويد الأسطول البريطاني ببارجة تدعى "دريدنوط" مما سيعني سعيّ الألمان لمواكبتهم. فكما تعرفين يا عزيزتي موقف ألمانيا في العام الماضي من وهب إنكلترا لفرنسا "المغرب" ضد إرادة المغاربة الذين طالبوا بالاستقلال منذ عامين.

الثلاثاء 2 تشرين ثان (يناير) 1906

سهرنا أول أمس مع بعض الأصدقاء في "تايمز سكوير" نستقبل العام الجديد. ابتاع إلياس زجاجة ويسكي معتق احتسيناها عن آخرها ونحن واقفين نتسكع في زحمة الميدان. كان البرد قارسًا – ولكننا ارتدينا ثيابًا

ثقيلة. كما سرى الكحول في أوصالنا فاستدفأنا بسببه ولم نتجمد. ومع ذلك فلقد عاودتني نوبات السعال طيلة أمس. تذكرت معها ليلة رأس السنة الأخيرة التي أمضيتها في بيتك بالإسكندرية – يا روز. ولست أذكر لو كنت حكيت لك أنني ذهبت بعدها إلى شاطئ البحر أتمشى وأتفكر في مجيء القرن الجديد الذي حل علينا فجره. وفي الصباح التالي بدأت نوبات السعال وصار المرض اللعين يجتاحني.

الناس هنا يتنبؤون حسب تقويم زراعي يدعونه "آلماناك" بأن شتاء هذا العام سوف يصير قارصًا.

أخشى ما أخشاه أن يتسبب هذا الأمر في أن يعاودني المرض البغيض.

الجمعة 9 شباط (فبراير) 1905

كما تنبأ المتنبئون لم يتوقف هطول الثلوج لأربعة أيام. ثلج عريض يتباطأ في الانهمار. وآخر دقيق متسرِّع. وثالث بين بين لا يجرؤ على اتخاذ موقف من حياته.

ومعه لم أفارق سريري. أو بالحري الأريكة التي أتخذها سريرًا لي في المساء. وتتحول إلى جزء من غرفة المعيشة في الصباح. لم أفارقها لأربعة أيام – إلا للذهاب إلى الحمام وبصعوبة شديدة. سكاكين تنشر عظامي طيلة أناء النهار والليل. العرق البرد يتسلل من مسامي ليلًا فيبلل ملاءتي حتى أكاد أن أعتصرها في الصباح لأعاود الاستلقاء عليها بقية اليوم.

أما السعال فحدِّث ولا حرج. تكاد رئتيَّ أن تتصاعدان فأبسقهما مع كل كحة. حتى امتزج بصاقي بعروق دم أوجلتني. ولما عاينها إلياس اتصل فورًا بالبروفيسور ويليامز. وهو بدوره أبدى قلقه وطلب لقائي غدًا بالمستشفى.

السبت 10 شباط (فبراير) 1905

حضر البروفيسور ويليامز إلى المستشفى خصيصًا في يوم السبت – وهو يوم إجازته – حتى يراني. عظمت له موقفه مني. ومع ذلك كان المستشفى خاليًا اليوم من الحسناوات المساعدات له. حتى أن البروفيسور صحبني بنفسه إلى البدروم من بعد أن فحص صدري ليأخذ صورة لأحشائي بالأشعة العجيبة التي تتسلل إلى دواخلي فتنبئه بما يجري بداخلي.

حينما انتهى أبلغني بوجه صارم بأن مرض السل قد عاودني بشدة هذه المرة وبأن رئتاي الاثنتين قد أصيبتا بالمرض. ثم أمر بإدخالي إلى المستشفى في غرفة منعزلة عن بقية أسرة المرضى. وأشرف على علاجي شخصيًّا.

وها أنا ذا مستلق الآن على سرير أبيض. ذي ملايات بيضاء. وحيطان بيضاء. وعبر النافذة أرى المدينة قد غطت الثلوج مبانيها وشرفاتها بملاءة ثلجية بيضاء.

لكن نوبات السعال تعاودني فتذكرني بأنني مازلت أسكن هذه الأرض ولم ترتفع روحي إلى ملكوت السموات الأبيض بعد.

* * *

وعلى أية حال فأنا أكتب هذه الكلمات الآن لعلها تكون آخر ما أكتب.

* * *

أوصيت إلياس بإصدار عدد الجامعة الذي كنت انتهيت منه بالفعل في الخريف الماضي. أما هو فقام بالعمل على ما يرام. أعلمني بذلك حين رجعت إلى بيته في آخر الأمر.

* * *

الحادي عشر

الأربعاء 4 تموز (يوليو) 1905

ما زلت حيًّا. بفضل جهود البروفيسور ويليامز المضنية.

لقد استأصل زميله الجراح – الذي لا أتذكر اسمه الآن – جزءًا من رئتي اليمنى المتقيحة. ثم استغرق الجرح شهرًا كاملًا حتى اندمل.

وفي الربيع ذهبت من جديد إلى مصحة ترودو في الشمال للتعافي.

في المصحة لم أجد ميشلين هذه المرة. ولم أتطلع أنا لسوء وضعي للقاء ميشلين أخرى.

أمضيت وقتي في عزلتي أقرأ وأتأمل الطبيعة من حولي في صمت. لم أتلق أية رسائل أو مكاتبات بطول إقامتي هناك. انقطعت عن العالم الخارجي كلية. وبسبب العزلة التي فرضتها على نفسي لم أسعى للتحاور مع أي شخص. حتى الممرضات لم أحادثهن. لم أنبس بحرف طيلة الأشهر الثلاث التي أمضيتها هناك. وبعد انقضائها كاملة بدأت في التحسن بشكل ملموس.

قال لي الطبيب المشرف على علاجي صباح يوم أن الشفاء قد اكتمل وأمر بخروجي ومن ثم العودة إلى مدينة نيويورك. فتحت فمي لأشكره ولكنني اكتشفت أنني من طيلة الصمت نسيت الكلام.

اجتاحني صمت مريب. إلى درجة أن أرسلوا معي عامل ليتحدث بدلًا مني في محطة القطار حتى يبتاع لي تذكرة العودة.

ساعات طوال أمضيتها في القطار. أركز في كلمات تخطر إليَّ فأحاول أن أنطقها بلا جدوى. لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة. بل ولم تصدر مني ولو زفرة أو أي من الأصوات التي نطلقها أحيانًا كتعبير عن الدهشة أو الألم أو حتى الفرحة. لم أعد أقدر على الضحك ولا البكاء. بل ولم أعد أتثاءب بصوت مسموع.

وصلت إلى نيويورك بالأمس وإذا بالجموع تحتفل بعيد الاستقلال اليوم. أما إلياس فمنزعج من حالة الصمت المريب التي اجتاحتني فلم

يدعوني – كعادته – إلى الخروج للاحتفال. كما أنه لم يقدر على التوصل إلى معاودتي الطبيب لسبب الإجازة. شرح لي باستفاضة الخطوات التي قام بها من أجل إصدار عدد الجامعة في الربيع كما طلبت منه قبل استشفائي. كل ما أجبته به كان إيماءة عاجزة وشبه ابتسامة. رغم تقديري لما فعل وخاصة بعد أن أدركت أنه لا بد قد وصله عدد الجامعة ذاك قبل وفاته ببضعة شهور قليلة – وتأكدي الآن أن الأستاذ لا بد أن قرأ ردِّي على مقاله الناري إذ نشر ردًا عليه من بعدها. ومع كل ذلك لم أستطع أن أعَبِّر عن عظيم امتناني.

مكثنا اليوم بطوله جالسين وجهًا لوجه في شقته نتبادل النظرات الواجمة بين الحين والحين.

الأحد 15 أيلول (سبتمبر) 1906

فشل البروفيسور ويليامز وزميله البروفيسور "جون إنجلاند" أخصائي الحنجرة في إيجاد تفسير لعدم قدرتي على إخراج الأصوات. كنت ألوم الرئة المستأصلة لكن البروفيسور ويليامز ذكرني بأنني كنت أتحدث بطلاقة بعد العملية وحتى سافرت إلى الشمال للاستشفاء بمصحة دكتور ترودو. وأنبأني الخبير زميله بسلامة حنجرتي وأحبالي الصوتية. زعم الاثنان أنني

مع الوقت سوف أستعيد قدرتي على الكلام. نظر إلياس نحوي ولكنه لمح سحابة شك تعتريني فلم يشاركهما التفاؤل.

مكثت هذا الصباح أطالع الكتب والصحف المتراكمة فوق المنضدة التي تتوسط حجرة المعيشة. والتي طلب مني إلياس عشرات المرات أن أجمعها وألقي بها بعيدًا حتى يعود للمكان هدوءه ورونقه.

أما هو فخرج للقاء صديقة له. وأمضى اليوم كله بصحبتها. رغم كل الاهتمام الذي يوليني إياه إلا أنني أشعر أحيانًا أنه جيِّدٌ أن نقضي بعض الأوقات منفصلَين.

كنت أحس بأنه قد بدأ يضيق بوجودي. وأنا لا ألومه. فمرضي العنيد أدخلني المصحة مرتين. ثم حالة الصمت المرضية تلك لا بد أنها تزعجه كذلك. وبخاصة أن الأطباء عجزوا عن أن يجدوا لها تفسيرًا علميًّا.

وقعت بين يديّ جريدة المهاجر القديمة التقطُّتها من بين عدد من الجرائد المكومة. لم أدر إلا وفتحتها إلى الصفحة الثالثة من دون سبب واضح وبدأت أقرأ:

"سحر عجيب مازح صوت حبيبتي وفعل بمشاعري ما فعل وأنا لاهٍ عن كلامها بما أغناني عن الكلام."

انها "موسيقى" جبران تشخص لي مرضي الذي عجزت أنا وفشل الجميع في الإتيان بعلاج له. هكذا وبكل بساطه شخَّصه لي جبران. زيارتي

إلى المصحة أعاد إليّ ذكرى ميشلين. أو على الأقل أعاد كلماتها إلى عقلي الباطني من دون أن أعلم. فصرت أسترجع كلماتها لي وتماهت أشعارها إلى مساعي. أغناني صوتها عن الكلام. سوف أبدأ العلاج على الفور. وقفت في منتصف الحجرة وأمسكت بالجريدة بقوة بين يديّ. ثم سارعت أقرأ. واندفعت أردد بصوت خفيت مع جبران:

"سحر عجيب مازح صوت حبيبتي وفعل بمشاعري ما فعل وأنا لاهٍ عن كلامها بما أغناني عن الكلام."

الإثنين 16 أيلول (سبتمبر) 1906

عند المساء حضر إلياس من عمله مجهدًا. كعادته دلف إلى حجرته ليخلع عنه ملابس العمل ويرتدي ثياب المنزل المريحة. حين خرج من غرفته باغتته بسؤالي:

"ماذا تشتهي يا عزيزي أن أعد لك لتأكل في وجبة العشاء؟"

فغر فاه ولم يجب. اقتحمته الدهشة من قدرتي المفاجئة على الكلام بعد أشهر من الصمت.

رحت أقص عليه ما حدث لي عند الصباح وكيف أبرأتني كلمات جبران.

سهرنا واحتفلنا إلى ساعة متأخرة. واعترف لي ليلتها أنه كان بالفعل قد بدأ يفكر في ضرورة أن أعود إلى مصر.

وعند الصباح عاودتني ذات الأفكار. وتسرَّب الحنين. فتساءلت متى يحين موعد العودة حقًّا؟

الثلاثاء 13 تشرين ثان (نوفمبر) 1906

تلقيت رسالتك بأسى يا روز. ها قد رحلت أختي من دون أن أراها. كما رحل أبي أيضا في طرابلس بينما أنا في الإسكندرية. قدري ألا أودع أيًّا منهما قبل الرحيل. ربما كان ذلك إعلانًا من السماء أني جئت إلى العالم من أجل رسالة خاصة بي أنا وحدي. لا تتعلق بمن أكون أو إلى من أنتمي. إنها أطروحة مجردة من العلاقات. لم يُكتب لي أن أكون سليلًا لعائلتي على النحو التقليدي المرتقب من شاب مثلي. لم أكن يومًا ابن أبي وأمي كما يصير الأبناء بل أنا ابن العالم أجمع أنشغل بما يشغله وعلى عاتقي يقع أمر جلل. دفعني القدر لأن أترك بلدي الأول وأسعى إلى الإسكندرية لأنثر البذرة الأولى في حقلي ثم أنتظر حتى تنبت. ثم أسافر من جديد لأرعى النبتة الجديدة فتنمو وتترعرع حتى تضحى شجرة مثمرة. نعم فرغم آلام فراقهما التي تعتريني الآن أشعر بمباركتهما لثمار عملي وللمهمة التي من أجلها وُجدتُ.

عليَّ أن أُخضع طاقة الحزن هذه إلى العمل فتصير قوة تدفعني إلى الأمام.

الأربعاء 28 تشرين ثان (نوفمبر) 1906

قررت أن أرد من جديد على ما كتبه الأستاذ (رحمه الله) منتقدًا الجامعة فيما كتبت على نحو مفصَّل. وذلك لم يكن ردًا على الأستاذ الذي رحل عنا وإنما ردًا على أفكاره التي نُشرت بالفعل وقرأها محبوه من القراء. لذلك انكببت أقرأ كتب التاريخ العربي التي احتفظ بها إلياس بمكتبته كما قضيت ساعات بالمكتبة العامة القريبة. ورغبة في استيفاء الكلام ننظر في رد الأستاذ شذرة ثم شذرة ومن أول شذرة منها.

قال الأستاذ في جوابه إن القرآن فصل بين السلطتين أيضًا وذلك بقوله "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" فنقول إن ذلك يقتدي نظرًا. فإنه إذا كان المراد به أن يكون للكافر حتى جاحد الدين في الأمة أي الزنديق من الحقوق ما للمؤمن الصحيح العقيدة تمامًا بلا زيادة ولا نقصان حتى رئاسة الأمة نفسها هذا الفصل صحيح. وإلا فلا لأن الغرض من الفصل المساواة المطلقة بين جميع العناصر كما قدمنا. وقد ذكرنا فيما مرَّ أن العقلاء يوافقون على كل تأويل يراد به الفصل.

أما قوله عن نفيّ القتال من أجل الاعتقاد قال الأستاذ في هذا الفصل إن المسلمين لم يتقاتلوا من أجل الاعتقاد وإن الثورات والفتن في زمن الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية ومقتل الحسن والحسين رضي الله عنهما وما سبقه وتبعه من الفتن وحروب القرامطة وغيرهم لم يكن سببها كلها إلا "الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة" فنحن نستحسن قول الأستاذ هذا كل الاستحسان. وهو رأينا أيضًا. ولكنا لا نرى هذا الرأي في أمة دون أمة بل نطلقه على جميع الأمم. وعلى ذلك فجميع ما حدث في العالم المسيحي باسم الدين من القتل والتمثيل كديوان التفتيش ومذبحة سان برتلماي وغيرها يكون مصدره السياسة أيضًا والاختلاف على طريقة حكم الأمة. وقد بيّنا أن الغرض الوحيد من ذلك إنما كان الوحدة الدينية والقومية. والإنصاف يقتضي أن يُحكم على جميع الناس حكمًا واحدًا.

وهنا نصل إلى مسألة من أهم المسائل وهذا بيانها.

قال الأستاذ إن أسباب الفتن التي قامت في خلافة بني عباس استيلاء "الجهلة" على حكومتهم. وهؤلاء الجهلة كانوا أكبر بلاء على المسلمين في هِمَمهم وعقولهم. ثم قال في رده "لم أر كالإسلام دينًا حفظ أصله وخلط في أهله. لا هم فهموه فأقاموه ولا هم رحموه فتركوه. سواسية من الناس اتصلوا به ووصلوا نسبهم بسببه. وقالوا نحن أهله وعشيرته وحُماته وعصبته. وهم ليسوا منه في شيء إلا كما يكون الجهل من العلم والطيش من الحلم وأفن الرأي من صحة الحكم. ظن (خليفة) أن الجيش العربي قد يكون عونًا لخليفة

علوي لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم. فأراد أن يتخذ له جيشًا أجنبيًّا من الترك والديلم (الفرس) وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها بإحسانه. هنالك استعجم الإسلام وانقلب عجميًّا. استولى ذلك الجيش على الحكومة وارتدى الترك والديلم ثياب العلم وأدخلوا في الدين ما ليس منه خدمة لملوكهم. هذه السياسة سياسة الظلمة وأهل الأثرة هي التي روّجت ما أُدخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملًا كان يخترق به أطباق السموات. فجلُّ ما تراه الآن مما تسميه إسلامًا هو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج وقليل من الأقوال وقليل من الأقوال التي حُرِّفت عن معانيها."

نقول فنحن نقف عند هذا القول الخطير متأملين. وقبل كل أمر نعترف لفضيلة الأستاذ بالجرأة في هذا القول. وكما إنه كان جريئًا فيه فإن جرأته هذه تعلمنا الجرأة أيضًا. فنقول إننا نعتقد أن الأستاذ مصيب في شيءٍ مما تقدم وغير مصيب في شيءٍ آخر. فإن جراثيم الفتن والانحلال كانت في تاريخ المسلمين قبل اتصالهم بالترك والفرس. فليس الترك والفرس بالسبب الحقيقي. ألا ترى أن الخليفة الذي ذكره الأستاذ استجار بجيش تركي لكي يتقي شر الفتن التي كانت تحت الرماد والتي قبل ذلك كانت قد خربت البلاد. وأما نحن فنعتقد بلا مداجاة ولا مصانعة أنه ما أنقذ الإسلام وحفظه إلى اليوم إلا الترك والفرس. وحسب الفرس فضلاً على

التمدن إنهم كانوا من أعظم العناصر الإنسانية اشتغالاً بالعلم والفلسفة وابتداعًا فيهم وأقومهم في السياسة وحسن التدبير حتى أن عدد من نبغ فيهم باللغة العربية من فطاحل العلماء يساوي عدد العلماء العرب. ولكن يظهر أن الأستاذ يردّد في هذا الموضوع صدى ما كان يُقال في أطراف السلطنة العباسية يوم استفحال أمر رجال الفرس فيها علمًا وأدبًا وسياسة. فإن بعضهم كان يقول "إن الدين قد خرج من أهله". وقولهم هذا إنما كان للرغبة في مقاومة رجال الفرس الذين اتخذهم الرشيد والمأمون عونًا لهما على تدبير السلطنة ونشر العلم والفلسفة فيها كالبرامكة وغيرهم. وبما كان لذلك دخل في نكبة البرامكة وقتلهم بلا محاكمة ولا إنذار من أن التمدن العباسي كان يومئذ في أوجه. خصوصًا وإن رجال الفرس الذين كانوا في ذلك الزمان اشتهروا بسعة الصدر والتوسع في التأويل وإنامة كل أمر في بعض الأحيان لدى أمر السلطة المدنية.

ولكن مهما يقال في أمر الفرس فإنه لم يكن لهم التأثير العظيم الذي كان لرصفائهم الأتراك على حياة الإسلام ومستقبله. فإن الفرس لم ينعوا الإسلام الحاضر إلا من جهة العلم. وأما الأتراك فقد حفظوا حياته بقوة السيف. وقد جاء في أمثال الفرنج "أريد أن أحيا قبل أن أُخلَّد" ففضل الدولة التركية على الإسلام فضل لا ينكره أحد. ولعل الأستاذ لا يضيف إلى إهانات التي تدافع عنه إهانة جديدة للجامعة بظنه إنها تقول هذا القول تزلفًا فإننا قد ذكرنا قبلًا أننا نكتب دائمًا كأننا نكتب لأرضٍ قفراء لا ناس

فيها. وإن دولة سلاطيننا آل عثمان ورثت الميراث العربي بانتخاب طبيعي فكفت بقوتها ذلك الميراث ما كان يحدق به من المصائب والأخطار. وإن ميراث العرب – لولا الدولة العثمانية – لم يبلغ هذا المقام بل ربما لم يثبت بعد أصحابه بضعة أعوام.

وهنا لا نجهل اعتراضًا للأستاذ. فإنه يقول بلا شك: "ما هذا القول البارد. أتفضلون الترك على العرب. وكيف جاز قيام الترك وبقاؤهم ولم يجز قيام العرب وبقاؤهم؟" فالجواب أننا لا نفضل تُركًا على عربٍ ولا عربًا على ترك. إذ لكل قوم فضائل ونقائص لأن الإنسانية من طين واحد. ومن ذا الذي ينسى فضائل العرب في الكرة الأرضية؟ من ينسى ذلك النور الذي انتشر في الأرض بسرعة البرق فأضاء الآفاق كلها؟ ولكننا نرى من الإنصاف أن يُعطى كل ذي حق حقه. ولذلك نقول أن ذلك النور الذي خبا بحكم الضرورة لأنه كان يطلب الوحدة الدينية والعمل بحرف الكتب وبروحها معًا. والوحدة الدينية محال كما بيّنا. وأما الدول التي قامت وبقيت فإنها لم تهتم بحرف الكتب ولا كانت وظيفتها الأولى طلب الوحدة الدينية.

وإنما فصل بين الأستاذ وبيننا في هذه المسألة واد ثالث عميق جدًا أيضًا للوجهة التي اختارها الأستاذ في هذه المسألة. فإن المجلة التي تصدر من مال الأستاذ وتُنشر بحمايته وأحيانًا بقلمه وتدافع عنه مكافأة له على شيء من فضله عليها ليس لها هم من حين سُمت "جريدة اللواء" رصيفنا صاحبها

"دخيلاً" ومن حين المناظرات العنيفة التي قامت بينهما - إلا المناداة بأن المسلم "لا وطن له" وإنما وطنه الإسلام. بل نسينا همًا آخر لها وهو النداءُ أيضًا بأن جريدة اللواء لا تمثل المسلمين قطعيًا. ولا بدع فإن هذين القولين مرتبطان بعضهما ببعض. ويؤخذ من الأول منهما أن الإسلام دين عام متاح لكل أمة وكل شعب وكل عنصر حتى الوثنيين أنفسهم. وبمجرد دخول الإنسان فيه يصير واحدًا من أبنائه له من الحقوق ما لهم وعليه من الواجبات ما عليهم بقطع النظر عن وطنه وعصبيته وجنسه. فإذا كان هذا هكذا فما معنى حملة الأستاذ على العناصر الغريبة التي دخلت في الإسلام وقوله إن الأتراك والفرس والمغاربة في المشرق والمغرب هم السبب في ضعف الإسلام لا غير. ولماذا نلوم هذه العناصر ولا نلوم العناصر الأولى التي لم تُحسن حفظ نفسها منها. وما معنى "الجامعة الإسلامية" إذا كانت الشعوب الغريبة تبقى محسوبة غريبة قاصرة عن فهم الإسلام والعمل به ولو مرَّ على اعتناقها الإسلام مئات السنين؟ نعم نحن قد وقفنا على الفيلسوف رنان فيه طرف مما ذكره الأستاذ. فإنه قال عند كلامه عن اضطهاد العلم والفلسفة في الإسلام في المشرق والمغرب أن الدين الإسلامي كان في أيدي البربر والعناصر الغريبة بمثابة قواعد شديدة ضيقة لأنهم كانوا يجعلونه كذلك. ولكننا نقول للأستاذ باحترام إنه عليه أن يحذر من هذا القول لأنه يهدم "الجامعة الإسلامية".

فالرغبة في حصر حق تفسير الدين وتأويله وحق الرئاسة في العرب

دون سواهم وجعل باقي الأمم المؤمنة إيمانهم في منزلةٍ دونهم أمر لا ينطبق على حاجات العصر ومقتضياته. وقد بيَّنا في موضع آخر إن الوحدة الدينية محال ولذلك يطلب كل شعب من البشر فهم دينه بعقله واتباع عادات وأخلاق آبائه وأجداده والمعيشة مستقلاً ببلده فلا يتدخل أحد في شؤونه. وقد برهنَّا في ما تقدم أيضًا أن هذا الذي حدث في الإسلام وكان سببًا في تشعب الدول بعضها تلو البعض قد حدث في النصرانية أيضًا. فها هم اليونان والموارنة مثلاً الذين هم أرومة المسيحية الأولى. أين مقامهم اليوم من المسيحية؟ إن الموارنة تابعون للسلطة البابوية الغربية. وهذه السلطة تحرم اليونان لاعتبارها أنهم شذوا عنها وهم يحرمونها لاعتبارهم أنها هي الشاذة. والأناجيل كُتبت في الأصل باللغة اليونانية ومع ذلك فالسلطة البابوية العليا التي تدَّعي في رومه الرئاسة على كل السلطات المسيحية تقرأها باللغة اللاتينية. وكل هذه الأمور إذا كان أنصار الأحزاب يسمونها "بدعًا" فإن الفلاسفة يسمونها أمورًا طبيعية لا بد منها لأنها تابعة لطبيعة الزمان والمكان والسكان. ومن يحاربها فكأنه يحارب الطبيعة نفسها.

فإن الأستاذ يجعل السبب في ضعف العرب والإسلام سوء فهم العناصر الغريبة للدين الإسلامي. أي أنه يرى أن سوء فهم الدين هو سبب التأخر وأن الرجوع إلى الأصل شرط كل إصلاح.

أما نحن فجوابنا عليه بسيط جدًا وهو بسيط لأنه طبيعي. وهو طبيعي لأنه كان ضروريًا – أي أن الطبيعة اقتضته وطلبته. وهذا الجواب هو

اعتبارنا كل التفرعات والتشعبات التي حدثت في الإسلام والمسيحية أمورًا طبيعية ضرورية لا بد منها لأن الإنسانية مطبوعة على الاختلاف والتنوع كما تقدم وروحها لا تستطيع الوقوف. ومتى سُلِّم بهذا المبدأ لزم واحد من اثنين. فإما ترك الأصل وشأنه وتجويز التصرف والزيادة لأن ما وافق في الماضي لا يوافق في هذا الزمان. وإما فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية لتنطلق يد المملكة في إدارة شؤونها العصرية وسنِّ شرائعها الملائمة لمقتضيات العصر بدلاً من أن تكون معلقة بغيرها.

وترك الأصل بتاتًا محال في كل دين كما أن الرجوع إليه عينه محال أيضًا. وإنما ترك الأصل محال لعدة أسباب منها أنه أساسٌ جميل تتعلق نفس الإنسانية به لألفتها إياه ورغبتها في أن يبقى لها ولو ظاهره. إذن يخرج من هنا وجوب فصل الدين عن السلطة المدنية. وبالتالي يكون أساس الإصلاح الذي يجب أن تدعو إليه الحكومات في هذا الزمان حصر الدين في أماكن العبادة كما تحصره فرنسا اليوم وعدم الإذن له بالخروج منها لأنه لا دخل له في الدنيا ولا وظيفة له غير عبادة الله.

وهذا ينافي دعوة الأستاذ التي تقدمت أشد منافاة.

* * *

الثاني عشر

السبت 12 كانون ثان (يناير) 1907

ما زلت أقرأ في تاريخ العرب والمسلمين. ولكن سعادتي باستعادة القدرة على الكلام فاقت كل حد. إذ أدركت أن كل ما قرأته في المصحة أثناء فترة الصمت التي عانيتها لم يتبق منه في ذهني حرف واحد. تبين لي أنه لا بد من وجود علاقة وثيقة بين حاسة النظر (المطالعة) وبين حاسة الكلام (النطق) في جهازي العصبي. على أية حال عليّ بقراءة كل تلك الكتب من جديد. لقد شجعتني برودة الجو المطبقة على مثولي بالمنزل لعدة أسابيع. أما عن نوبات السعال فصارت نادرة الحدوث بحيث أنّي لم أعد أبالي بها.

أواجه برد الشتاء هنا بشراب الشكولاتة الساخنة الذي تعلمت شربه هنا منذ أول عيد للكريسماس. يشربه الناس في نيويورك إلى جانب قطع من الحلوى مزركشة الألوان كعادة موسمية يقدسونها.

لكن هدية الكريسماس التي ابتاعها إلياس إلينا معًا كانت جهاز "فونوغراف". إنها آلة سحرية يا روز – فهي تدور بواسطة محرك تديره يد معدنية تدور حول محورها تدور معه أسطوانة ترسل ذبذبات كهربية يطلقها بوق ملحق فنسمع فرقة موسيقية كاملة في الحجرة. أول ما استمعنا إليه ليلتها كان تسجيلًا لموسيقي أمريكي شهير يُدعى "جون فيليب سوسا" وفرقته الموسيقية.

إلياس مولع بمجاوبة العصر واختراعاته. وأنا معه أستمتع بها من دون أن أدري إلى أين ستنتهي بنا. لكن العلم يتطور بنا بسرعة مهولة. فيقدم لنا عند مطلع كل شمس اختراعًا مفيدًا يسهل علينا حياتنا أحيانًا أو يجعل حياتنا أكثر متعة على أي حال.

الأحد 17 شباط (فبراير) 1907

أمضينا الصباح نتجول في الشوارع. ثم تناولنا الغداء بصحبة بعض الأصدقاء في مطعم عائلي يقدم الطعام الإيطالي. ثم عدنا إلى البيت عند المساء. أعود الآن إلى الكتابة ردًا على الأستاذ:

أوَ كأن إصلاح الإسلام قائمًا بإسقاط النصرانية! وما هذه شيمة المصلحين

الحقيقيين الذين تُرجى منهم الفائدة الحقيقية. بل لا يكون ذلك الإصلاح إصلاحًا قطعيًا لأن كل إصلاح لا يُبنى على الإنصاف والعدل يكون إصلاحًا باطلاً. فكأن الحقيقة والإصلاح لا يعطيان ثمارهما إلا للشجعان الأقوياء الذين يقدرون على احتمال قوتها ويصبرون عند الصدمة الأولى على كل اضطهاد يصيبهم بسببهما. وهنا نعتذر باحترام لفضيلة الأستاذ عن هذا القول. لو لم يكن لهذا القول علاقة بالموضوع لضربنا عنه صفحًا. ولكن الكلام ما يجيء في موضعه عفوًّا فيكون حذفه ذنبًا. خصوصًا إذا كان فيه ظهور سببٍ من أهم أسباب هذه المحادثة وتخفيفٍ لغلظة الأستاذ في حملته على النصرانية.

الإثنين 18 شباط (فبراير) 1907

استيقظت مبكرًا اليوم لأستكمل الخواطر التي دونتها بالأمس.

وهنا نصل إلى الموضوع المهم في رد الأستاذ. وهو قوله عن أصول الدين المسيحي. وقد "جعل" الأستاذ هذه الأصول ستة: (الأول) الخوارق أي المعجزات أو العجائب. و(الثاني) سلطة الرؤساء. و(الثالث) ترك الدنيا. و(الرابع) الإيمان بغير المعقول. و(الخامس) احتواء الكتب المقدسة على كل شيء. و(السادس) التفريق بين المسيحيين. – فنحن نحصر ردنا في الأصول

الثلاثة الأولين. أما الأمور الأخرى فلقد سبق وأن رددنا عليها.

الأمر الأول الخوارق والعقل والأديان – وقبل الكلام في الأمر الأول لا بد لنا من ذكر ملاحظة. وهي أنه لو كان غرضنا الدفاع عن النصرانية في هذا الرد لرأينا السكوت أجدر وأوجب. ذلك لأن منازلة الأستاذ للجامعة في هذا الموضوع أشبه بمنازلة فارس لراجلٍ. أو فارس مسلح بسيف ورمح لفارس لا سلاح له إلا خنجرً صغيرً في يده. ونعني بذلك (غير سعة علم الأستاذ وعجز الجامعة وضعفها) أن الأستاذ لا يجد في نفسه حاجة إلى مداراة عواطف أحد. وأما الجامعة فإن هذه المداراة من واجباتها الأساسية. كلا. وهذه هي المرة الثالثة التي نقول فيها ملء فمنا إننا نكتب هذا الكتاب كأننا نكتبه لكرة قفراء لا أناس فيها. وإنما تجب علينا المداراة لأننا نعرف أن المقصود من الأدب وصناعته الفائدة لا الضرر. فكل واحد ينحاز إلى فريق وينصره على فريق آخر فإن قوله لا يثمر غير الضرر ولو جاء بالآيات بيّنات. وإنما الفائدة الحقيقية تكون متى خلع الكاتب رداء الأحزاب كلها ولبس رداء البشَر. فهو حينئذٍ يكتب كإنسان لا كمسلم أو كمسيحي. وكل ما يُكتب باسم الإنسانية فقط لا باسم حزب واحدٍ من أحزابها فإنه لا يكون فيه إلا النفع المحض لكل أجزاء الإنسانية. وهذا هو سبيلنا في هذا الرد الوعر على الأستاذ. فهو سامحه الله يدافع ويناضل عن مذهب واحد بالحط من شأن مذهب آخر. وأما الجامعة فإنها تكسر قلمها ولا تدخل في هذه الطريق التي لا يصنع الداخل فيها شيئًا غير إيذاء

عواطف فريق من اخوانه بني الإنسان بصدم معتقداتهم المجبولة بلحمهم وعظامهم وإثارة التعصب في صدور البسطاء والجهلاء.

فكلامنا إذًا في هذا الموضوع كلام من يحكم على الإسلام والمسيحية حكمًا مجردًا عن كل شهوة وغرض غير غرض الفضيلة المقدسة. وقد قلنا "الفضيلة" ولم نقل "الحقيقة" لأن الحقيقة هي الله وحده والأديان كلها مستمدة منه سبحانه وتعالى.

الخميس 28 شباط (فبراير) 1907

وأول ما نقوله في هذا الموضوع أن الأستاذ – رحمه الله وأسكنه فسيح جناته والمجلة التي تدافع عنه قد التزما قولاً يضر كل الضرر بجميع الأديان. فإن هذه المجلة تنادي تارة أن "دين النصارى دين عجائب وغرائب" وتارة أخرى تقول "إن دين الإسلام هو دين العقل إذ كل ما فيه معقول" وآونة تقول "لولا الدين الإسلامي المعقول لما ثبت دين في العالم وسيعود العلم في أوروبا إلى الدين الإسلامي إذ ليس في هذا الدين شيءٌ ينافي العقل". ومن جهة أخرى يقول الأستاذ: "إن الإسلام يقدم العقل على ظاهر الشرع". ويقول أيضًا: "إن الإسلام يعول في دعوته على العقل لتنبيه العقل البشري وتوجيهه إلى النظر في الكون من النظام والترتيب

وتعاقد الأسباب والمسببات". أما نحن فإننا نرى في هذه الأقوال كلها ضررًا عظيمًا للدين بدلاً من الفائدة. ونحن كمشتغلين بالفلسفة نقبلها ونهش لها ولكنّا كحريصين على الفضيلة الدينية التي يقوم عليها بناءُ الأديان وبها تُناط فضيلة الشعوب نأسف لها. ذلك لأن الدين متى صار "عقليًّ" لم يعد دينًا بل أصبح علمًا. إذ ما هو الدين؟ هو الإيمان بخالق غير منظور وآخرة غير منظورة ووحي ونبوءة ومعجزات وبعث وحشر وثواب وعقاب وكلها غير محسوسة وغير معقولة ولا دليل عليها غير ما جاء في الكتب المقدسة. فمن يريد فهم هذه الأمور بعقله ليقول إن دينه عقلي ينتهي إلى رفع ذلك كله لا محالة. ولا يمكن أن يوجد في العالم "دين عقلي" إلا إذا كان ذلك الدين يُثبت بأدلة مبنية على "الامتحان والتجربة والمشاهدة" إزاء نفس الإنسان الخالدة وبعث الأجساد والثواب والعقاب وعالم الغيب والوحي والحق سبحانه وتعالى. ولذلك كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين في كل ملة ينادون بإبعاد العقل عن الدين. وهذا هو السبب في التقاء حجة الإسلام الإمام الغزالي وإمام الفلاسفة ابن رشد في هذه المسألة.

قال الغزالي في كتابه "تهافت الفلاسفة" (في صفحة 44): "ليس ينفك فريق منهم (الفلاسفة) عن خزي في مذهبه وهكذا يفعل الله بمن ضل عن سبيله وظن أن الأمور الإلهية يستولي على كنهها بنظره وتخيله". وقال (في صفحة 45) مخاطبًا الفلاسفة: "المقصود تعجيزكم عن دعواكم معرفة

حقائق الأمور بالبراهين القطعية وإذا ظهر عجزكم ففي الناس من يذهب إلى أن حقائق الحقوق الإلهية لا تُنال بنظر العقل بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها". وقال (في الصفحة 64): "بم تنكرون على من يقول إن النبي يعرف الغيب بتعريف الله عز وجل على سبيل الابتداء. وما ذكرتموه وإن اعتُرف بإمكانه فلا يُعرف وجوده ولا يتحقق كونه وإنما السبيل فيه أن يُتعرف من الشرع لا من العقل". ثم قال (في الصفحة 86) عن الجنة والثواب: "عرفنا ذلك بالشرع وإنما أنكرنا عليهم من قبل دعواهم معرفة ذلك بمجرد العقل". فأين هذا القول من قول الأستاذ؟

وأما إمام الفلسفة ابن رشد فإنه يقول (في الصفحة 125) من كتابه "تهافت التهافت" ردًا على قول الغزالي في علم النبي الغيب وما قد تقدم: "الفلسفة تفحص عن كل ما جاء في الشرع فإن أدركته استوى الإدراكان. وكان ذلك أتم وإن لم تدركه أعلمت بقصور العقل الإنساني وإن يدركه الشرع فقط" انتهى بحرفه. فأين هذا القول من قول الأستاذ؟ وقال ابن رشد (في الصفحة 126) يرد على ما قاله الغزالي من أن الفلاسفة ينكرون المعجزات: "أما الكلام في المعجزات فليس فيه للقدماء من الفلاسفة قول لأن هذه كانت عندهم من الأشياء التي لا يجب أن يُتعرَّض للفحص عنها وتُجعل مسائل فإنها مبادئ الشرائع والفاحص عنها والمشكك فيها يحتاج إلى عقوبة عندهم مثل من يبحث عن سائر مبادئ الشرائع العامة مثل هل الله تعالى موجود وهل السعادة موجودة وهل الفضائل موجودة.

وإنه لا يشك في وجودها وإن كيفية وجودها هو أمر إلهي معجز عن إدراك العقول الإنسانية. فوجب ألا يُتعرض للفحص عن المبادئ". فأين هذا القول من قول الأستاذ؟ و(في الصفحة 129) يقول أيضًا: "أما ما نسبه (أبو حامد) من الاعتراض على معجزة إبراهيم عليه السلام فشيءٌ لم تقله إلا الزنادقة من أهل الإسلام فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل في مبادئ الشرائع وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد. ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم مبادئ الشريعة وأن يقلد فيها. ولا بد من هذا الوضع لها فإن جحدها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان (من حيث الفضيلة) ولذلك وجب قتل الزنادقة. فالذي يجب أن يُقال إن مبادئها هي أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية. فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها ولذلك لا تجد أحدًا من القدماء تكلم في المعجزات مع انتشارها وظهورها في العالم لأنها مبادئ تثبيت الشرائع والشرائع مبادئ الفضائل. فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين في العلم فعرض له تأويل في مبدأ من مبادئها فيجب عليه أن لا يصرح بذلك التأويل وأن يقول فيه كما قال الله تعالى: والراسخون في العلم يقولون آمنا به. هذه حدود الشرائع وحدود العلماء."

فيتضح من كل ما تقدم من أقوال الإمام الغزالي والفيلسوف ابن رشد أن الإسلام دين فوق العقل كما هو كل دين في العالم. بل وما لنا وللإمام

والفيلسوف فقد كنا في غنى عن الاستشهاد بهما لو لجأنا إلى القرآن. فإن القرآن الكريم يثبت كل المعجزات التي وردت في الإنجيل ويزيد عليها معجزات أخرى كثيرة. فقد جاء في القرآن في سورة آل عمران: "إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلًا ومن الصالحين قالت ربي أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذ قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولًا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين".

فهذه الآيات الكريمة تثبت كل ما جاء في الإنجيل من المعجزات وتضيف إليها أخرى. فاعتراض الأستاذ على المعجزات النصرانية اعتراض على القرآن. والحقيقة التي لا ريب فيها أن جميع الأديان متشابهة متضامنة في هذه المسألة.

أعتقد الآن أني وفيت تلك المسألة حق قدرها ولكني أشعر بالإجهاد وأتطلع إلى راحة لجسدي وذهني لكي أتمم كتابة بقية أفكاري.

الثلاثاء 19 آذار (مارس) 1907

بقى أن يُقال إن معجزة واحدة أو عشر معجزات لا تشبه مائة معجزة أو ألفًا. فإن هذه المعجزات في النصرانية أكثر منها في الإسلام. فالجواب أن الكثرة أو القلة في هذه المسألة لا يعتد بها. لأن العمدة على إمكان المعجزة أو عدم إمكانها أي إمكان شيء بلا سبب لازم ضروري وبلا واسطة أو عدم إمكانه. فمتى جاز حدوث معجزة واحدة مهما كانت صغيرة فقد انفتح الباب لجميع المعجزات حتى انقلاب الكتاب فرسًا وبوله على بيت الكتب كما ورد في المثل الذي ذكره الإمام الغزالي وقال بإمكانه (الصفحة 182 السطر الأخير).

فجميع الأديان إذًا هي أديان عجائب وغرائب وليس فيها دين عقلي. وهذا شرف لها وفخر عند رجال الدين لا حطة. والفلاسفة أنفسهم مضطرون إلى القول بأن "المعجزات هي مبادئ تثبيت الشرائع" كما قال ابن رشد في ما تقدم (الصفحة 292). أي أنها الطريقة التي يثبت فيها الله للناس صحة دعوة الداعي ليصدقوه. ولذلك نعتبر أن الدعوة إلى اعتبار الإسلام دينًا عقليًّا مضرة جدًا للعامة وإن كان الخاصة لا يحتاجون إليها ولا إلى غيرها.

وبما أننا وصلنا في التصريح في هذا الفصل إلى هذا الحد فقد وجب علينا أن نذكر كل ما بقيَ. فنقول إنه ربما كان الغرض من القول بأن النصرانية دين عجائب وغرائب وأن الإسلام دين العقل الإشارة إلى مسألة التثليث في الأقانيم ومسألة بنوة المسيح لله. فإذا كان هذا الظن في محله فهو جدير بأن لا يُقابَل إلا بالابتسام. لأننا نعلم أن العقلاء من أخواننا المسلمين قد عرفوا أن مسألة التثليث ليست سوى مسألة شعرية تصوّرية. وأي نصراني جاهل يقول اليوم إن الله ثلاثة؟ بل هم يشبهون الألوهية بالنور وما فيه من التثليث: أي ذاته وحرارته وضياؤه. ولا ننكر أن هذا التشبيه يخالف مذهب الفلاسفة لأنه يقتضي أن يكون في (الواحد الأحد) كثرة. ولكن ما العمل فإنه كلما أُريد تعيين صفات للخالق جاءت الكثرة – تلك الكثرة التي صعق بها الغزالي فلاسفة العرب. ولذلك كان المعتزلة وهؤلاء الفلاسفة ينفون الصفات عن الخالق أي استحالة إثبات "العلم والقدرة والإرادة" له ويقولون إن هذه الأسماء التي وردت شرعًا لا يجوز اطلاقها لغةً لأنه لا يجوز اثبات صفة للمبتدأ الأول (الخالق) زائدة على ذاته. ذلك لأن هذه الصفات معلولة فإذا أثبت له وهو واجب (أي غير معلول) زيد على ذاته شيء معلول من خارج ذاته فصارت فيه كثرة ولم يعد واحدًا. ومتى صحَّ هذا فقد نفيَ التوحيد عن كل أمة وكل ملَّة ولزمهن الشرك جميعًا لأنهن جميعهن يثبتن للخالق صفات عديدة متناقضة. فالخلاف الأساسي إذًا هو على نفي الصفات أو إثباتها. وبما أن المليين (المسيحيين والمسلمين واليهود)

متفقون على إثباتها فلا فرق بعد ذلك بينهم قطعيًّا إذ قال بعضهم روح الله وكلمته وقال بعضهم يمينه وعرشه وكلامه أو غير ذلك. ذلك أن كل هذه الصفات مجازية تصويرية وهي ضرورية لعامة الناس الذين لا يفهمون الدين إلا من قبيل التخييل كما قال ابن رشد (الصفحة 207 السطر 15) ولأن اللغة البشرية لغة قاصرة. فمسألة التثليث إذًا ليست إلا مسألة شعرية تصويرية من هذا القبيل. وقد شهد بذلك كثيرون من إخواننا المسلمين منهم كاتب فاضل كتب في مجلة الموسوعات منذ بضع سنين قولًا نقلناه وهذا نصه: "النصراني يقول بالآب والابن وروح القدس وإن كان لا يرى في الحقيقة غير إله واحد".

هذا ما يقال في مسألة التثليث وبه تزول عقبة بين عقلاء الفريقين. بقيت العقبة الأخرى وهي بنوة المسيح لله.

الأحد 7 نيسان (أبريل) 1907

ولو لم تكن الجامعة قد نشرت كتاب "تاريخ المسيح" بقلم الفيلسوف رنان للزمَنا أن نسهب في هذا الموضوع. أما وقد نشرنا هذا التاريخ وعرفنا صداه بين المسلمين والمسيحيين في الشرق والغرب فقد صار الكلام عن بنوية المسيح لله من قبيل تحصيل الحاصل وصارت مجادلة تلك المجلة فيه

من قبل الرغبة في حفظه بالرغم من أصحابه لأنه رأسمالٌ مفيد. وحقيقة المسألة أن الإنجيل يسمي البشر "أبناء الله" كما يسميهم القرآن "عباد الله" على سبيل الاصطلاح. وإذا وُجد اعتراض على تسمية "أبناء الله" التي وردت ألف مرة في الإنجيل "فعباد الله" لا تسلم من الاعتراض أيضًا. ذلك أن الإنسان لا يريد أن يكون عبدًا لأحد. وإذا كان الله قد خلقه ليجعله عبدًا له فقد ظلمه. أجل إن الإنسان الذي يحمل في داخله روح الله من حقه أن يطلب أن لا يكون عبدًا بل حرًا ومن ذلك يظهر أن كل تسمية لا تسلم من الاعتراض. وأن هذه الاصطلاحات يجب التسليم بها كما هي لأنها لا تخرج عن كونها اصطلاحات. "فأبناء الله" إذًا لا يُقصد بها غير المعنى المجازي. وكل إنسان صالح فيه روح الله يكون من هؤلاء الأبناء. وهم يعتبرون أن أكبر هؤلاء الأبناء ذلك الابن الذي اجتمع فيه من روح الله ما لم يجتمع في سواه وهو الذي تنحني له اليوم تيجان القياصرة والملوك والرؤساء في جميع أقطار العالم. وما عدا هذا فالقرآن يشهد للمسيح أنه روح الله فهل نترك هذه الشهادة ونتمسك بتسمية عامية مجازية تأييدًا لحجتنا وإبقاء للنفار والنزاع. إذًا فكل مسلم عاقل يعرف في هذا الزمان أن اعتقاد عقلاء النصارى بالمسيح موافق لشهادة القرآن له وأن البشر أو رؤساءهم هم الذين بنوا على التسميات العامية المجازية أقاويل يقصدون بها إبعاد الطوائف بعضها عن بعض من أجل مصالحهم وأهوائهم ولو أدت إلى مناقضة كتبهم المقدسة.

فمن كل ما تقدم تتضح ثلاثة أمور. (أولاً) إن القول بأن الدين دين عقل قول مناقض لكل دين وكل عقل. لأن العقل مبني على المحسوسات ولا يعرف نواميس غير نواميسها والدين مبني على الغيب. (ثانيًا) إن الخلاف بين المسلمين والنصارى بشأن التوحيد والتثليث ولاهوت المسيح خلاف مقطوع لدى عقلائهم لأن الفريقين متفقان على الحقيقة المؤيَّدة بكتابيهما. ولا يروّج هذا الخلاف منهم أحد إلا من كانت له مصلحة خصوصية في ترويجه. (ثالثًا) إن تنافس الأديان وتفاضلها يجب أن يكون مبنيًّا على ما فيها من الفضائل والآداب فجميع الأديان متشابهة لأن مبادئها وأصولها مشتركة وهي إلى ذلك غير معقولة.

إذن فكما أن الخوارق من أصول الدين المسيحي فهي أيضًا من أصول الدين الإسلامي ولولاها لهدم العقل بالعلم الحسي المادي هذين الدينين معًا.

اعتقاد الأستاذ بالمسيح. مناقضة هذا الاعتقاد للنتيجة التي تخرج من درس عصر المسيح.

الثالث عشر

الخميس 25 نيسان (أبريل) 1907

الأمر الثاني هو ترك الدنيا. فنبدأ فيه بقول متعلق بالبحث السابق. وهو قول الأستاذ في آخر رده عن اعتقاده بالمسيح: "إنّا نعتقد أن المسيح روح الله وكلمته ورسوله إلى بني إسرائيل. بُعث مصدقًا لما بين يديه من التوراة وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد في شئون معاشهم ومعادهم ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التي وهبهم الله تعالى إياها بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها". ثم قال ما معناه أن كل ما صحَّ عند الأستاذ عن

المسيح لا يخالف هذا الاعتقاد. وإذا صحَّ عن المسيح شيء يخالفه فالأستاذ يؤوله حتى يرجع معناه إلى ذلك الاعتقاد. وإن لم يمكن التأويل لم نعتدّ به إذ "لا علم له إلا ما علم".

فنحن والحق يُقال قرأنا هذا الكلام بدهشة. لأننا علمنا منه أنه عدُل عن طريقة "العقل" التي ينادي بها. فهل من الإنصاف أن ننادي بالعقل ما دمنا متفقين معه في شيء وننبذه ظهريًا متى خالفنا في شيءٍ. ولنبحث في الأمور التي يعلمنا إياها العقل في هذه المسألة.

لذا فيجب هنا أن نسهب في عدة مسائل قد توضح رأينًا العقلي وتسهم كذلك في إدراك سر اختلافنا مع ما طرحه الأستاذ. أولاً: مدنية اليهود يومئذ. ثانيًا: الخطبة على الجبل هي كل شيء وهي أوضح دليل على الفصل بين الدنيا والدين. وثالثًا: سبب احتياج العالم القديم إليها. ورابعًا: اختلاف الوسط المسيحي مقارنة للوسط الإسلامي ولذلك اختلفت الشريعتان نتيجة ذلك.

للأمة اليهودية مؤرخون وللأمة الرومانية مؤرخون. وقد كتب هؤلاء المؤرخون تاريخ العصر الذي عاش فيه المسيح ونخص منهم يوسيفوس الإسرائيلي. ويؤخذ من كل كتاباتهم التي ما تزال بين أيدينا إلى اليوم أن اليهود كانوا في ذلك العصر أمة متمدنة عظيمة خاضعة للرومانيين الذين سلبوها حريتها. وقد كانت الأمة اليهودية تعبد الله تعالى لأنها أول أمة نادت بالوحدانية. وكان فيها في ذلك العصر علماء وفلاسفة أجلاء منهم

الفيلسوف هلل أكبرهم وأعظمهم وشماي وفيلون الاسكندري وغمالائيل الذي كان معاصرًا للمسيح. وكل مؤلفات هؤلاء الفلاسفة غاية في الأدب والحكمة والعلم. ولا يزال علماء العالم يعتمدون عليها إلى الآن. أما من حيث الاجتماع فقد كان لهذه الأمة شرائع عديدة ونظامات ومحاكم ومعابد ورؤساء وجند. وأما من حيث المدنية فقد أنشأ الملك هيرودوتس الكبير وكبير كهانها هركان في عاصمتها أورشليم وضواحيها – من الآثار الفخيمة والقصور والأبنية والتماثيل ما جعلها غاية في الرونق والجمال. وحسبنا أن نذكر أن هيكلها العظيم هيكل سليمان الذي لم يكن له شبيه في العالم.

هذه لمحة من مدنية اليهود حين ظهور المسيح في أورشليم. فماذا كان ينقص هذه الأمة ليجوز للأستاذ أن يقول عنها إن المسيح أُرسل "ليهديها في شئون معاشها. ويعلمها شكر الله تعالى" هذا قول قاله الأستاذ من دون أن ينظر إلى تاريخ اليهود في ذلك العصر. لأنه لو ذكر مدنية اليهود يومئذٍ ومعابدهم التي كانت منتشرة في جميع جهات فلسطين يعبدون الله تعالى فيها ولا يزال يزورها علماء أوروبا إلى اليوم لمحا ولا شك قوله عن "تعليم أمور المعاش وشكر الله" ولكن الأستاذ لم يرجع إلى العقل في هذه المسألة أي إلى المشاهدة العيانية في جميع التواريخ التي بين الأيدي اليوم وهي غير مسيحية.

والصحيح الذي لا جدال فيه أن الدعوة المسيحية لم تتغلب على كل ما كان في سبيلها من العثرات اليهودية والرومانية وغيرها إلا بمبادئ

"الخطبة على الجبل". فهذه الخطبة هي التي غلَّبت المسيحية على ما سواها من المبادئ لأنها كانت أرقى منها كلها. وقد قال ابن رشد إن الأفضل يُنسخ بما هو أفضل منه وإن هذا هو السبب في دخول حكماء الرومان فيها.

وهذا الأمر يتطلب راحة من التفكير لكي يتسنى للمرء إيفاءه حق قدره. لا بد قبل من أن أقوم بالكتابة عن خطبة الجبل أن أعرض على الأستاذ ولو نبذة عنها.

* * *

الخميس 2 أيار (مايو) 1907

خطبة المسيح على الجبل منشورة في الإصحاح الخامس والسادس والسابع من إنجيل متى. فالخطبة على الجبل هي عندنا الديانة المسيحية كلها. وما هو مضمون هذه الخطبة؟ مضمونها ما يلي: "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم السعادة. طوبى للأنقياء القلب، لأنهم قريبون من الله. طوبى لصانعي السلام، لأنهم من الله بمنزلة الابن من الأب. طُوبَى للذين يضطهدهم الناس من أجل البر والخير فإنهم ينالون السعادة والخلود في نفوس البشر.

سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تقتل وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أحد يكون مستوجب الحكم. فكن مراضيًّا لخصمك دائمًا. وإذا دخلت للصلاة وتذكرت أن لأحدٍ شيئًا عليكَ فاترك الصلاة حالاً ولا تقربها قبل أن تصالحه. سَمِعْتُمْ أنه قيل للقدماء: لاَ تَزْنِ وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. سَمِعْتُمْ أَنَّ الانسان يُجزى عَيْنٌ بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا. ومن سخرك ميلًا واحدًا فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده. سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وادعو إلى الله يغفر للذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم؟ أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك؟ وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون؟ أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا؟ فكونوا أنتم كاملين اقتداءً "بأبيكم" السماوي مصدر الكمال. ومتى صنعتم صدقة فلا تصوتوا قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون بل لا تتركوا شمالكم تعرف ما تفعل يمينكم. ومتى صليتم فلا تكونوا كالمرائين الذين يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع. ولا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم الذين يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم فإن الله يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه. فإنه

إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضًا "أبوكم" السماوي وإن لم تغفروا للناس زلاتهم فهو لا يغفر لكم. ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين. أما أنتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم. لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض فإن كل شيءٍ فانٍ فيها. ولكن اطلبوا كنوز السماء. لا يقدر أحد أن يخدم ربين: الله والمال. لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ولا بما تلبسون فإن طيور السماء لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع ومع ذلك فالأب السماوي يقوتها. أفلستم أنتم أفضل منها؟ ولماذا تهتمون باللباس؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو مع أنها لا تتعب ولا تغزل. فإن سليمان نفسه في كل مجده لم يلبس كواحدة منها. ولكان إذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويُطرح غدا في التنور يلبسه الله هكذا فكيف بالإنسان الذي هو أفضل مخلوقات الله. "فأبوكم" السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها وهو يعطيكم إياها. ولكن عليكم أولاً أن تطلبوا الخير والفضيلة والبر وتلك كلها تزاد لكم. لا تدينوا لكي لا تدانوا لأنكم بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم. ولماذا أيها المرائي تنظر القذى الذي في عين قريبك ولا تنظر الخشبة التي في عينك؟ أخرج أولا الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيدًا فتستطيع بكل سهولة أن تخرج القذى من عين أخيك. أما أنتم فاصنعوا بالناس ما تريدون أن يصنع الناس بكم. ولا تطرحوا دركم أمام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم.

وإذا كان الأستاذ يرى في تلك الخطبة "تعطيل قوى الانسان" كما قال ويعيِّر مبادئها بترك الدنيا فله الحق في أن يعتقد ذلك لأنه لكل إنسان رأيٌ ومذهبٌ في الأمور. ولكنا نؤكد لفضيلته أن الفلاسفة الملحدين حتى أعداء الدين المسيحي نفسه يقولون: انه ما أقام الديانة المسيحية في الأرض سيف ولا ديوان تفتيش ولا دول وإنما أقامها تلك المبادئ البسيطة التي هي صورة للكمال الذي يجب على البشر أن يجتهدوا لرفع نفوسهم إليها.

وهنا نذكر له قولاً للفيلسوف رنان في هذا الموضوع: فقد كان هذا الفيلسوف يفصّل ما قام بعد صلب المسيح بين الرسل (الحواريين) من التنازع والتزاحم على الرئاسة وغيرها. ولم يكن الانجيل قد كُتب ولا نُشر بعد. فترك رنان بولس وبطرس يتزاحمان على أمور جزئية وقال: بينما يهتمون بهذه الصغائر كان واحد منهم يحمل في جيبه ثلاثة أوراق فيها مستقبل العالم ومستقبل الديانة المسيحية. وهذه الأوراق هي الخطبة على الجبل. ولولاها لما قامت للمسيحية قائمة.

إذن فما هو السبب الذي يجعل الأستاذ يعتقد بنقص هذه المبادئ التي كل كلمة فيها تدل على الكمال ويرى أنها "تعطل" قوى الانسان.

السبب بسيط جدًا وهو أن الأستاذ لا يريد أن يرى دنيا من غير دين ولا دينًا من غير دنيا.

بل يحِب عنده الجمع بين الدنيا والدين.

وهنا نقطة الانفصال الكبرى بين الإسلام والمسيحية.

فإن الخطبة على الجبل تزَهِّد الإنسان في الدنيا وتجعله يتركها لأصحابها. إذ مـن هو الرجل المسيحي – هو الـذي لا يقتني ذهبًا ولا فضة ولا يكنز شيئًا. هو الذي لا يخاصم أحدًا لأنه يفعل بالناس ما يريد أن يُفعل به وإذا خاصمه أحد لم يقاوم الشر بمثله بل إذا ضُرب على خدٍ أدار الخد الآخر. هـو الذي لا يهتم بعمله ولا بأكله ولا شرابـه ولا لباسه لأن الله يعتني به كما يعتني بنبات الحقل وطيور السماء. وهو الذي لا يهمه أمر الحاكم لأنه يعلـم أن السعادة محـال في هذ الدنيا ولذلك يقبل أي حاكم كان ولو كان رومانيًا وثنيًّا (كما كان قيصر) وسبب ذلك أنه ينتظر السعادة والحرية والحق في الآخرة لا في هذا العالم. فهل يجوز للأستاذ بعد هذا البيان أن يقول إن الديانـة المسيحية لم تفصل بين الديـن والدنيا (كما قـال في رده) وأن كلمة "أعطوا ما لقيصر لقيصر" لا تدل على هذا الفصل؟ كلا لم يعد يجوز له ذلـك بعد مطالعة الخطبة على الجبل. لأن اعتراضه الكبير هنا على الديانة المسيحية إنما هو قائم بأنها تجعل الإنسان يترك الدنيا وتعطل قواه. فمسألة الفصـل إذًا قد تقررت هنا تقريرًا لا اعـتراض بعده. فليستخرج الأستاذ بعد هذا القول النتيجة اللازمة.

الثلاثاء 21 أيار (مايو) 1907

أشعـر بنشاط يعتريني اليوم. لذا فلقد أعـددت القهوة وجلست إلى المنضدة المواجهـة للنافذة في حجرة المعيشة أتأمـل ضياء شمس الصباح الربيعي وهي تداعب أوراقي بنورها المتلألئ. وأعكف الآن على استكمال ردي على الأستاذ وللتوضيح للقارئ بشأن انتقاده للعقيدة المسيحية.

أما نحن فيجب علينا أن نستخرج هذه النتيجة للقارئ أيضًا. فنقول إن النتيجة التي تخرج من تلك المقدمات هي أن الديانة المسيحية حفظت نفسها وحفظت المدنية وسهلت التساهل والتسامح في الأرض بين العناصر المختلفة بهذا الترك الذي يعيِّرها الاستاذ به اي بهذا الفصل بين الدين والدنيا ولم يكن ذلك عن قصد من الشارع بل عن طبيعة الزمان الذي عاش فيه. وإليك البيان.

كان اليهود في زمن المسيح خاضعين للسلطة الرومانية في رومه كما تقدم. وكان الاضطراب في بلادهم شبيهًا باضطراب ايرلندا اليوم تحت أكناف انجلترا. وقد كان رؤساء الدين اليهودي ينتظرون مجيء المسيح الذي تدل كتبهم عليه أي مجيء الملك الذي يجمع كلمتهم ويحضر أمتهم من نير رومه ويبسط سلطتهم على جميع الأمم. فقبل قيام المعلم الناصري الجليل

قامت كثيرون من اليهود للثورة على الرومانيين. منهم يهوذا الغولونيتي الذي قام يحرِّض بني وطنه على الامتناع من دفع الجزية الى الرومانيين حين الشروع في إحصاء النفوس لأن دفع الجزية دليل على ذل الدافع وخضوعه. وشعب الله أي اليهود يجب أن يختار الموت على الذل. ومنهم قوم يسمونهم "القتلة" وهم الذين يهجمون على كل من يخالف الشريعة اليهودية أمامهم ويقتلونه. أما حاكم أورشليم الروماني فقد كان يقبض على كل يهوديٍّ ثائرٍ ويقتله عقابًا له. وقد لقي يهوذا الغولونيتي حتفه لهذا السبب.

وكان مجيء السيد المسيح بعد يهوذا الغولونيتي هذا بمدة قصيرة. فإلى أي أمـر يدعو حينئذ؟ أيدعو إلى تدبير الدنيا وإصلاح شؤونها؟ ولكن ما هـو تدبير الدنيا وإصـلاح شؤونها؟ هو قبل كـل شيء طلب الاستقلال والحريـة أي خلع نير القيصر الروماني. وبالتالي يكون ذلك الطلب بمثابة حروب دموية تُشهر لتحرير الأمة اليهودية. ولكن السنن الطبيعية الإلهية لم تكن تسمح يومئذ بهذا الفعل. لأن الضعيف لا يغلب القوي. وقد جرّب اليهود بعد صلب المسيح بمدة وجيزة طلب الاستقلال والحرية فأدى ذلك الى حـصر الرومانيين مدينتهم وفتحها بالقوة وخرابها وتشتيت اليهود في أقطار الأرض. لذا كان المسيح يقول لهم "اعطوا ما لقيصر لقيصر" ودعونا منه (قيـصر) فان الاصلاح الذي نحتاج اليه انـما هو في داخل نفوسنا لا خارجًـا عنها. ومـع ذلك فهب أن المسيح استطـاع يومئذ خلع نير قيصر فـما النفع من ذلـك؟ هل يبطل به الفساد الذي كـان في أحشاء الأمة وفي

الأرض كلهـا؟ كلا لأن مصدر الفساد نفـوس البشر لا السياسة. وهو لم يُرسَـل من العناية الإلهية الى الأرض لنـصرة حزب من البشر على حزب ولا مساعـدة جنسٍ على جنس ولا تقوية شعبٍ لإضعاف شعب. بل أنه أُرسِـل الى البشر كافة لهدم الفساد ولرسـم صورة للكمال الأدبي أمامهم. وبذلك كان كأنه حارب قيصر وخلع نيره. اي أنه خلع نير القوة والوثنية ووضع مكانه نير الكمال الروحي. وهذا النير كسر بعد ذلك نير قيصر لأن قيصر نفسه عاد إلى وضعه على عنقه أي دخل في الديانة المسيحية. وبذلك كان انتصار المسيـح عليه عظيمًا جدًا. وهذا الانتصار يتمم قصائد سلمية لم تسفـك فيها نقطة دم غـير دم التلاميذ الذين كانوا يَدعون الى مذهبهم. فكأن مبادئ المسيح السلمية صنعت وحدها بلا حرب ولا قتل أضعاف ما كانت تريد الأمة اليهودية صنعه بالسلاح ألف مرة. فإن الامة اليهودية لم تكـن تطلب غير طرد الرومانيين مـن فلسطين وأما مبادئ المسيح فإنها جعلـت الرومانيين وعاصمتها رومه سيـدة العالم – خدمة (كما هم اليوم أيضًا) باسم عاصمة المسيحية.

ونحن نؤكد للأستاذ أن المسيح لو اقتصر على دعوة اليهود الى تعليمهم "شؤون معاشهم وشكر الله" كما قال فضيلته وترَكَ المهمة التي أرسلته العناية الإلهية من أجلها لما كان انتصر الانتصار الذي ذكرناه. وإنما كان انتصاره بمبادئ الخطبة على الجبل. بمبادئ التَرْك التي كان العالم يومئذ في حاجة إليها.

ولكن ما الذي يُحوّج العالم يومئذ الى هذه المبادئ؟ ولماذا كانت هذه المبادئ ناقصة في العالم؟ الجواب إن العالم كان قد شاخ بمدنيته وأديانه القديمة. فإن الرذائل والشرور والشهوات كانت في رومه سيدة العالم الوثنية قائمة قاعدة. ولسنا نقول إن الشرور التي تحدث الان في العواصم الأوروبية الكبرى أخف من تلك الشرور ولكن في العواصم الكبرى في هذا الزمان بإزاء الشرور والرذائل حسنات وفضائل ظاهرة كالشمس. فكأن كفتيّ المدنية والهمجية متوازنتان اليوم ولذلك تثبت المدنية. أما الأديان فإنها كانت تزيد شرور هذه المدنية. ذلك أن الأمة الرومانية ارتقت في العلم والأدب والفلسفة والسياسة ارتقاء عظيمًا فصارت بحكم الطبع والضرورة معرِضةً عن دينها الوثني القديم. وقد زاد الكهان في الطين بلة أنهم ضيقوا حلقة الدين على الأمة ووقفوا به عند حدود لا يتعداها. فوقعت الأمة بين نارين: إما كسر نير الدين الوثني القديم لأن النفوس لم تعد تقبله ولا العقول تصدقه وإما البقاء في قيوده. فماذا كان يُنهض هذا العالم القديم؟ وبماذا يجب أن يُدعي لتتجدد حياته. هل يجب أن يُقال له افتح البلاد واستعمرها ونظمها؟ كلا لأن نصف مصائبه كانت من الحروب والفتن والاستعمار الروماني. هل يُقال له اجمع الثروة واكنز المال وكل واشرب وتمتع بخيرات الدنيا؟ كلا لأن كل مصائبه كانت من مبالغته في التمتع بملاذه وشهواته. وإنما كان يجب أن يقال له ما قيل له. يجب أن يقال لأهله إنكم قد جربتم في مدنيَّتكم إطلاق النفس في ميدان الثروة والغنى

والشهوات. فبنيتم الممالك الواسعة. وجمعتم الكنوز. وحشدتم الجنود. وقيدتم العلوم. ورقيتم الفنون. وتمتعتم بكل خيرات الأرض. فهل أدى كل ذلك إلى راحة نفوسكم وسعادتكم. هل أنتم مستريحو الضمير الآن. إذا كنتم مستريحي الضمائر فلماذا هذا الاضطراب والتعب والكلال من الحياة البادي في وجوهكم. هل أصلحتم بذلك شؤون أممكم فاستأصلتم الشقاء والرذيلة منها؟ إذا كان ذلك صحيحًا فما هذه الفظائع الهائلة في هيئتكم الاجتماعية. ألا فاعلموا أن كل هذا لا يجدي نفعًا للإنسان الذي يحب أن يعيش في الخير والصلاح في هذه الحياة. بل مثل الثروة مثل الماء المالح كلما شربت منه ازددت عطشًا. وهي من ما يفسد الأدب والفضيلة لا مما يصلحهما. وإن لبس العباءة وأكلة خبز ناشف مدلول بماءٍ مع راحة ضمير الانسان وهدوء نفسه وتمتعها بالصلاح لأحب من كل هذه الثروة الفانية وفخفختها الباطلة ورذائلها الفظيعة. إذًا فاتركوا الدنيا. اطلبوا الصلاح قبلها. اكتفوا من كل هذه الخزعبلات الدينية والعبادات المادية بعبادة الله بالحق والروح. ولتكن نفوسكم قوية قوة تقدر على احتمال كل مصائب الحياة دون ان تتأثر منها. ذلك لأنك لست من أبناء هذه الارض بل أنتم ضيوف فيها والسماء وطنكم الحقيقي. هذا هو معنى ترك الدنيا في الديانة المسيحية. وبعبارة أخرى نقول انه روح أدبي يقوِّي الانسان ويجعله يتنازل عن حقوقه لأخيه الانسان طلبًا للخير والسلام في الارض.

هذا ما يعلمنا العقل إياه استنادًا الى التاريخ ومن غير دخل في المسائل

الدينية. القارئ يرى في ما تقدم أن المسيح لم يقم ليهدي بني إسرائيل في شؤون معاشهم ولا ليعلمهم شكر الله كما قال الأستاذ. بل قام لأمر آخر لان بني إسرائيل كانوا على هدى في هاتين المسألتين قبل المسيح بقرون وأجيال.

الأحد 16 حزيران (يونية) 1907

نستكمل اليوم بناء الصورة العقلية التي نبني عليها رأينا في أمور العقيدة والإيمان. ومن ثم فبعد تصوير الوسط الذي ظهرت فيه الشريعة المسيحية يجب علينا تصنيف الوسط الذي ظهرت فيه الشريعة الإسلامية. فلننتقل من أورشليم إلى مكة. من عاصمة النور المسيحي الى عاصمة النور الإسلامي.

كيف كانت حاله الأمة الإسلامية قبل ظهور الإسلام.

كانت على خلاف حالة اليهود حين ظهور المسيحية. أي أن العرب كانوا في الطفولية واليهود كانوا في الشيخوخة. ولذلك كان الإسلام بدء قيام أمة عظيمة والمسيحية بدء سقوط أمة عظيمة.

فالعرب كانوا في شبه جزيرة العرب وما حواليها قبائل متفرقة وقد تخللتها الحضارة. ولكن روح البداوة كان غالبًا عليهم. وكانت الممالك حولهم –

كالأحباش والروم والفرس – تضغط عليهم تارة وتهادنهم أخرى فكان ذلك باعثًا على اتجاههم نحو الوحدة لاتفاق مصلحتهم. وكانت أرضهم تكاد تضيق بهم لقحلها وجفافها خلافًا لأراضي الشام الخصيبة التي كانت قريبة منهم وكانوا يزورونها. فصار من الضروري تفكرهم بطلب أرض غير أرضهم. وكانت الدول التي حولهم – الروم والفرس والأحباش – قد صارت إلى الهرِم بإضعافها بعضها بعضًا بالحروب وانقسامها في مسائلها الدينية العقيمة أشد انقسام. فكأن الله أراد أن يتهدد هذه الدول بالفناء والاضمحلال كما اضمحلت رومه الوثنية القديمة لخروجهن عن المبادئ التي تقدم ذكرها ورجوعهن إلى أحوال كأحوالها. فسأل من يكون ذلك السيف المتهدد؟ فأجابه صوت من قفار بلاد العرب: ها أنا ذا.

فانضمت يومئذ القبائل تحت لواء واحد لتدافع عن نفسها وتقوم بالمهمة العظيمة التي اختارتها العناية الإلهية لها. وقد وضعت العناية في مقدمتها شارع الإسلام العظيم. الذي ننحني هنا أمامه باحترام ملءَ الصميم. ذلك اليتيم. المصطفى لهـذا الأمر الجسيم. والذي ضعضع عروش الأكاسرة والقياصرة بسيف وكلمة. فتحتم إذًا أن تكون شريعة هذه الأمة الجديدة شريعة هجومية لا دفاعية. أي ان مبادئ ترك الدنيا لا تجديها هنا نفعًا لأن المقصود فتح الدنيا والاستيلاء عليها لإقامة الحق فيها لا تركها. لذلك وجب يومئذ أن تكون الدنيا مقرونة بالدين والدين بالدنيا. هذه هي صورة الإسلام وصورة المسيحية مصورتان بقلم الإنصاف. أي بقلم من يخلع

رداء الأحزاب ليتكلم بينهن كإنسان لا كواحدٍ منتمٍ الى حزبٍ منهن.

فبعد هذا البيان هل يجوز لفضيلة الأستاذ أن يقول إن مبادئ ترك الدنيا "الموجودة الآن في الإنجيل" تعطّل قوى الإنسان وأنها مخالفة لإرادة الله. ثم ألا يجب التصريح بعد كل ما تفدم أن "مبادئ التَّرك" هذه تؤدي إلى تساهل غريب بين الناس لأنها لا تهتم بشيء مما يُقال ويُصنع في الدنيا أيًّا كان – إذ غرضها ترك الدنيا لا تدبيرها كما تريد بموجب تعاليمها ونظاماتها. هذان سؤالان نترك للقارئ المنصف أن بتأمل فيهما ويجد عنهما جوابًا في نفسه.

الرابع عشر

الإثنين 1 تموز (يوليو) 1907

ولا ننكر أن هنالك اعتراضين عظيمين يجب علينا الجواب عنهما. (الأول): هل مبادئ التَّرك التي كانت تدافع في المسيحية في ذلك الزمان تنفع في هذا الزمان. ولماذا إذًا يقبل المسيحيون هذا الاقبال على الدنيا من كل حدب وصوب لاستعمارها وإخراج خيراتها والتمتع بها. و(الثاني): هل قرن الدين بالدنيا كما كان في الإسلام نافع في هذا الزمان.

وجوابنا عن ذلك إن الشرائع تنزل على البشر لإخراجهم من حالة

قديمة إلى حالة مدنية جديدة. أي لإزالة العثرات التي تكون في سبيلهم. ومتى زالت العثرات من وجه البشر بشرائعهم الجديدة وجب عليهم أن يفسروا هذه الشرائع والشرائع التي يضعونها بعد ذلك تفسيرًا يُقصد به إزالة العثرات التي يجدونها أمامهم أيضًا. أي أنهم يعتبرون الماضي ماضيًّا ويهتمون بإصلاح الحاضر بنظامات وتأويلات توافق الوسط الذي يعيشون فيه كما أن الشرائع القديمة أنزلت عليهم موافقة لوسطهم الذي كانوا فيه. فإذا كان في هذا الزمان من يعترض على مبادئ الترك ومبادئ قرن الدنيا بالدين فاعتراضه يجب أن يكون على الحاضر لا على الماضي.

والحاضر يثبت أن قرن الدين بالدنيا في زمن كهذا الزمن محال والعمل بقواعد الإنجيل محال أيضًا أما من حيث قرن الدين بالدنيا فإن العالم اليوم غير العالم الذي كان في أيام نهضة العرب. فقد كان في ذلك العالم يومئذ دولتان عظيمتان وهما الروم والفرس. وأما اليوم فهذا العالم فيه ما ترى من الدول العظمى. ولقد قال المسيو دي بيلوف مستشار الإمبراطورية الألمانية في خطبة له في الرشستاغ في العام الماضي إنه لا يعرف في التاريخ زمنًا قامت فيه دول كبرى عديدة كهذا الزمن. وهذه الدول الكبرى لم تبقِ القوة في الحرب للعدد والجرأة للاستماتة بل للعِدد والعلم.

فإن الاختراعات الحربية ونظام الحروب الجديد منحتها من القوة ما يجعل النصر دائمًا في جانبها ولو كان عدد عدوها أضعاف عدد جيشها مئة مرة وأجرأ منه مئة مرة. وإن قيل انها قد هرمت فالجواب أن هذا القول غير

صحيح وعلى افتراض صحته في بعضها فإن جميع علماء الاجتماع والعمران مجمعون على أن المستقبل مضمون لهاتين الدولتين الفتاتين وهما: روسيا وامريكا الشمالية والجنوبية. روسيا في الشرق وأمريكا في الغرب. لذا قال نابليون الأول إن المستقبل سيكون إما روسيًّا واما امريكيًّا.. وبناء على ذلك فإن تأسيس مستقبل الإسلام على دعوة دينية كالدعوة الأولى أمر محال لأن الوسط اليوم غير الوسط الماضي. وفي غير هذا التأسيس لا سبب ولا موجب لقرن الدنيا بالدين. لأن الدين يتخذ حينئذ وجهة أخرى. ومعلوم أن الواجهتين متفرقتان.

وأما استحالة العمل بمبادئ الترك في الإنجيل في هذا الزمان فليست أقل ظهورًا ووضوحًا. فمن هو المسيحي الذي يُضرب اليوم على خدٍ فيحوِّل الخد الآخر. من هو المسيحي الذي لا يهتم بثروة الدنيا واباطيلها ويفضلها على كل ثروة. أترى ذلك في العوام الذين يملؤون الكنائس وهم لا يعرفون من الدين غير ظاهره أي تقبيل الصور وسماع صلاة الكاهن؟ أم في الخواص الذين يقولون قبل كل شيء: ذهب فضة تجارة ثروة؟ أم في الرؤساء الذين لا هم لهم إلا ما تعرف من همومهم؟ فترك مبادئ الإنجيل أمر فاشٍ الآن في كل الأمم المسيحية.

ذلك لأنهم عادوا الى عبادة عجل الذهب وهم معذورون في ذلك لأن مبادئ إنجيلهم تضعهم بكل صراحة بين أمرين: فإما ترك زخارف المدنية وفضولها وبهارجها وفخفختها للتمسك بحرف كتابهم. وإما ترك

هذا الحرف للتمسك بالدنيا. ولذلك لجأ عقلاؤهم الى تأويل ذلك الحرف والرضا بالخروج من الأصل. فقالوا إن مبادئ الترك كانت ضرورية في الوسط الماضي وأما اليوم فقد تغير وسطنا. والإنسان في شبابه وكهولته لا يتغذى من نفس الغذاء الذي كان يتغذى به في طفوليته. وما عدا هذا فباب ترك الدنيا مفتوح في الأديرة والصوامع لكل من يميل إلى هذا الترك ويريد ان يعمل بصورة الكمال المرسومة بالإنجيل حرفًا ومعنى. – فكأن إله الذهب والثروة قد تغلب مرة ثانية في الأرض على إله الإنجيل ولذلك صارت العواصم المسيحية شبيهة برومه الوثنية القديمة.

هذا كل ما يقال في ترك الدنيا في المسيحية ومنه يظهر أن المسيحيين جاروا العصر ورضوا بترك شيءٍ من الأصل جريًا مع سنة المدنية لئلا تجرفهم. وأما اخوانهم المسلمون فإنهم لا يزالون الى الآن يترددون في هذا الترك وهم واقفون وقفة الحائر بين طريقين تؤديان إلى المستقبل – ذلك المستقبل الأبدي الذي تشير اليه الأمم كأنها الأنهار الكبرى تنصب في "الأوقيانوس العظيم". رغم إن الإسلام نفسه يحث على هذا الترك أيضًا ويسميه زهدًا.

ويظهر من كل ذلك أن ترك الدنيا في المسيحية مؤدٍ الى التساهل على خط مستقيم سواء كان الرجل يعمل بحرف كتابه وهو الترك بتاتًا (وهذا هو التسامح بعينه) أو يري تغير وَسَط المسيحية فيرضى بترك الحرف

والتمسك بالروح وهو عين التساهل ايضًا. وبذلك تبطل حجة الأستاذ في قوله إن ترك الدنيا مؤدٍ الى التعصب.

الأربعاء 24 تموز (يوليو) 1907

بقي الأمر الثالث وهو سلطة الرؤساء – وهذا الأمر لا نطيل الكلام فيه بل إن كلمة واحدة تكفي. وهي أن الكنيسة أفرطت في استعمال سلطة رؤسائها كما أن الإسلام قد فرّط في هذا الاستعمال. وعندنا أن كل واحد من الفريقين طرف. فالإكليروس المسيحي (ولا سيما المتعصب منه) يتمسك بهذه الكلمة وهي "ما حللتموه على الأرض يكون محلولًا في السماء" ومن جهة أخرى يقول العربي لخليفته "لو رأيت فيك اعوجاجًا لقومناك بسيوف" كما قال أحدهم لأحد الخلفاء وهو يخطب. وإذا كان القول الأول يجعل سلطة الرئيس مطلقة فالقول الثاني يجعل السلطة فوضى. ومعلوم أن الدول في بداية أمرها تستغني عن النظام المطلق لأنها تكون في دور البداوة ولكنها متى ارتقت شؤونها وكثر اشتباك مصالحها فإن النظام يكون أمسّ حاجاتها. والنظام لا يكون شيئًا بدون سلطة قوية تنفِّذه. والسلطة يجب أن تكون واثقة بقوتها لتستطيع إنقاذ النظام في القويّ والضعيف. فإذا كان لكل إنسان الحق في أن يقول لصاحب الرئاسة "متى رأيت اعوجاجك قومته بسيفي" كانت السلطة العليا ضعيفة متوقفة على حكم واحد من الناس

يستشير عليها العامة متى شاء بحق او بغير حق. وقد ظهر هذا الأمر كل الظهور في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه كما ذكرنا ولذلك كان هَمُّ منظّمي الممالك والدول تقوية السلطة قبل كل شيء سواء كانت هذه السلطة في يد ملك او رئيس روحي او برلمان. وعدم قوة السلطة في العرب سبب من أعظم أسباب فتنهم واضطرابهم. أما رأيت الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف كبح جماح العرب بشدته وسلطته ولكنها كانت سلطة شخصية أي آتية من شخصه وأخلاقه. ولذلك قال الخليفة عثمان بن عفان للعرب قبل مقتله انكم خضعتم لعمر لأنه وطئكم وأما أنا فتقومون عليَّ لأني لنتُ لكم. وهي كلمة تدل على حقيقة حالة السلطة في العرب في ذلك الزمان.

اما ما ذكره الأستاذ من أن نفس المسيحي مشدودة بشفتي رئيسه فهذا قول يبتسم له جميع المسيحيين وجميع الرؤساء خصوصًا في هذا الزمن الذي صار فيه الرئيس المسيحي مرؤوسًا ومرؤوسه رئيسًا أي بعد تشعّب المذاهب المسيحية وتزاحمها على اكتساب بعضها من بعض.

أما عن قول الأستاذ عن نتائج هذه الطبيعة كما قال إن تلك الأصول أدت الى التعصب في المسيحية ومقاومة العلم والجمعيات العلمية والكتب وقتل العلماء بواسطة محكمة ديوان التفتيش.

فنجيب على ذلك كله جوابًا واحدًا.

إن أنصار الفلسفة والعلم يوافقون على تنديد الأستاذ بديوان التفتيش ورؤساء الكنيسة الذين قاوموا العلم في أوروبا وإسبانيا وأفتوا بقتل العلماء. ولكننا نؤكد للأستاذ أنه لو كان فضيلته يومئذ في أوروبا لاضطر أن يكون من حزب رجال الدين لا من حزب أنصار العلم. ذلك لأن رجال الدين المسيحي كانوا يقاومون يومئذ أشد أعداء الأديان نُعنى العلم الطبيعي. ولو راجع القارئ تاريخ الفلسفة الرشدية في أوروبا لرأى أن ديوان التفتيش كان يحارب الأمور التالية: إن العالم وُجد منذ الأزل. إنه لم يوجد قط إنسان أول يُدعى آدم. إن نفس الإنسان هي صورة لا جوهر ولذلك تفنى مع الجسد. وبذلك تبطل الآخرة. إن الله لا يعلم الجزئيات التي تحدث في العالم والعناية الإلهية لا دخل لها فيه. إن الله خلق الكون قابل للفساد ولذلك لا يقدر أن يجعل الانسان خالدًا. ويجد أن أدباء ذلك الزمان صاروا يحتقرون كل الاديان وأن إيطاليا كلها ولعت بالاعتقاد بفناء نفس الانسان وعدم الخلود ولذلك انعقد مجمع لاتران لإيقافها عن النزول في هذا الأحدور الهائل. فممَّا مر يتضح غرض الكنيسة يومئذ من مقاومة العلم. ولذلك قلنا ان الاستاذ لو كان عائشًا في ذلك الزمان لكان من حزبها مدافعًا معها ضد العلم الطبيعي عن حدوث العالم وخلود النفس والثواب وقدرة الله على كل شيء والوحي المسيحي الذي كان اولئك المشتغلون بالعلم يعتبرونه من الخرافات. ولذلك فإذا جاز لمجلة كالجامعة أن تستهجن تلك الأفعال الفظيعة التي قام بها الاكليروس المسيحي من قتل الناس من أجل اعتقادهم

ولو أنكروا كل شيء فإن ذلك في رأينا لا يجوز لرجال الدين سواء كانوا مسلمين او مسيحيين. لان ما ذكرنا في غير هذا الموضع أن الفريقين متضامنان مشتركان في كل هذه المسائل.

السبت 10 آب (أغسطس) 1907

ولكن يلوح لنا أن فضيلة الأستاذ لم يكن يلتفت كثيرًا إلى تاريخ فلسفة ابن رشد في أوروبا ليعلم أسباب ذلك الاضطهاد. فقد ظهر إذًا أن الكنيسة الغربية كانت تحارب بديوان التفتيش ومراقبة الجرائد والكتب من يسميه المسلمون "زنادقة" رغبة في حفظ الوحدة الوطنية الدينية والقومية كما تقدم. ومن المعلوم أن المحاربين يجوِّزون في الحرب كل الآلات والأسلحة. وقت فعل الإسلام "بالزنادقة" أي بالذين يجحدون الأديان مثلما فعلت النصرانية فيهم. ومن الأسف العظيم عند الحكيم أن تكون الديانتان اللتان لم تقتلهما الأديان التي كانت قبلهما بحجة أنهما بدعتان جديدتان قد صنعتا ببني الإنسان الذين لا يؤمنون بهما ما لم تصنعه بهما الأديان التي تقدمتهما والتي تعتبران أنهما أحط منهما.

وهنا لا يسعني إلا أن أذكر ما قاله الأستاذ من أن حروب القرامطة كانت حروبًا سياسية. والحال أن القرامطة زنادقة حلل قتلهم في الإسلام

كما حلل الاكليروس المسيحي قتل زنادقتهم. وقد روى المؤرخ أبو الفداء الحموي في الجزء الثاني من تاريخه (الصفحة 58) أمر هؤلاء القرامطة فقال انه يتبعون شيخهم وهو رجل يُدعى احمد ابن محمد ابن الحنفية نشأ في سواد الكوفة وكان يدَّعي "انه داعية المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدي وهو أحمد ابن محمد ابن الحنفية وهو جبريل وأن المسيح تصور في جسم انسان وقال له إنك داعية وإنك يحيى وإنك روح القدس. وقد جعل قبلته بيت المقدس (أورشليم) والصلاة أربع ركعات – ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل غروبها. ومؤذنه يؤذن هكذا "الله أكبر ثلاث مرات وأن لا إله الا الله مرتين ثم اشهد ان آدم رسول الله وأن محمد رسول الله وأن إبراهيم رسول الله وأن عيسى رسول الله وأن محمد رسول الله وأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله" وقد نقل يوم الجمعة الى يوم الاثنين لا يعمل فيها شيئا وحرم النبيذ وحلل الخمر ولا غسل من جنابة لكن الوضوء وضوء الصلاة" انتهى ملخصًا عن أبي الفداء.

ولقد التف حول هذا الشيخ كثيرون من "سواد الكوفة والبادية الذين لا عقل لهم ولا دين" كما قال أبو الفداء وكثر حزبه حتى صاروا يغزون المدن والبلاد. وقد استفحل أمره فغزوا مكة المكرمة في سنة 317 للهجرة وقتلوا الناس في المسجد الحرام وداخل الكعبة وارتكبوا فيهما فظائع نضرب صفحًا عن ذكرها (رواه أبو الفداء). وفي سنة 360 فتحوا دمشق الشام واستولوا عليها في زمن المعز لدين الله (رواه أبو الفداء). ثم ساروا

إلى مصر ونزلوا في عين شمس قرب القاهرة فردهم المغاربة عنها فعادوا إلى الشام (رواه ابو الفداء). وقد ألف منهم كثيرون عدة مؤلفات منهم أحمد بن يحيى ابن اسحاق المعروف بالراوندي الذي له عدة مصنفات في مناقضة الشريعة والقرآن الكريم منها قضيب الذهب. وكتاب اللامع. وكتاب الفرند. وكتاب الزمردة. وقد طعن في هذه الكتب على عصمة القرآن الكريم والدين الإسلامي طعنًا فاحشًا. اما ابن الاثير فانه يقول انهم صاروا بعد ذلك يُدعون "الإسماعيلية أو الباطنية" وأنهم انتشروا في بلاد الفرس وملكوا فيها حصونًا وقلاعًا كثيرة ذكرها ذلك المؤرخ بالتفصيل في الجزء 10 الصفحة 109 – وفي الصفحة 151 من هذا الجزء وما قبلها ذكر ابن الأثير ما كان من مطاردتهم لاستئصالهم وإفنائهم. ولما اشتد الحصار على بعضهم في قلعة قرب اصبهان كتبوا هذه الفتوى "ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وإنما يخالفون في الإمام هل يجوز للسلطان أن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى" فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم عن الإجازة. وقال أبو الحسن علي بن الرحمن السمنجاني "يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم ويجب ان يُقال لهم "أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع أتقبلون أمره؟ فإنهم يقولون نعم. وحينئذ تُباح دماؤهم بالإجماع" وبعد ذلك طال الجدال بين الفريقين وانتهى الأمر بإفنائهم عن آخرهم.

فهذا مذهب زنديقي بأسره استُئصل أهله استئصالاً كما كان الكاثوليك يرومون استئصال البروتستانت في مذبحة سان بارتلماي وكما أراد ديوان التفتيش استئصال الزنادقة في النصرانية وكان كلام فضائح حتى تجد في أمة أخرى مثلها. وما عدا ذلك فإن مذبحة بارتلماي شبيهة بمذبحة الشيعة في إفريقيا التي حدثت سنة 407 للهجرة ورواها ابن الاثير في الجزء التاسع الصفحة 102 إذ قال "في هذه السنة قتل من الشيعة خلق كثير وأُحرقوا بالنار ونُهبت ديارهم وقُتلوا في جميع افريقيا. واجتمع جماعة منهم أمام قصر المنصور قرب القيروان فحصرهم العامة وضيقوا عليهم حتى اشتد عليهم الجوع فصاروا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قُتلوا عن آخرهم.

ونحن لا ننكر ان الإسلام المنزَّه عن كل شائبة أرفع من أن يُحمل تبعة هذه الحوادث كلها. ولكن لماذا حمَّل الأستاذ المسيحية كلها تبعة الفظائع التي صنعها بعض من رجالها وعمالها البسطاء والجهلاء في الغرب. نحن الآن في الشرق لا في الغرب. والأستاذ أعزه الله كتب للمسلمين والمسيحيين الشرقيين والغربيين. والشرقيون المسيحيون لا علاقة لهم بالغرب إلا كما لإخوانه من المسلمين علاقة به. أي أن الغرب صوامع عظيمة لبضائعهم وحوائجهم جميعًا. والشرق هو المصدر الحقيقي للديانة المسيحية ومسيحيوه لا يزالون إلى اليوم أقرب الى المسيحيين القدماء من كل مسيحيي الأرض وذلك بشهادة جميع المستشرقين.

الجمعة 16 آب (أغسطس) 1907

وبما اننا قد أطلنا هذا الرد كثيرًا فقد وجب علينا الآن أن نختمه لننتقل إلى سواه. ولا ريب أن من قرأ رد الاستاذ وجواب الجامعة هذا يقف على حقيقة طبيعة الدين المسيحي فلا يرميه بما رماه به الأستاذ رحمه الله. بل يقول مع كل منصف إن رؤساء الدين في كل دين إذا كانوا قد أخطأوا في تفسير دينهم أو اتخذوه آلات لأغراضهم السياسية فتبعة ذلك واقعة عليهم لا على الدين نفسه. وهذا ما قاله كاتب مسلم لخصَت كلامه في هذا الشهر رصيفتنا جريدة المناظر الغراء عن مجلة باريزية. فإن هذا الكاتب حمل على أوروبا المسيحية حملة شديدة لإتيانها المنكرات في الشرق ولكنه نسب كل ذلك الى "سلطة الكنيسة الإلهية" لا إلى طبيعة الدين المسيحي نفسه كما فعل الأستاذ. وبذلك كان بينهما فرق عظيم كالفرق بين رجل يثني على روح المسيحية ويذم رجالها وعمالها ورجل يذم المسيحية ورجالها معًا.

أعتقد أني استوفيت هذا الرد أكثر مما يستحق. ولكنني اهتممت كثيرًا كما تعرفين يا روز حين قرأت رد الأستاذ على مقالي بالجامعة قبل عام أو أكثر قليلًا.

على كل الأحوال فلقد استنزف ذلك الكثير من وقتي وعافيتي وأرجو

ألا يؤدي ذلك الأمر إلى اعتلال جسدي مجددًا لأنني فعلًا اشتقت للرحيل مجددًا إلى الإسكندرية التي افتقدت ناسها وأهلي بها.

السبت 31 آب (أغسطس) 1907

طالعتنا جريدة نيويورك تايمز في صفحتها الأولى اليوم بنبأ خطير على ما أظن – إذ أعلنت الإمبراطورية الروسية والجمهورية الفرنسية الثالثة والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلاندة توقيع اتفاقية تعاون في مقابل التحالف الثلاثي بين ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا.

تلك المناهزة غير المسبوقة باتت تقلقني.

والآن ننتظر بالطبع ردة فعل الولايات المتحدة الأمريكية التي لا أظن أنها ستقف موقف المشاهد في خضم هذه المجابهة السياسية. إلى أي جانب ستنحاز وكيف سيؤثر ذلك في ميزان القوى.

كل هذا يدور بينما نحن منشغلون في شأن ما إذا كانت النصرانية ديانة باطلة أم لا وإن الإسلام أولى منها بالرفعة والنصرة.

وسرحت في كلمات جبران التي رنت في أذنيَّ:

"ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين."

إنه لأمر يدعو إلى الرثاء حقًا.

الخامس عشر

الأحد 6 تشرين أول (أكتوبر) 1907

رياح الخريف الباردة تحيل اخضرار الأشجار النضر إلى احمرار ثم اصفرار يابس ومن بعدها تموت الأوراق وتتساقط لتصنع بساطًا مزخرفًا حقًا ولكنه موحٍ بالشجن والحزن ومنذر برحيل الحياة وموتها.

وهكذا حل الخريف بجسدي من بعد طول العناء الذي تكبدته خلال فصليّ الربيع والصيف الماضيين أرد فيهما على مقال الأستاذ الذي أنهكني. عاودني السعال مجددًا ومعه حضر الهزال والوهن اللذان تملكا مني وارتفعت

حرارة جسمي وبت أتصبب عرقًا غزيرًا فهرعت – بصحبة إلياس بالطبع لزيارة البروفيسور ويليامز.

كعادته فحصني بدقة ثم أوصى بذهابي إلى مصحة دكتور ترودو للمرة الثالثة.

شكوت من برودة الجو فتولَّى إلياس ترجمة شكواي – إذ كنت بعدي أخجل من التخاطب بالإنجليزية رغم ساعات التحصيل التي أنجزتها في كنف جريدة نيويورك تايمز والتي أضافت إلى حصيلتي مئات بل آلاف الكلمات الإنجليزية.

أجابني الطبيب وهو يحُّك ذقنه بين إبهامه وسبابته:

– معك كل الحق يا بنيّ. لكنني سمعت عن مصحة للاستشفاء من مرضك اللعين هذا تقع في ولاية ميريلاند وهي تقع نحو مئتيّ ميل في الجنوب الغربي منا. لقد أرسلوا لنا كتيّبًا دعائيًّا يعلمنا بافتتاح المصحة قبل بضعة أشهر. دعني أبحث عنه هنا بين تل الأوراق هذه – فقد يكون الجو هناك أقل برودة أو على الأقل أكثر احتمالاً منه في مدينة "بافالو" حيث مصحة ترودو. ها هو ذا. لقد افتتح هذا العام في بلدة "سابيلاسفيل" بمقاطعة فريدريك...

وكان يقرأ في الكتيّب بين يديه. بينما صرت أتأمل ردة فعل إلياس وهو ينظر نحوي مشفقًا.

وفي غضون أسابيع قلائل كنت أستقل القطار وهو يمرق بين وديان وتلال بارعة الجمال في الطريق إلى ولاية ميريلاند الجنوبية ناشدًا الاستشفاء من جديد.

الخميس 7 تشرين ثان (نوفمبر) 1907

المصحة كانت عبارة عن مبنى بديع مشيد من الحجر بارتفاع طابقين وكان محاطًا بمساحة شاسعة من المروج المنسابة. المناخ هنا بالفعل أكثر دفئًا وإن كانت البرودة الخريفية المنعشة ما تزال طابعه الأساسي. افتقدتُ الطبيعة الخلابة التي كانت تحيط بمصحة دكتور ترودو إنما حلت محلها هنا مساحات خضراء متماوجة وأشجار الصنوبر الشاهقة تحيط بأطراف المكان. الملاحظة الثانية صارت في كبر عُمر المرضى هنا مقارنة بشمال نيويورك لسبب لم أفقهه – فلقد عددت نفسي أصغر الموجودين تقريبًا. الأمر الثاني الذي لاحظته كذلك بات في سماحة ودفء الناس هنا من المرضى والممرضات على السواء مقايسة بهم هنالك.

الثلاثاء 19 تشرين ثان (نوفمبر) 1907

خلال بضعة أيام من علاج الحرارة المرتفعة والتغذية الجيدة والهواء النقي بدأ جسمي يتحسن واستجاب لمداواة المصحة الجديدة. صرت أنظر حولي أتأمل وأبحث بين الموجودين عن صداقة جديدة لربما تعينني على انقضاء الوقت البطيء. كأنني ظللت أبحث عن ميشلين جديدة لكن

سرعان ما طردت عني تلك الفكرة التي كانت قد أصابتني بالبكم لأشهر طويلة في النوبة الماضية.

يشاء القدر ما إن توقفت عن البحث فإذا بيد تربت على كتفي ذات صباح وأنا جالس بمقعد خشبي مطل على الحديقة أعبث في أوراقي – تلفتُّ إلى اليد وإذا بصاحبتها شقراء تطل نحوي بعينيها الزرقاوين الواسعتين وهي تلوّح بأصابعها بمقياس الحرارة ففهمت أنها ممرضة جديدة رامت السماء أن تبدأ فتشتغل هنا – إذ لم أكن قد أبصرتها من قبل.

على الفور قدمَت نفسها باسم "ميري آن" وتبسمت شفتاها الورديتان فكشفتا عن سن بيض بلورية وهي تضع القياس الزجاجي أسفل لساني. وسرعان ما سألتني:

– من أين أنت؟

ثم انفجرت ضاحكة حينما أدركت عجزي عن إجابتها لسبب مقياس الحرارة الذي أحكمته شفتاي المضمومتان. وانثنى جزعها إلى الخلف وهي ترفع يدها البيضاء الصغيرة بسرعة لتغطي فمها البشوش خجِلة من سذاجتها.

تبدت لي منها أنوثة طاغية. أنوثة فطرية بريئة. تطرَّق دفءٌ لذيذ نحو قلبي فاستقبلته مبتسمًا.

انطلقت بعد أن نزعَت مقياس الحرارة من فمي أتحدث إلى ميري آن

باللغة الإنجليزية – لأول مرة في حياتي فشرحت لها قصة مجيئي من الشام إلى مصر ثم سفري إلى نيويورك للعلاج من الدرن. حدثتها عن طرابلس والإسكندرية. وكلمتها عن البحر وأمواجه. ثم كلمتها عن رحلتيَّ مع مصحة دكتور ترودو. بل وحادثتها حتى عن ميشلين وعن الكتابة والشعر والأدب.

صارت تنظر نحوي باهتمام خاو وأنا أتكلم فأدركت أنها لم تكن تدرك أي شيء مما كنت أتحدث عنه – بل ولم تع حتى أسماء الأماكن التي زرتها ليس فقط في المشرق بل وحتى في شمال نيويورك فلم تسمع بمدينة بافالو من قبل. صرَّحت خجِلة عن كونها لم تبرح ولاية ميريلاند أبدًا. وإن كانت فطنت لمهنة الكتابة في الصحف وكتابة الشعر التي تلمذته خلال سنيّ دراستها.

ومع ذلك أضفت تلك البراءة البدائية إليها حميمية – ذكرتني بأهلي هناك في الضيعة بشمال لبنان. ومع ذلك فهي على بساطتها خرجت من كنف أبويها وسعت للعمل والتكسب ولم تبق بالبيت منتظرة زوجًا يحملها إلى بيته لتنجب له الأولاد وترعاهم فحسب كما تفعل النساء في بلادنا.

الأربعاء 27 تشرين ثان (نوفمبر) 1907

تسلل الصقيع إلينا بحذر فكدنا لا نتبين وصوله. لم أدر ما إذا كانت درجات الحرارة هنا أكثر دفئًا عنها بولاية نيويورك أم أن علاقتي الوليدة

بميري آن أضفت حميمية خاصة إليّ حرمت برودة الجو من التسرب إلى جسدي. صرَّحت هي إليّ بكونها منبهرة بي لأنني – على حد قولها "أول مثقف تلتقي به في حياتها". أما من ناحيتي فلقد سررت بمصادقتها فصرت وكأنني عدت إلى المدرسة الأهلية للروم الأرثوذوكس في طرابلس وصرت معلمًا مرة ثانية. بت ألقنها دروس التاريخ والجغرافيا وأشرح لها عن حماستي في الارتقاء ببني جبلتي حتى أقيهم شر الوقوع نهبًا للاستعمار وضحية للمستعمرين وخاصة إنجلترا وفرنسا. أما هي فأضحت تتحين كل فرصة لكي تجالسني بين رعايتها للمرضى في المصحة فتسألني ثم تستمع في سكون مستمعة وكأنها مسحورة من حكاياتي.

الثلاثاء 24 كانون أول (ديسمبر) 1907

قابلني الطبيب المعالج هذا الصباح وأطلعني ببشاشة بأن حالتي تحسّنت إلى درجة إمكاني مغادرة المصحة اليوم حتى أستطيع اللحاق بعطلة عيد الميلاد (الكريسماس) وقضائها مع عائلتي. لم أكن مدركًا لمرور الزمن بي بهذه السرعة حتى كاد موسم الأعياد أن يداهمنا هكذا – وفي الواقع لم أكن أريد أن أترك ميري آن بمثل هذه العجلة ناهيك عن عدم اتخاذي لأي من الترتيبات اللازمة نحو السفر إلى نيويورك لقضاء العطلة مع إلياس. أما الطبيب فتحيَّر من مطالعة التردد المطل فوق سحنتي لَمَّا كانت بشرى التعافي والخروج من المصحة نعمة يترقبها الكل هنا بشغف – إذ بات من المتوقع

أن يفشل العلاج في التعلق بأهداب الحياة فيسقط الكثيرون صرعى في ساحة حربهم مع جرثومة ذاك الدرن اللعين. بل إن معجزة تعافيَّ للمرة الثالثة من بعد تدهور حالتي الصحية تدعو في العادة إلى الابتهال شكرًا للسماء عند غالب المرضى ذوي الحالات المماثلة.

لم ينقذني من موقف الارتباك ذلك سوى مجيء ميري آن إليّ وقد صارت بعدها متلهفة حين ما سمعت بنبأ خروجي من المصحة.

طالعتها بشأن أفكاري فابتهجت لمشاركتها ذات الرغبة في البقاء هاهنا وعدم المبارحة إلى نيويورك.

بل وطرحت فكرة أذهلتني – فلقد دعتني أن أحضر إلى بيت عائلتها بعد خروجي من المصحة وقضاء العطلة معهم.

تساءلتُ على الفور عما لو كان أبويها سيتقبلان هذه الفكرة من دون غضاضة. فأجابتني بأنها متأكدة من قبولهم إياي بينهم لأن تلك كانت رسالة ميلاد السيد المسيح وسبب تواجده على الأرض بيننا. أضافت موضحة أن ميلاد المسيح جمَّع المجوس وهم من أقصى بلاد آسيا وأفريقيا مع رعاة الغنم الفلسطينيين بل وحتى الحاكم والجند الرومانيين مع اليهود المحليين. تعجبت من ثقافتها التاريخية في قراءتها للمشهد ولم أعلِّق. وقالت كذلك إنها طال ما حدثتهم عني حتى صاروا شغوفين إلى لقائي – ثم أضافت في آخر الأمر أنها في حال رفضهم بقائي فإنها ستترك بيتهم وتمضي إلى أي فندق قريب لكي يتسنى لها أن تبقى معي أينما أكون.

وبالفعل ذهبت معها فلاقاني أبواها بدهشة أولاً ثم ما لبثت أن انقلَبت إلى ترحيب دافئ وتناولنا عشاء ليلة العيد سويًّا وعرفت منها أن الطعام الذي أعدته والدتها من بطاطا مهروسة وديك رومي محمَّر بالفرن وصلصة الكريز كان تقليدًا عريقًا نشأت وترعرعت عليه منذ نعومة أظافرها. شاركنا أبوها بكؤوس النبيذ الأحمر. عرفت أن أباها مزارع يملك أرضًا ومواشي وأمها تصنع زبدًا وجبنًا بالبيت وتجمع بيض الدجاج وتبيعها للجيران. وبعد العشاء اجتمعنا حول مدفئة الحطب وسحب الأب قيثارة وبدأ يعزف أهازيج شعبية شاركته زوجه وابنته في التغني بها.

وبعد انقضاء السهرة تقدمت الأم نحوي وهي تحمل منشفة مطوية بين يديها وهي تدعوني نحو غرفة للضيوف تقع في آخر دهليز بالمنزل لأبيت بها.

تملك مني شعور بالبهجة وأنا أتعجب من انفتاح هذه العائلة الريفية البسيطة وتقبلهم بود صديق لابنتهم دعته هي لقضاء أمسية بينهم فزادوا بأن سمحوا له بقضاء الليل بمسكنهم الدافئ. بل ومنحوني غرفة مستقلة وفراشًا وثيرًا لم يقدر إلياس ابن عمي أن يوفني بمثله.

نمت كما لم أنم مذ تركت الإسكندرية.

في الصباح استيقظت على صوت المواشي الآتي من الحظيرة المجاورة للمنزل - كما علمت فيما بعد - حيث اصطحبتني ميري آن إليها لنأتي

باللبن الطازج المحلوب من ضرع البقرة مباشرة الأمر الذي لم أختبره طول حياتي إلى اليوم.

بعد انتهائنا من تناول الفطور الشهيّ اصطحبتني ميري آن بعربة يجرها جوادان غليظا الحوافر قويًّا الرماحة إلى محطة القطار لكي أعود إلى نيويورك. مكثنا صامتَين بطول الطريق ولكنني لا أنكر أني قد بت متعلقًا بها على نحو لم أتوقعه. أما هي فلقد لمحت دمعة تفر من عينيها الزرقاوين وإن لم تنبس بكلمة واحدة. حينما وصلنا ترجلتُ حاملًا حقيبتي وفعلت هي نفس الشيء عند الجانب المقابل للعربة ثم دارت حولها وتقدمت نحوي. مددت يدي إليها لأشكرها من أجل كل ما قدمته إليَّ من صنيع لن أنساه ومن دفء وضيافة لم أعرف لها مثيلاً. أما هي فتجاهلت يدي الممدودة بل واندفعت نحوي واحتضنتني بقوة وانطلقت إلى نحيب أدار رؤوس المسافرين والعاملين بالمحطة. وجدتني أربت فوق ظهرها في ذهول وخجل جم من هذا الموقف المفاجئ الذي باغتني فقلت بإنجليزية متكسرة الأوصال:

– لا عليك يا ميري آن فأنا واثق من أن صداقتنا هذه سوف تدوم للأبد. علينا أن نستمر في التواصل عبر الخطابات إلى أن أراكِ قريبًا بأكثر مما تتوقعين – فنيويورك لا تبعد أكثر من بضع ساعات. وأنا أدعوك لزيارتنا هناك في أي وقت تشائين – وأنا واثق بأن ابن عمي إلياس سوف يرحب بمجيئك تمامًا كما رحب بي أبواك. أرجو أن تزيديهم شكرًا من أجل كل ما قدموه من أجلي من دفء وحفاوة.

أما هي فطبعت على خدي قبلة ودارت وهي تجفف دموعها بظهر يدها.

الأربعاء 15 كانون ثان (يناير) 1908

تلقيت اليوم أول خطاب من ميري آن تبث إليَّ عبره بأرق المشاعر وأحرّ العواطف – بل وصرَّحت لي بحبها وعدم قدرتها على انتزاع صورتي من مخيلتها. أوضحت أنها لن تتمكن من العيش من دوني. ثم سألتني أن أصرح لها بطبيعة مشاعري تجاهها. كانت تلك هي المرة الأولى التي أتلقي مثل تلك المشاعر من امرأة فارتبكت واحمرّ خداي كفتاة عذراء استمعت لأول مرة إلى كلمات الغزل تُوجه إليها – وحمدت الله أني كنت بمفردي وأنا أقرأ الخطاب.

أنا لا أنكر أنني ملت إليها بل وشعرت بحميمية ودفء واشتياق للقياها كل أيامي بالمصحة حتى بتُّ أكتئب يوم إجازتها. لكنني لم أشعر بالحب الحقيقي نحوها. على الأقل لم أحس بذات المشاعر التي بثتها إليَّ عبر خطابها هذا. بل وأستطيع أن أجزم أنني لم أشعر بمثل تلك الخوالج تقتحمني أبدًا لا تجاهها ولا حيال أية امرأة أخرى. أحسست بمزيج غريب من العواطف تشتملني. فمن ناحية استشعرت شوقًا ورغبة في أن أراها وأحادثها بل وإلى أن أتلاقاها في حضني مجددًا. ومن ناحية أخرى

أوجست من قوة احساساتها تجاهي التي أنمت عن نقص نضج وطفولية مشاعر لا أقدر على تحمل تبعاتها في الوقت الحالي. فأنا شخص ذو رسالة في الحياة لا بد لي من إنجازها مهما تكبدت من معضلات. كما أنني رجل مريض بداء عضال يتمكن مني في أحيان كثيرة فلا أقدر حتى على رعاية نفسي فما بالك الاعتناء بامرأة. حبيبة كانت أو زوجة. لا. أنا لا أستطيع تلبية رغبتها مطلقًا.

ومع ذلك فلم أجرؤ أن أترجم تلك المشاعر المتخبطة في شكل كلمات أرد خلالها إلى خطابها الملتهب الأحاسيس.

تعجبت كيف بات الأمر أيسر عليَّ مكاتبة الأستاذ ومحاورته – على صعوبة الأمور التي تداولناها وحساسيتها – عن الرد على خطاب ميري آن.

ربما عليَّ أن أنتظر بضعة أيام لعلها تهدأ مشاعري وتترتب أفكاري فأقدر على الإجابة على رسالتها والإجابة على أسئلتها المعلّقة.

الجمعة 31 كانون ثان (يناير) 1908

قررت أخيرًا الرد على ميري آن.

كتبت إليها أدعوها لزيارة نيويورك بعد أن يمضي ذلك الشتاء اللعين ببرودته وثلوجه ويحل الربيع بدفئه وزهوره وأريجته. قلت إن ذاك سيعد اختبارًا حقيقيًّا لحقيقة مشاعرنا الواحد منَّا حيال الآخر.

وبعثت بالرسالة.

الغريب هو أنني لم أشعر بالراحة المتوقعة من بعد أن زال عني ذلك العبء النفسي الذي تحملته لأيام وليال طوال.

الإثنين 6 نيسان (أبريل) 1908

تلقيت بالفعل رسالة تفيد بمجيء ميري آن خلال أسبوعين لزيارتنا بمدينة نيويورك.

لست أنكر أن لغة الخطاب صارت أكثر اعتدالًا عن رسالتها الأولى. فلقد خلت من تلكم العواطف المتأججة التي حفل بها جوابها الأول بل وعبَّرت خلالها عن ثمة نضج مشاعر أراحني.

فاتحت إلياس بشأنها لأول مرة. بل وبحت له بمشاعري المتخبطة تجاهها. واندهشت من حسن استقباله لكلامي وترحيبه بقدومها واستضافتها. قال لي إن تلك العلاقات العاطفية غالبًا ما تنطفئ سعرتها باللقاء المباشر بين الطرفين بعد أن تتأجج مشاعرهما بالوهم الذي يضفيه إليها طول الغياب وأوهام التحرُّق والشوق لسبب الانقطاع. بل وراهن كذلك معلنًا: سوف ترى. تعجبت من حصيلة تجاربه واختباره للعلاقات النسائية وكنت أعتقده مثلما كنت عليه من سذاجة وقلة حيلة. وقلت في نفسي ستثبت الأيام صحة حدسه من عدمها.

السبت 2 مايو (أيار) 1908

بالفعل جاءت ميري آن إلى نيويورك. وبالطبع كانت تلك زيارتها الأولى إلى هذه المدينة الصاخبة. ذهبنا للقياها بمحطة القطار – وأصر إلياس على اصطحابي. شرح لي أن هذا سيكون بمثابة حاجز بيني وبينها وكأنه مصدٌّ يحول بيني وبين تدفق مشاعرها المرتقب.

لكنني لم أتوقع أبدًا أن يشرع إلياس إلى مغازلتها منذ الوهلة الأولى التي وقعت عليها عيناه.

وسرعان ما انقلب شعوري بالاطمئنان من مجيئه بصحبتي إلى إحساس بالغضب يتملك مني – حتى أنني شعرت بنوع من الغيرة وخاصة حين وجدت من ميري آن استجابة لعبارات المديح والاطراء التي سكبها إلياس عليها فأسكرها بها.

أصر إلياس على أن تسكن ميري آن إلى فندق قريب من شقتنا – أو شقته إن توخينا الدقة. شعرت ببعض الارتياح إذ بت أتساءل بيني وبين نفسي عن موضع نومها في شقتنا الضيقة. بل وحمل إلياس حقيبتها عنها ثم تقدماني نحو الفندق.

الحق أقول إني لم أشعر بالارتياح لاستجابة ميري آن لملاطفات إلياس

حتى أنها تناست وجودي تمامًا بل ولم تعد تبادلني إية كلمات بل انصب حديثها كله موجهًا إليه.

وخلال الأيام التالية تولى إلياس كل شئون زيارة ميري آن لنيويورك وأمور سياحتها بالمدينة الكبرى وزيارة معالمها. وفي اليوم الثالث علمت أنه ذاهب للقياها بدوني حيث دعاها إلى العشاء بمطعم فاخر بل وشرح لي أن في ذلك مصلحة لي في أن أفض يدي من تلك العلاقة بشكل نهائي من دون جرح مشاعر أو خصومات أنا في غنًى عنها.

الثلاثاء 16 حزيران (يونية) 1908

مضى الآن أكثر من شهر منذ زيارة ميري آن ثم مغادرتها لنيويورك. لم أتلق بالطبع أية رسائل منها – بل وحتى حين برحت مسافرة تولى إلياس مهمة توديعها إلى محطة القطار. قال لي يومها إن من الأفضل ألا أحضر معه ليصير ذلك بمثابة بتر جراحي لتلك العلاقة التي قد تعوقني عن إتمام رسالتي على أفضل وجه.

ألحق أقول إنني لم أشعر بحسن نوايا إلياس من بعدها بل وتوترت العلاقة بيننا في ما بعد. ومع ذلك فلم أصرح له بأية مشاعر سلبية تجاهه حفظًا للجميل الذي أسرني به إلى آخر يوم في عمري.

لكنني شعرت برغبة ملحة في السفر والعودة إلى الإسكندرية. وصرت

أعد الأيام التي تفرقني عن لقائك وأسرتك يا روز – بل وكل شبر من أرض مصر. ومع ذلك صرت أخشى مفاتحة إلياس بإحساساتي تلك فأبدو عاقًا لا أشكر له حسن استضافتي وعنايته بي كل تلك السنين.

الأحد 26 تموز (يوليو) 1908

رقص قلبي في صدري. وأحسست بدنو العودة.

فلقد طالعتنا صحيفة نيويورك تايمز بإعلان الدستور العثماني – الذي تقيدت من خلاله صلاحيات السلطان عبد الحميد. فكان هذا الإعلان يمثل كسرًا لطغيانه وظلمه. بل وتحولت الدولة العثمانية خلال الدستور الجديد من دولة ذاتية استبدادية دكتاتورية إلى دولة دستورية شورية.

وفي المقابل فلقد بدأ الجدال يحتدم بين الإسلاميين وعلى رأسهم الشيخ رشيد رضا بشأن ذاك الدستور لاختلافهم بشأن مبادئ اعتبروها ناشزة عن السنن الإسلامية الصحيحة مثل إقرار التعددية السياسية والإطلاق غير المقبول شرعًا للحريات فتعددت مواقفهم بين القبول والرفض.

صارحت إلياس ذات أمسية في لحظة تحينتها بشأن رغبتي في العودة إلى الإسكندرية لأن الوقت قد حان لأن أنقل معركتي إلى هناك من بعد ذلك الدستور الجديد. وفاجأني هو بسرعة استجابته لطلبي – فتبدى لي أن الإحساس بعدم الراحة ما بيننا قد بات متبادلاً.

على أي حال فلقد خفف هذا من وطء لحظات الوداع التي اقتربت – خاصة من بعد استضافته ليَّ في بيته كل تلك الأعوام.

* * *

السادس عشر

الأحد 9 آب (أغسطس) 1908

سماء صحو لاقاني هذا الصباح – بينما جلسنا صامتَين فيما ترجرجنا عجلات الترام المتوجه نحو محطة الميناء.

أصر إلياس على اصطحابي لتوديعي وخاصة أن اليوم كان نهار عطلة عن العمل. وللمرة العشرين ربما – أبديت له شكري وامتناني الأبدي له ثم مصارحتي إياه بأن جميله هذا هو معروف سوف أحمله فوق كتفيّ وإحسانه إليّ بمثابة طوق سوف يلتف حول عنقي إلى آخر الأيام. وللمرة

العشرين نهرني هو عن مثل هذا القول لأننا بمثابة أخوة. قال لي أخيرًا بأنه موقن من أني كنت سأفعل معه نفس الشيء إذا ما كنتُ في محله. فأومأت لكنني ضحكت وقلت:

– كل شيء خلا ما قمت به تجاه ميري آن!

فانفجر إلياس ضاحكًا – لدهشتي. ولكنه لم يعقِّب بكلمة.

لكن كانت تلك العبارة القصيرة بمثابة أفضل نهاية كتبناها معًا لتلك القصة التي ارقتني لبضعة أشهر – والتي أقسمت أنني لن أعود وأذكرها من بعد تلك اللحظة التي أكتب عنها إليكِ يا أختي العزيزة.

فوق ظهر السفينة – للمرة الثالثة.

صرت أتأمل إلياس وبقية المودَّعين يتطأطؤون حتى يتحولوا إلى نقاط طفيفة بزلت بها الرياح المعتادة إلى أن اختفت. بل وحتى تمثال الحرية الهائل ومن خلفه العمائر الباسقة صارت بدورها تتضاءل تدريجيًا إلى أن تلاشت عن ناظري. غرقت برمتها في لجة المحيط الأزرق خلال زمن وجيز وكأنها لم توجد من الأصل.

ومعها خبا صوت ميشلين وأشعارها وتساؤلات ميري آن الفضولية وبسمات إلياس المتخابثة ونصائح بروفيسور وليامز الجادة. تلاشت كلها وغابت بل وكأنها غرقت في أمواج المحيط المتلاطمة. لقد محاها عن الوجود ذاك الريح الهائم يرف فوق سطح المياه. ومن جديد غمرني

سكون الطبيعة الخالصة المحدقة بي عبر كافة النواحي. أحسست كأنني أولد من جديد فطمَّني شعور بالبراءة وكأن خبرة الأعوام الماضية قد محاها الزمن في لحظة فصارت صفحة حياتي ناصعة البياض. حتى أنّي لم أعد أستطيع أن أترك مكاني هنا فوق ظهر السفينة أو أدرك أين موطئ قدماي التالي أو إلى أين المصير.

مكثت هكذا لساعات إلى أن نبهني صوت وقد مالت الشمس أخيرًا نحو المغيب إلى موعد وجبة العشاء فأدركت مجددًا موقعي في هذا الكون. وأين سكنت. وإلى أين أنحو.

ها أنا ذا أعود إلى عالم المشرق ودنياه. وها أن أرتمي من جديد في أحضان أختي روز والعائلة. وها أنا بصدد مجابهة الشيخ رشيد رضا واستعادة أفكار الشيخ الجليل الأستاذ محمد عبده التي كانت دائمًا ما تدعو إلى تطوير التعاليم الدينية العريقة لتتواكب مع العصر الحديث. أتراني أقدر من هناك أن أكتب ما كتبت وأقارعه الحجة بمثيلتها كما فعلت وأنا عالق عند الطرف الأبعد من المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط؟

سوف نرى.

أحيانًا ما تضفي بعد المسافة نوعًا من الطمأنينة والسكينة حيث تدرك أن لكمات غريمك لن تطالك. لكنني تداركت إذ أن حسم المباراة لا بد وأن يتأتى فوق الحلبة على أي حال.

توقفنا في ميناء ليفربول الإنجليزي أولاً ثم أبحرنا جنوباً نحو لشبونة الإسبانية حيث قضينا أقل من يوم. ثم استأنفنا الإبحار جنوبًا حول القارة الأوروبية إلى أن عبرنا مضيق جبل طارق. ثم توقفنا في مالطا لبضعة ساعات وتابعنا الإبحار إلى أن وصلنا ميناء الإسكندرية بعد نحو اثني عشر يومًا.

الجمعة 21 آب (أغسطس) 1908

كانت نوبات السعال تداهمني طوال الرحلة بصورة متقطعة. ولكن ما إن لاحت الإسكندرية بفنارها المحبب حتى شعرت بالشفاء التام. فتوقف السعال وانسابت في أوصالي نضارة عجيبة محت عن جبلتي كل سقم. وكأنني عدت إلى ما كنت عليه يوم عانقت المدينة الحانية وعانقتني قادمًا إليها من بلدتي طرابلس قبل عشر سنوات.

وجدت روز وكرم وميخائيل ابنهما في انتظاري. ولم أتمالك نفسي فبكيت في أحضانهم.

أما عن الإسكندرية فلم ألحظ تغييرًا فيها. وكأنني لم أفارقها يومًا واحدًا – ناهيك عن أربع سنوات وأربعة أشهر كاملة وبلدان شتى وأناس عديدين فرقوا ما بيننا!

احتضنتها واحتضنتني كما يليق بحبيبين تفرقا لفترة ثم عادا فالتقيا. جعلت أتأمل أسارير حبيبتي وأنبش بين قسماتها لأعيد ذكرى كل ملمح افتقدته. ثم عانقتها وأنا أقسم لها بأنني لن أتركها من جديد ثم أرحل بعيدًا عنها مهما كانت الأسباب وكيفما تدور بي عجلات هذه الحياة.

خرجت أتمشى نحو البحر – خليلي الذي افتقدته. ملأت رئتيَّ من هوائه النقي ثم عرجت نحو صبي مائل فوق صندوقة الصفيح الممتلئ بالفحم الناري يشوي من فوقه كيزان الذرة وابتعت لي واحدة ومكثت أقضم بذورها متلذذًا طعمها الذي افتقدته.

الخميس 3 أيلول (سبتمبر) 1908

استغللت شعوري بالمعافاة من مرضي اللعين ذاك فقررت العودة إلى العمل بكل جهد. عدت وأصدرت العدد الأول من الجامعة بعد الإياب بعد مسافة أقل من أسبوعين من عودتي. لكنني تجنبت الموضوعات الساخنة في هذا العدد. بل عدت إلى سبيلي الأول الذي خضت فيه مذ بدأت الكتابة منذ عهد طرابلس وأيام الإسكندرية الأولى – والذي نحَّاني عنه الأستاذ رحمه الله وسامحه حين استفزني بكتاباته الطائفية التي خشيت من تأثيرها على القارئ فتفرق ما بيننا بأكثر مما كنا متفرقين.

كتبت في مقالي اليوم عن التقدم الهائل الذي صار إليه الغرب والذي لمسته طوال سنوات ترحالي. دونت أشرح دأبهم وإخلاصهم في أداء عملهم. ثم شرحت كيف يتقبلون المهاجرين الشرق أوسطيين من أمثال إلياس أنطون وجبران خليل جبران وعائلته مثلما يحتضنون اليهود الأرثوذكسيين ذوي القبعات السوداء وخصَل الشعور المبرومة المتدلية فوق أصداغهم. وكتبت كذلك عن احتضانهم للاختراعات والاكتشافات الجديدة بلهفة وشغف واستثمارهم بالمال والجهد لإدخالها في مضمار عيشهم وعملهم – مثل جهاز الفونوغراف جالب المتعة والإمتاع وجهاز الأشعة الذي يتيح للطبيب أن يرى داخل جسم المريض من دون أن يحتاج لتشريحه. مضيت أيضًا أوَّضح – دون الخوض في تفصيل بالطبع – تسامحهم وسعة أفقهم وضربت لهم مثالًا في كيف احتضنتني عائلة ميري آن وتلقوني في بيتهم كصديق لابنتهم أتت به ليمضي ليلة عيد الميلاد وسطهم. ولكل تلك الأسباب هِبت بأبناء جبلتي أن يحذوا حذو الشعوب الغربية ويتمثلوا بهم أجل كل ذلك لئلا يتركونا نلهث خلفهم من دون اللحاق بهم. بل وحثثتهم نحو مقارعتهم في ذات الميدان حتى نلحق بهم ونسابقهم في مضمار التطور وننافسهم في التقدم ورخاء الإنسانية جمعاء فلا ندع للغرب سبيلاً لأن يطمع في ثرواتنا البشرية وخيراتنا الطبيعية. لأن الدولة العثمانية من بعد صدور الدستور الجديد صارت في سبيلها للتفكك ثم الانهيار – ومن ثم فسوف تترك من ورائها فراغًا سياسيًا واجتماعيًّا إذا لم نملأه نحن فلسوف تتكالب إلى

ملئه القوى الغربية المتعاظمة الشأن من بريطانيا وفرنسا من جهة وألمانيا والنمسا من جهة ثانية.

ثم نبهتهم محذرًا إلى أن الاقتتال في بلاد المغرب العربي ما بين تلك الدول لأشد منوالًا وأعظم نموذجًا لما يمكن أن تؤول إليه تلك الصراعات.

* * *

الأحد 4 تشرين أول (أكتوبر) 1908

"عبد النور" بواب البناية تلقاني بفرح شديد وكأنه توقع ألا أعود مجددًا لشدة المرض الذي كاد أن يفتك بي قبل السفر. باح لي بتعجبه من أمر إبقاء الشقة فارغة من السكان بينما يدفع أجرها "سيدي كرم بك" أو "ميخائيل بك" ابنه بانتظام طوال أربع سنوات.

تسللت بضعة شعيرات بيضاء إلى رأسه وإنما بقيت روحه الشابة وضحكته الطفولية المطبوعة فوق وجهه تضفيان أمانًا إلى المستقبل وسلامًا على الحاضر.

سألني ببراءة عمَّا منعني من الفوز بعروس شقراء من جراء سفرتي الطويلة. فضحكت وأجبته بأن المشيئة الإلهية لم تسمح بذلك.

خرج من الشقة وهو يعدني بالبحث بجدية عن امرأة تناسبني.

لماذا يهتم الناس بأمر الزواج والتكاثر بأكثر مما يحفلون بتحسين أمور حياتهم الشخصية وضمان مستقبلهم كأفراد؟

اطمأننت كذلك إلى حال جريدة روز رغم قلة توزيعها المتوقع – ومع ذلك فأمر إصدار مثل هذه الصحيفة حتمي الآن.

الخميس 22 تشرين أول (أكتوبر) 1908

ثم كتبت أيضًا عن خبر ضم النمسا والمجر لمقاطعات البوسنية والهرسك إليهما من تحت أنف الإمبراطورية العثمانية من دون أن يتحرك السلطان عبد الحميد. وبالطبع أثار ذلك الإعلان المملكة الروسية الضعيفة فأعلنت شجبها له ولكنها أذعنت له على أي حال. ولكنها – من وراء الكواليس كانت تدعم النعرات العرقية المناوئة للنمسا.

الصراعات بين تكتلات الدول تزداد عنفًا وقسوة. أوروبا انقسمت بالفعل إلى غريمين يتصارعان بلا هوادة.

إلى أين تمضي بنا تلك التحالفات؟

أما هنا فعبد النور يصر على إيجاد عروس مناسبة لي طالما فشلت في اصطياد فريسة مواتية هنالك.

تحالفات كذلك!

الأربعاء 6 كانون ثان (يناير) 1909

يحتفل الأقباط (مسيحيو مصر) بعيد الميلاد يوم غد. لذا فهم يذهبون إلى كنائسهم الليلة – عشية العيد. قررت أن أذهب إلى الكنيسة المرقسية العتيقة بمحطة الرمل لأتابع مراسم الاحتفال لأنني علمت بأنها قد أعيد ترميمها قبل سنوات أثناء سفري. وجدت الكنيسة مكتظة بالمصلين رغم برودة الجو هذه الليلة. لكن دفء الصلوات وتصاعد البخور وترانيم المصلين الطائفين حول صحن الكنيسة على إيقاعات الصنجان: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة – التي تنبئ بمولد السيد المسيح ملك السلام وواهب الفرحة والسعادة إلى الرعاة يومها – ومن ثَم إلينا جميعًا فيما بعد. كل هذه نضحت دفئًا إلى قاعة الكاتدرائية القوطية التصميم.

تأملت الأيقونات القبطية الأثرية تزين الجدران من حولي فأدركت أن مثل هذه الشعوب العريقة القدم إنما وجِدت لتبقى مهما مرت بها من

أزمات وشدائد. فسرى في نفسي شعور عميق بالراحة والسلام.

لكن سرعان ما تلاشى كل ذاك حين بدأت التفكر في انهيار العثمانيين الوشيك وتخبط وضعف السلطان عبد الحميد كما بيَّنه الدستور العثماني الجديد الذي بلا شك فُرض عليه. نعم نحن شعوب مرِّست على تحدي مصائب الأقدار وشدائد الأوانيات. ومع ذلك فلا بد لنا من صحوة آنية لأن الزمن تغيَّر والأسلحة صارت أشد فتكًا والتهلكة على الأبواب.

قررت ليلتها أن أذهب إلى القاهرة في أقرب فرصة لألتقي وجهًا لوجه بالشيخ رشيد رضا. سوف ألجأ – وأمري إلى الله – إلى الشيخ لإحياء مبادئ وأفكار الإمام الفضيل الأستاذ محمد عبده في أمور التجديد في الفقه الإسلامي في العصر الحديث. لا أظنه يمانع خاصة حالما يدرك أن الأمر جلل.

الخميس 4 شباط (فبراير) 1909

"أمشير" (كما يدعونه أهل الإسكندرية) جاء هذا العام بصقيع ونوات غير المعتادة مما عجل من نيتي في الارتحال إلى القاهرة. الجو هناك سيكون أكثر دفئًا على أي حال. جلست إلى مقعدي بالقطار أتأمل احتمالي لبرودة الجو بمدينة نيويورك الذي فاق مثيله هنا بكثير – ولكنهم هناك يستخدمون

مواسير التدفئة التي تسري فيها المياه المغليّة من موقد حراري مركزي في كل بناية – كما في شقة إلياس. كما تنتشر المدفأة في صدر كل منزل تحترق في جوفها عروق الأخشاب بصفة مستدامة طيلة فصل الشتاء – كما في بيت أهل ميري آن.

رغم اعتراض روز على رحيلي ثانية فلقد أرسلت برقية إلى الشيخ رضا وتلقيت مثلها في غضون أسبوعين رحب فيها بزيارتي له ووعد بتدبير لقاء نتباحث خلاله في تلك الأمور التي تشغل بالي.

استقبلت "القاهرة" لأول مرة بفرحة طفل قروي نزح لأول مرة إلى المدينة. رغم كثرة ترحالي ومشاهدتي لمدن كبرى عبر السنين إلا أن القاهرة طالعتني بعبق التاريخ المتفرد. وحفلت أحياء وسط المدينة بالبنايات الشاهقة وعربات الترام الكهربي بل وحتى السيارات التي تدور بمحركات كالتي طالعتها بشوارع نيويورك وجدتها تجري هنا وهناك. توجهت على الفور إلى حي "الحسين" العريق حيث دلَّني الشيخ رضا إلى فندق للإقامة بشارع "المعِّز لدين الله الفاطميّ" بجوار مسجد سيدنا الحسين.

وضعت حاجياتي بالغرفة المتواضعة ثم انطلقت خارجًا أطوف بالشوارع الضيقة التي تحف بها محال العطارة والبقول والأقمشة والمشغولات الخشبية والنحاسية البراقة.

الناس هنا مختلفون عن أهل الإسكندرية. الرجال يرفلون في الجلباب

وقد يضعون فوقه معطفًا أو سترة ولكن يلتزم معظمهم بارتداء الطربوش. أما النساء – وهن أقل كثيرًا من الرجال في الشوارع بل وحتى عن مثيلاتهن بأحياء الإسكندرية والشعبية منها فتلبسن ملاءات سوداء لامعة تلتف بجاذبية حول أجسادهن. ثم تعقص الواحدة منهن شعرها تحت مناديل ملونة تزينها كرات مبهجة أو قطع معدنية لَمَّاعة بينما تحرص على أن تظهر فوق جبهتها خصلة من شعرها – حتى وإن غطت أنفها وفاها بستارة مغزولة تتدلى أمام رأسها. لم ألمح سروالاً واحدًا في الطريق حتى أنّي خجلت من ملبسي بالسترة الكاملة ورباط العنق والطربوش بل وخشيت من سوء العاقبة من قِبل الملأ الذين باتوا يحدقون نحوي باستغراب.

وبالكاد اقتربت من ساحة المسجد الواسعة إذ اكتشفت أنهم يُحيون ليلة مولد سيدنا الحسين. قامت مجموعة من الناس بإقامة حلقات ذكر يتم قراءة القرآن بها وقصائد الإنشاد والمدح الصوفيّ في حب آل البيت ومنزلة الحسين حفيد النبيّ. تعجبت من سهر الجمع إلى ما بعد منتصف الليل وهم ينشدون ويتمايلون على أنغام النايات والمزمار وإيقاع الدفوف. تأملت هؤلاء المسلمين من السنَّة الممارسين لعادات شيعية عريقة على بعد خطوات من مسجد الأزهر معقل الإسلام السني في يومنا هذا. لكنني عدت وتذكرت أيضًا أن جامع الأزهر ذاك شيده الفاطميون الشيعة كذلك.

تذكرت ليلة الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح الذي استقبله المصريون

المسيحيون بالغناء ورفع البخور كما كان يفعل أجدادهم الفراعنة عند استقبال ملوكهم الآلهة. وها هم إخوانهم المصريون المسلمون يحتفلون بمولد الحسين شهيد آل بيت الرسول بالغناء والطبول مثلما يفعل الشيعة في العراق وسوريا بينما هم بمعقل السنَّة. أدركت كم مصَّر المصريون هذه الديانات وطبعوها بطباعهم العريقة التي توارثوها عبر التاريخ.

عدت إلى غرفتي المنمنمة منهك القوى ألتمس راحة تعينني على قضاء مهمتي في الغد بنجاح.

السابع عشر

الجمعة 5 شباط (فبراير) 1909

صحوت مبكرًا جدًا إذ نبهني صوت آذان صلاة الفجر الآتية من المسجد القريب. لكنها سرعان ما انتهت فعدت إلى النوم.

أفقت من جديد في الثامنة والنصف فنهضت واغتسلت ووضعت سترتي عليّ خجلاً من كوني لا أمتلك جلبابًا أذوب معه بين جموع الناس.

انطلقت إلى الطريق الخالي نسبيًا من بعد سهر الجموع إلى مطلع الفجر بالأمس. لم يطل الوقت بي كثيرًا حتى وجدت منشدي: دكانًا أتناول فيه

فطورًا طازجًا من أقراص الطعمية (والمدعوة فلافل بين أهل الإسكندرية وإن يصنعونها في شكل كريات هناك) وطبق الفول المدمَّس العائم في بركة من الزيت "الحار" كما يسمِّي القاهريون زيت بذرة الكتَّان فيما أعتقد.

جلست أحتسي كوب الشاي المغموسة به ورقة ريانة من نبات النعناع الأخضر وأنا أتسلى بملء زنبرك ساعتي التي تشير عقاربها بعد إلى الحادية عشر بينما موعدي مع الشيخ رشيد ما يزال قصيًّا فلقد تعاهدنا على اللقيا بعد صلاة الجمعة أمام ساحة مسجد الأزهر.

لم أطق الانتظار بعد أن انتهيت من كوب الشاي وتأملت كل عابر من أمام الدكان. فأطلقت أتبين ملامح المكان في ضوء النهار بعد أن طالعته بعد الغروب بالأمس. أغلقت معظم المحال أبوابها إذ كان الجمعة هو يوم العطلة الرسمية وانصرف المسلمون في العادة خلاله بالتجمع عند الظهر لأداء صلاتهم بشتى المساجد بينما يقصد غير الملتزمين منهم مع أقرانهم من المسيحيين واليهود إلى المقاهي والحدائق المتناثرة هنا أو هناك. اقتربت من حيّ النحَّاسين فوجدت الحوانيت مفتوحة والأواني والمصابيح مدلاة من الأسقف بينما يجلس أصحاب المحال إلى مدخل الدكاكين يدخنون النرجيلة. ألفيت شارة فوق جدار منزل تقول: "حارة الروم" فدلفت إليها مثارًا بالفضول من تواجد مثل هذه في قلب حيّ الحسين وبجوار جامع الأزهر. أما عن العجب العجاب فصار حين عثرت في قلب الحارة على كنيسة أثرية من القرن السادس الميلادي تدعى "كنيسة العذراء المغيثة". نزلت بعض

الدرج إلى فناء يجلس به حارس عجوز. سألته إن كانت الكنيسة مشغولة بالصلاة الآن فهب واقفًا في أدب جم ورد بأن قداس الصباح انتهى الآن ثم أشار إلى جانب بعيد من الفناء إلى مدخل مستطيل ذي بابين خشبيين غليظين وجهني نحوه لأدخل وأعاين الكنيسة إن أردت. بالفعل دلفت نحو صحن الكنيسة الضئيل فإذا بسقفها يسترعي انتباهي أولاً. فالسقف عبارة عن مجموعة من القباب المصنوعة من الطوب الأحمر المُعَدّ من الطميِّ النيلي المتراص. وعلى الجدران وقفت لوحات أثرية للقديسين رُسمت في القرن السادس عشر كما تبينت من التدقيق أسفل اللوحات. كما جذب انتباهي سلمٌ خشبي حلزوني إلى يسار المذبح الخشبي المعشوق يفضي إلى شبه شرفة علوية يقف بها الكاهن ليلقي العظة فيما تخيَّلت.

ثم عرجت إلى حيّ الخيَّامية وكإني انطلقت نحو مدينة أخرى حيث صارت جل المحال به مغلقة – فيما عدا القليل منها واختفى المارة والجائلون من حاراتها الضيقة.

ثم وصلت إلى شارع الأزهر وكان الوقت يقترب من انتهاء صلاة الجمعة. شددت من همة خطواتي فوق الطريق المتصاعد ميلاً نحو المسجد العريق. لمّا وصلت وقفت ألتقط أنفاسي وأنا أدور برأسي متلفتًا أبحث عن الشيخ رشيد رضا.

بوغتُّ بثلة من الرجال المعممين يسير في وسطهم شيخ سمين وصاروا يشدون الخطى نحوي. حينما اقتربوا أكثر تبينت أن الشيخ السمين لم يكن

سوى الشيخ رشيد بلحمه وشحمه. لم أدر كيف أتلقاه – وهل آخذه بالحضن كما في عادتنا نحن الشوام. أم أشد بيده. أو أومئ إليه. أو أنحني محييًّا. أم ماذا أفعل؟ تركت المبادرة إليه – فمد هو يده إليّ وقبض بيدي الضئيلة في باطن يمينه البض فهزها مرتين ثم تركها إليّ. لاحظت التجاعيد وقد زحفت فوق سحنته البيضاء المحمرة والشعيرات البيضاء وقد غطت لحيته المنمقة. بادرته بالسؤال:

– كيف حالك يا شيخ رشيد؟

– أنا بخير يا فرح والحمد لله وحده. وأنت كيف صحتك؟

تعجبت لسؤاله عن صحتي بالذات فأنا لم أُعلم أحدًا بمرضي. لكن قد يكون هذا سؤالًا عابرًا فأجبته:

– بخير والحمد لله.

– دعني أولاً أقدم إليك الشيخ علي عبد السلام والشيخ محمد نور الدين والشيخ مصطفى الشربيني وهذا هو الشيخ محمد زهران – صاحب مجلة الإسعاد يا فرح.

ثم اتجه نحوي وقال:

– وهذا هو الرجل المشاغب فرح أنطون الذي تعرفون كتاباته بالطبع.

فأومأوا متضاحكين. أخيرًا وجدت رجلاً يرتدي سروالاً بالقاهرة في

شخص الشيخ محمد نور الدين! أنحيت رأسي قليلاً أمام كل منهم ودفعت بيدي وسلَّمت عليهم جميعًا. أما هم فتلقوني ببشاشة وترحيب.

لم أدر إذا كنا سوف نذهب جميعًا للقائي الموعود بالشيخ رشيد رضا الذي تخيلته اجتماعًا حميميًّا أنفرد خلاله به فنتبادل الحديث الجاد الذي من أجله حضرت إلى القاهرة – أم إنهم بالفعل سوف يتركوننا لنذهب بمفردنا. لكنني تحرَّجت من سؤالهم بالطبع.

بعد أن انتهى التعارف وتبادل عبارات الملاطفة ساد الصمت لوهلة. ثم انطلق الشيخ رشيد يصرُّح ضاحكًا:

– هيا بنا نتجه إلى "مسمط الحسينية" القريب حتى يصير بيننا عيش وملح. بل عيش وأرز ولحم رأس!

وقهقه مجددًا. لاحظت اختفاء اللهجة الشامية من كلماته فلقد تمصَّر تمامًا كما هو شأن كل وافد إلى مصر.

خجلت من سؤاله وسط صحبه عن جلستنا المرتقبة عله لم يخبرهم بشأن مقصدنا التالي. اتجهت معهم صامتًا إذ كنت أجهل ما هو ذاك "المسمط" الذي ننشده – وإن خجلت بل وترفعت عن سؤالهم. وفي ذات الوقت فلقد امتلأت معدتي بالفول والطعمية التي أكلتهم قبل ساعات قلائل فلم أشته حشرها بتلك الصنوف التي راح الشيخ رشيد يتفنن في وصف شهيتها إلى أصدقائه بينما سرنا هابطين نحو ميدان الحسين من جديد.

في المطعم تعالت صيحات صبي الدكان محييًّا الشيخ رشيد فتبدى أنه زبون مستديم. لم يطلب الشيخ شيئًا محددًا إنما لوَّح بيده حولنا كلنا ففهم الشاب إشارته ثم انصرف.

سرعان ما عاد بصينية كبيرة مرصوصة فوقها مجموعة من الصحون المعدنية ترتفع إلى ثلاث طبقات الواحدة فوق الأخرى. وضعها بحرص فوق منضدة مجاورة ثم راح يحملها تباعًا إلينا وينثرها حول طاولتنا. لم أتبين محتوى معظم الأطباق وإن تبينت الأرز المخلوط بالخبز المبلل الذي يدعونه "فتة" وقطع لحم مدهنة عائمة في صلصة حمراء أنفت من الاقتراب منها. اكتفيت بصحن من الشوربة الساخنة جلست أرشف منها وأن أرقب الرجال يلتهمون بقية صنوف الطعام متغزلين في شهيته.

انصرفوا يتضاحكون وهم يتغامزون عن أفعال رجل لم أكن أعرفه وطرائف المواقف التي حدثت معه مؤخرًا – وهم يزدرون الأكل بنهم وسعادة حقيقية. وفي نهاية الوجبة جاء الشاب ورفع الصحون الخالية ونظف المائدة بقطعة قماش داكنة اللون بدى لي أنها توسخ خشب الطاولة أكثر مما تنظفه. ثم حضر ثانية وهو يحمل صينية أصغر محملة بأكواب الشاي بالنعناع الأخضر الذي يبدو كان علامة أصيلة مميِّزة لهذا الحيّ.

جلست أرشف الشاي وأنا أختلس النظر إلى ساعتي التي كانت تشير إلى الثالثة بعد الظهر.

وفجأة هب الرجال واقفين والتفت الشيخ رشيد نحوي أخيرًا وهو يقول:

– لا تؤاخذنا يا فرح فعلينا أن نلحق بصلاة العصر في مسجد سيدنا الحسين ها هنا.

فسارعت أقترب منه وهمست إلى أذنه:

– وماذا عن لقائنا يا مولانا؟

اتسعت فرائضه حين لقبته بـ"مولانا" فرفع يده أحكم وضع عمامته وهو يقول:

– آه! لقد فاتني أن أقول لك أنني أعتذر عنه لسبب لقائي بهؤلاء الأفاضل اليوم. على أي حال سأمر عليك بالفندق غدًا لنذهب إلى مكتبي ونتبادل الحديث على سجيتنا. أما الآن فيجب أن أذهب للِّحاق بالصلاة. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولم ينتظر مني إجابة بل في لحظات انصرف الجميع ثم جاء الشاب مبتسمًا ليرفع أكواب الشاي الفارغة ثم انصرف.

لم أشهد الشيخ أو أي من صحبه يدفع الحساب فخشيت أن يكون الشاب ينتظر أن أقوم أنا بذلك نيابة عنهم. فأنا لم أدعوهم للمجيء إلى هنا كما أنني لم أتناول سوى صحنٍ وحيدٍ من الشوربة. وفي كل الأحوال

فقروشي القليلة التي تسكن جيبي الآن لن تفي بثمن كل ذلك. عوضًا عن مصاريف الفندق والإقامة لليلة أخرى.

قمت ومضيت فرارًا من المطعم ما إن دار صبي الدكان بصينيته وأكوابه.

سرت متسكعًا بين الطرقات هنا وهناك أتفكر فيما كان يعنيه ذلك اللقاء الغامض وما الذي منع لقائي الفعلي بالشيخ رشيد اليوم. وما هو معنى لقائي بالشيخ وصحبه – مع تقديري لهم ولحسن استقبالهم لي. ثم انصرافنا إلى ذلك المطعم الشعبي بدلاً من أن نسعى إلى لقاء فكري هادئ نسعى من خلاله لتبيان مسارنا الفكري وتصورنا السياسي والاجتماعي معًا وتوجيهنا لهذه الأمة لما فيها خيرها وصالحها.

أمن أجل أكل الفتة ولحم الرأس قدمت من الإسكندرية إلى القاهرة؟ ثم أنني لم أجيء إلا بعد أن خاطبني الشيخ رشيد بنفسه وحدد لي هذا الموعد.

أتقابل الشيخ مع كل هؤلاء مصادفة حقًا؟

يجوز طبعًا. فالناس قد يتلاقون أحيانًا بلا موعد ولا استئذان. الله يكثر من أصدقائه ومريديه إن كان الأمر كذلك. وإلا فاللعنة تنزل على الشيخ رشيد لو كان يتلاعب بي. فما الذي يدعوه للكتابة إلي أن أحضر للقائه يوم الجمعة ولا يعتذر لأصدقائه لأنه صار فحدد ذاك الموعد مسبقًا.

عدت إلى غرفتي منهكًا. خلعت عني ملابسي وارتديت لباس النوم ثم سرعان ما غلبني النعاس.

* * *

السبت 6 شباط (فبراير) 1909

استيقظت مع آذان الفجر مجددًا ولكنني لم أغلب إلى النعاس مرَّة ثانية. شعرت بسخونة ورعشة تجتاح جسمي أعزيتها إلى برودة الجو ونحافة الغطاء. قمت وطويت الغطاء عند منتصفه ثم سجيت وقد غطيت جسمي به مزدوجًا لكيّ أستدفئ. تسلل ضوء الفجر إلى الغرفة فلمحت شرخًا في زجاج النافذة فهببت مجددًا ونزعت بدلتي من الخزانة وعلقتها فوق إطار النافذة لتغطي الشرخ ثم عدت إلى المخدع محاولاً الاستدفاء باللحاف الثنائي ولكنني مكثت أرتعد من برودة الغرفة.

ولسبب كل ذلك لم أستطع أن أروح في النوم بل مكثت في السرير أتفكر في شأن لقائي المرتقب بالشيخ رشيد هذا الصباح.

بعد نحو ساعتين نزلت إلى بهو الفندق - إذا ما تواضعنا وسميناه كذلك. جلس رجل مبروم الشارب خلف المكتب الخشبي أو بالأحرى

المنضدة وكانت عيناه تغالبان النعاس بصعوبة إذ يبدو أنه قد أمضى الليل ساهرًا. أعلمته أنني أنتظر وصول شيخ صديق وأعلمته باسمه – وسألته عن مكان أتناول به فطورًا في مثل هذه الساعة المبكرة. فأشار الرجل بدوره إلى دكان فطايري قريب ووصف لي طريقه ما بين شفتين ثقيلتين تدغمان الكلمات بينهما وعينين ناعستين تكادان أن تغفلا.

خرجت إلى الشارع الخالي. الرجفة ما تزال تعاودني. لكن شمس الطريق مع ذلك أضفت دفئًا إلى أوصالي. وصلت إلى محل الفطائر واتخذت طاولة بجوار الفرن فشاع الدفء وغمرني حتى غابت الرعشة أخيرًا. جاء الفطير الساخن المحلى بالعسل والزبيب والمرشوش بالسكر فأشبع جوعي الذي سببه شرودي ليلة أمس والذي أنساني تناول طعام العشاء بعد أن اكتفيت بصحن شوربة عند الغداء. ومع ذلك فلقد سارعت بالعودة إلى الفندق لئلا يحضر الشيخ رشيد فلا يجدني في انتظاره.

حين وصلت لم يكن الرجل جالسًا خلف المكتب. بل وكان مقعده فارغًا.

انتظرت حتى خرج رجل آخر من حجرة داخلية فسألته عن الرجل الأول فقال إنه انصرف. سألته عما لو كان قد جاءني زائر وشرحت له أمر الشيخ رشيد رضا ونزوله المرتقب. أجابني بأنه لم يلمح مجيء أحد منذ وصوله فشكرته وانصرفت صاعدًا إلى غرفتي بالطابق الثاني. جلست إلى حافة الفراش من دون أن أخلع عني البدلة ولا حتى الطربوش لئلا

تعاودني الرعشة والشعور بالبرودة.

مكثت هكذا متسمرًا في موضعي أنتظر.

ثم قمت بعد فترة طويلة واتجهت إلى الحمام. نظرت إلى وجهي في المرآة فلاحظت شحوبه ولمحت سوادًا يعلو جفنيَّ فأدركت أنني لم أنم جيدًا. وشاربي كان مائلاً واهنًا فعدت إلى الغرفة ودهنته ثم رجعت أبرمه باعتناء أمام المرآة حتى رضيتُ عن مظهره.

ما إن انتهيت حتى قررت أن أنزل من جديد إلى الطابق الأرضي لأتابع أمر مجيء الشيخ رشيد فربما يكون بانتظاري الآن.

وجدت الرجل جالسًا وحيدًا إلى مكتبه يطالع جريدة من جرائد الصباح. سألته بلطف إن كان قد سأل أحد عليَّ فنفى الرجل متأففًا من إلحاحي قائلاً بتهكم:

– وهل تعتقد أنِّي أخبئ زوارك عنك في درج المكتب مثلاً؟ ها أنت ترى المكان خاويًا فلتنتظر حتى تحين الساعة المرتقبة ويأتيك صديقك وأعدك بل وأقسم بأنني سوف أبلغك عنه فورًا!

ابتلعت سخريته المهينة إذ لم أرد أن أستثيره ضدي بينما أحتاج لمساعدته فسارعت وسألته برفق:

– حسنٌ. أشكرك. وماذا تقرأ إن حق لي أن أسألك؟

ولكنه توالى في تهكمه الفظ ورد سؤالي من دون أن يرفع عينيه عن جريدته:

- أقرأ "جرنال" كما ترى!

ولكنني تماديت ملاطفًا:

- أي جرنال يا ترى؟ فأنا كاتب وأصدر جريدة كذلك.

لكن لم تحظ إجابتي بشحذ اهتمامه أو حتى باستجلاب الحدِّ الأدنى من الاحترام الواجب حيال زبون ينزل بالفندق الذي يعمل به. رده المقتضب "المقطم" لم يتح لي فرصة مواصلة الحوار الذي كنت أرومه وأتطلع إليه. ومع ذلك فلقد كان الشخص الوحيد الموجود في تلك اللحظة وبت أحتاج للحديث لأنفث به تأففي من طول الانتظار للشيخ رشيد الذي لم يأت بعد وقد انتصف النهار بي في وحدتي الكئيبة. قررت الخروج إلى المقهى المقابل للفندق فأجلس به وأحتسي شايًا أو قهوة بينما تسبغني ضياء الشمس وحرارتها ببعض من دفئها. حرصت أن أعلم الرجل الوقح بوجهتي رغم صفاقته وتجاسره في حديثه معي.

عبرت الطريق بقوالبه الحجرية المتراصة متجهًا نحو مقهى السعادة.

تتتابع صيحات الباعة الجائلين تنادي وتتغزل في جمال وحلاوة شتى الخضروات والفواكه في الحيّ الآهل بالسكان. وتطل امرأة هنا أو هناك

فتلقي بسلَّة من وراء نافذة يملؤها البائع ثم تعود هي وتسحبها بحبل مربوط بطرف القفة المدلاة.

المقهى كان خاويًا تقريبًا إلا من بضعة زبائن متناثرين هنا وهناك انشغلوا إما بلعب النرد أو تدخين النارجيلة. اخترت مقعدًا فوق الرصيف مغمورًا بنور الشمس ومواجهًا لمدخل الفندق كذلك.

مضى الوقت ثقيلاً ولم تشفع أكواب الشاي والقهوة فلم تسعفني بالصبر اللازم بينما لم تبرح عيناي بوابة الفندق اللعين ولو للحظة. هل يمكن أن يكون له مدخلٌ آخر يا ترى؟ أيمكن أن يكون الشيخ حضر ودلف من خلاله؟ ولكن لِمَ يطرق الشيخ المدخل الثانوي – إن وُجِدَ ذاك أصلاً عوضًا عن الرئيسي؟ ثم حتى إذا وصل إلى هناك فذاك الرجل المتطاول الكريه لا شك سيضطر أن يبلغه بانتظاري له هنا ولن يجسر على اقتراف أي سلوك مغاير.

لكنني سئمت الانتظار أخيرًا ومللت الترقب من مجلسي هنا فوق الرصيف فقررت العودة إلى الفندق إذ خطر لي أن الشيخ رشيد رضا هو من رشَّحه لي في أول الأمر – وربما نزل به من قبل أو تعرَّف عليه أصحابه أو أحد العاملين به حتى وإن لم يتمتعوا بلطف السريرة أو حسن الخلق. محتمل أن أتمكن من العثور على طريق الشيخ فأبادر أنا بالذهاب إليه فأتجنب عناء هذا الانتظار القاتل. ندمت بأنني لم أجلب معي عنوان المنار الذي كنت أراسله عليه إذ لم أتوقع أن أحتاج إليه خلال زيارتي.

وبالفعل رجعت إلى النزل فطالعني وجه الرجل العبوس الذي ما إن رآني حتى أدار وجهه بعيدًا عني.

تعجبت من موقفه إزائي ولكنني اقتربت من مجلسه بحذر ثم تنحنحت وسألته بصوت خفيض:

– لو سمحت هل تعلم أين أجد الشيخ رشيد رضا؟

فتطلع الرجل نحوي وقد ارتسمت فوق وجهه نظرة متعالية ثم سألني بدوره:

– الشيخ من؟

– الشيخ رشيد رضا صاحب صحيفة المنار.

– لست أعرف من يكون الشيخ رشيد رضا ولا صحيفة المدار تلك!

قلت مصححًا:

– المنار. جريدة "المنار" المعروفة. التي كان يكتب بها الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله.

– أنا لا أدري شيئًا عن المنار أو غيرها مع الأسف.

قالها وانصرف عني غائصًا بين أوراق دفتر عريض مفتوح قدامه ملأ صفحة المكتب.

لكنني حاولت ثانية متمسكًا بأي بادرة أمل في العثور على الشيخ لئلا أحظى بلقاء الأستاذ – فقلت:

– الشيخ رشيد هو من هداني إلى هذا الفندق فهو بلا شك معروف هنا. ربما يعرف عنوانه صاحب الفندق إن تكرمت ودلّتني إلى مكانه.

فردني الرجل مشمئزًا بقوله:

– الحاج ليس هنا. أتريدني أن أرشدك إلى عنوان بيته لتذهب إليه وسط أولاده لتسأله عن شيخك المزعوم؟ والله لأفقد وظيفتي في التو والساعة إن فعلت!

لم أجد أملاً من مداومة محاولاتي. فالرجل اتخذ مني موقفًا عدائيًا لسبب ما لا أفهمه منذ طالع وجهي عند أول الصباح – ولا سبيل الآن لتغيير مرأبه عني. ومن الواضح إنه لا يقدر على مساعدتي في جميع الأحوال. ثم إن الساعة تقترب من الثالثة عصرًا الآن فربما يكون الشيخ قد ترك الجريدة الآن. ثم تردد سؤال في ذهني: هل يأتي الشيخ لجامع الأزهر أو لمسجد الحسين لأداء صلاة العصر بأي منهما كما فعل بالأمس؟ وهل يقطن قريبًا من هنا ولذلك تعرف على هذا الفندق المأفون؟ ماذا عليَّ؟ لأتوجه الآن إلى مسجد الحسين القريب وأبحث عنه ثم أذهب إلى جامع الأزهر الأبعد إن لم أصل إليه به. هذا أفضل من مكوثي هنا أتبادل حديثًا منفرًا مع هذا اللئيم!

وبالفعل اتجهت خارجًا نحو مسجد الحسين. مضيت بين سرب الموظفين العائدين من أعمالهم حتى بلغت مرادي.

شجعتني رؤية بضعة رجال ما يزالوا يخلعون نعالهم أمام بوابة الجامع فأدركت أن الصلاة لم تنته بعد. خلعت حذائي مثلهم وتركته بين الأحذية ثم دلفت إلى الداخل فأبصرت بصعوبة لسبب الضوء الخافت – الرجال متراصين خلف الإمام. مكثت في موضعي على بعد خطوات قليلة أرقب كل منهم باحثًا عن شيخي المنشود. بعد لحظات إذا بيد تنقر فوق كتفي فتطلعت نحو صاحبها فأبصرت شيخًا آخر وكان يشير إلى هامتي فأدركت أني نسيت أن أخلع الطربوش من فوق رأسي حين دخلت.

تأكدت خلال لحظات من أن الشيخ رشيد لم يكن بينهم فسارعت بالخروج حتى ألحق به إن كان يصلي بالجامع الكبير.

لم أقدر على السير عبر الطريق المرتفع وبدأت أنفاسي في التهدج. فلما أبصرت عربة حنطور تمر ناديت بالحوذي فشد لجام حصانه وتوقف. شكرته وصعدت مدركًا أن الصعوبة لم تكن تقتصر على ارتقاء ذلك الطريق المتصاعد فحسب إنما في الوصول إلى جامع الأزهر قبل أن تنفض صلاة العصر به وينصرف المصلون ومعهم الشيخ رشيد – إن كان هناك أصلاً.

نفحته قرشًا كاملاً وطلبت منه أن ينتظرني. ثم هرولت باتجاه الجامع وكان المصلون قد بدأوا يخرجون. توقفت أمام البوابة أرقبهم متطلعًا إلى

وجوههم أبحث عن مبتغاي. وللمرة الثانية إذا بيد تربت فوق كفي فخلعت الطربوش بسرعة ناسيًا أنّي كنت واقفًا بساحة المسجد وليس بداخله. أما صاحب اليد فلم يكن سوى الشيخ محمد زهران – صاحب مجلة الإسعاد الذي تقابلت معه بصحبة الشيخ رشيد بالأمس.

فرحت للغاية بلقائه حتى اندهش الرجل – فلم يكن يتوقع تلك البشاشة بعد أن تلاقينا بالأمس ولفترة وجيزة. بادرته بسؤالي عن الشيخ رشيد رضا فأجابني بأنه لم يلقاه اليوم وإن لم يتوقع ذلك إذ كان يوم السبت موعد لقائه الأسبوعي بجماعة الشبان المسلمين.

* * *

الثامن عشر

الأحد 7 آذار (مارس) 1909

منـذ رجوعي إلى الإسكندريـة بعد هذا العذاب الـذي لاقيته على يد الشيخ رشيد وأنا طريح الفراش. فلقد أصابتني نوبة برد مصحوبة بسعال شديـد شرخ صدري فصرت أبصق البلغـم مصحوبًا بشعيرات من الدم الأحمـر. وارتفعت حـرارة جسـدي فأمسيت أرتجـف وطفـق العرق من جسمـي كله فبلل فـراشي. ولولا متابعة عبد النـور وزياراتِك المتتالية لي يا روز لكنت رحت وعبرت ذلك النفق المظلم المؤدي إلى وادي النور.

ولكنني بدأت أتعافى مجددًا من بعد انزياح غيوم الشتاء وحلول دفء الربيع وسطوع شمسه البرَّاقة.

ومع ذلك فلم أقو على مغادرة فراشي طويلاً إذ سرى الضعف في أوصالي يعوقني عن ذلك أو حتى عن القراءة أو الكتابة. بل وحتى كلماتي هذه صرت أخطها بصعوبة.

وكما توقعت لم أتلقَّ من الشيخ رشيد برقية ولا حتى كلمة واحدة يعبر خلالها عن أسفه – ولا أقول اعتذاره عما حدث.

الثلاثاء 20 تموز (يوليو) 1909

ومع كل ذلك – ها هي يد السماء التي لم تهملني يومًا. فلقد تسلمت اليوم خطابًا من الأستاذ عباس محمود العقاد فرحت به كثيرًا. فأعاد الحياة إلى نفسي المنكسرة وضخ مجددًا مشاعر دافئة حميمة نحو قلبي المنكسر. فلقد قال فيه المثقف الكبير:

"... إنك يا فرح أفندي طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة. وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرف الحاضر. وستكون حين تفترق الطريقان خيرًا مما كان في هذا الملتقى المضطرب."

فأومأت برأسي إيماءة شاكرة وكأن الأستاذ العقَّاد ماثل أمامي – وحركت يدي ومسحت بها شعري المبلل بالعرق ووجدتني أتفكر في نفسي:

"ماذا يحفل المستقبل بالحاضر؟ وماذا يبالي السائر للغد بمن كان قبله يقف عند مفترق الطريق؟"

الأربعاء 29 كانون أول (ديسمبر) 1909

تمضي الأيام والليالي متثاقلة.

المرض يشتد مقبضه عليَّ أحيانًا فينهكني تمامًا ثم تأخذه بي الرحمة في أحيان أخر فيدعني وشأني. حتى أني خرجت يومًا لأتمشى عند شاطئ المتوسط وسعيت لأن أملأ رئتيّ بكل ذرة من هواء البحر عند ذاك الصباح الصيفي. ولكنني ما إن عدت إلى البيت حتى ارتميت إلى سريري فلم أقو على الكتابة ولو عن ذاك اليوم الذي ضاع مني تحديد تاريخه سوى اليوم.

كم أنت قاس أيها السل اللعين!

الاثنين 21 شباط (فبراير) 1910

شخص يدعى إبراهيم الورداني قام بالأمس باغتيال رئيس الوزراء بطرس باشا غالي. أطلق الجاني عليه ست رصاصات فأرداه قتيلاً.

واليوم قرر الجناب العالي تشييع جنازة الفقيد في احتفال رسمي على نفقة الدولة في تمام الحادية عشر من مستشفى ميلتون بباب اللوق إلى الكنيسة المرقسية ثم إلى "دير أنبا رويس".

سار الموكب يتقدمه فرسان البوليس المصري ثم رجال المدفعية الإنجليز فرجال الجيش المصري فتلاميذ المدرسة الحربية فشمامسة الكنيسة المرقسية الكبرى ثم العربة التي تحمل النعش تجرها ثمان خيول وتتبعها اثنتي عربة مكللة بالزهور.

نكست الأعلام فوق جميع المبان الأميرية والقنصليات الأجنبية في كل مكان. وودع الركب الألوف من الناس حتى تعطلت كل الأعمال والمركبات وتوقف الترام وأغلقت المصارف المالية في مشهد لم تر له مصر مثيلاً حتى في وفيات ملوكها وأمرائها.

وكـان الجيش الإنجليزي قـد أرسل عربة من عربـات مدفعيته لنقل بطـرس باشا غـالي إلا أن أهل الفقيـد اعتذروا مفضلـين العربة المصرية لتحمل النعش.

أما بطرس باشا فكان قد صرح قبل مصرعه:

".. ويسندون إليَّ حادث دنشواي ولم أكن منها ولا هي مني ولكنها أقوال سادت فأساءت. إن هي إلا غباوة ضعيف صارت وقوة قدير بطشت. فتوسطت بينهما كما توسط المصلح بين المتخاصمين فنالنا من شرها ما نال..." ثم قال:

"فليعلم الله والناس أني ما أوتيت في ذلك ما يضر بلادي."

أما شيخ الأزهر فصرح عبر اغتياله:

"إن ذلك المسيحي عمل من الخير للمسلمين ما لم يقدر على عمله كثير منهم."

الثلاثاء 26 نيسان (أبريل) 1910

اتضح من جراء التحقيقات معه أن إبراهيم ناصف الورداني كان عضوًا في الحزب الوطني ثم أسس جمعية سرية سماها "جمعية التضامن الأخوي".

كان العضو الجديد المنضم إليها يكتب وصيته ثم يؤخذ إلى مكان مجهول وهو معصوب العينين ثم يؤدي "البيعة" بأن يضع يده فوق المصحف والسيف ويقسم على الإخلاص والسرية وإلا كان جزاؤه الإعدام. ثم يخرجونه من المكان حين ترفع عن عينيه العُصابة.

واعترف الورداني كتابة بأنه قتل بطرس باشا كبير الوزراء المصريين لأنه خان وطنه وأن سياساته ضارة لبلاده. كما أعلن أنه لم يكن آسفًا على ما ارتكبه لأنه يراه خدمة في بلاده. وقرر أنه كان مصممًا على قتله منذ أشهر بعيدة.

هذا هو أخشى ما كنت أخشاه أن يتطور ذلك الشعور بالكراهية والنفور من الآخر إلى حد القتل للخلاص منه.

الخميس 19 آيار (مايو) 1910

قال النائب العام عبد الخالق باشا ثروت في مرافعته بقضية اغتيال رئيس الوزراء السابق بطرس باشا غالي:

"الجريمة المنظورة أمام المحكمة هي جريمة سياسية وليست من الجنايات العادية. وإنها بدعة ابتدعها الورداني بعد أن كان القطر المصري طاهرًا منها." وطالب بإعدام إبراهيم ناصف الورداني.

وأصدرت المحكمة حكمها بتاريخ 18 مايو 1910 برفض ما طلبه الدفاع من إحالة المتهم إلى لجنة طبية لمراجعة قواه العقلية حيث ثبت في يقين المحكمة سلامة قواه العقلية. ثم أُرسلت القضية لمفتي الديار المصرية.

رفض المفتي التصديق على الحكم استنادًا إلى الفتوى الفقهية التي تنص على أن: "لا يُقتل مسلمٌ بكافر". لكن قررت المحكمة تجاهل الفتوى سرًا.

وفي تمام الخامسة وخمسين دقيقة تم إعدام المتهم شنقًا.

الأحد 30 نيسان (أبريل) 1911

لم أقوَّ على الكتابة لشهور طوال وإلى اليوم.

مر العام الماضي ثقيلاً من جراء المرض والهزال. وبين كمادات الثلج وازدراد الفواكه وصحون الشوربة التي كنت تعدينها لي يا روز مضى عام كامل من دون أن أخط حرفًا واحدًا.

* * *

قرأت اليوم خبرًا آلمني. أخشى أن أقول إن ما توقعته يحدث الآن. فلقد أدى الصراع الدائر بين فرنسا وإنجلترا من ناحية وألمانيا من الناحية الأخرى إلى أن ترسل فرنسا بجحافل من جندها إلى مدينة أغادير المغربية. ثم ما لبثت أن فرضت الحماية على المغرب برمته. ولقد قنعت إسبانيا بإعادة تقسيم الحدود بينها وبين بلاد المغرب لصالحها بالطبع. وبقيت إنجلترا تراقب رد الفعل الألماني.

الجمعة 16 شباط (فبراير) 1912

تمر الشهور متثاقلة. أشعر ببعض التحسن أحيانًا فأتمكن من مغادرة الفراش – بل والجلوس إلى مكتبي فأتصفح كتابًا أو صحيفة. لكن دوام الحال من المحال كما يقولون. فسرعان ما تنتابني القشعريرة ويتصبب العرق من جلدي بغزارة وتُنهك قواي فأعود مجددًا وأحتمي بفراشي. أتطلع من فوقه نحو سماء الإسكندرية المحبوبة وأشرع في إحصاء السحابات المارة. وأسرح في ابتكار أشكال وأطياف عبر أشكالها فأسرح في حكاياتها التي تحفل

بها وهي تمر عبر نافذتي. كما ترتد بي مخيلتي في أحيان أخرى فيلوح لي وجها ميري آن وميشلين تحدِّثاني بأفكارهما وتحاوران أفكاري المضطربة فألفى وجودهما متحققًا أمامي فأبادلهما الحديث بحديث والأفكار بأفكار.

الخميس 25 نيسان (أبريل) 1912

ها هي تنفرط كريات المسبحة أمامنا.

فلقد أتمت القوات الإيطالية اجتياح مدن فزَّان وبرقة وطرابلس نفسها من تحت أنف الإمبراطورية العثمانية المستأنسة.

إذن فلقد استولت فرنسا على المغرب العربي وإيطاليا على ليبيا. كما استوت إنجلترا من فوق عرش مصر. ذلك بعد أن سيطرت المجر والنمسا على الأراضي العثمانية في البلقان. والبقية تأتي.

السبت 1 حزيران (يونيو) 1912

وصلني اليوم خطاب من جبران خليل جبران أعاد إليَّ ذكريات تلك الصداقة الوليدة التي أنارت لي حياتي يومًا. أعلمني جبران بأنه تلاقى بباريس بالشاعر اللبناني أمين الريحاني وإذ كانت ميولهما واحدة فما لبثا أن صارا صديقين. فرحلا معًا إلى لندن يصحبهما مواطنهما الفنان يوسف

الحويك. ووضعوا هناك ركيزة برنامجهم لنهضة العالم العربي من كبوته. وقد صارت ركيزة برنامجهم حتمية الوفاق بين المسلمين والمسيحيين العرب. وها هو يدعوني للانضمام إلى حركتهم.

ربما لم تذهب كل تلك الكتابات والمحاورات سدى.

اعترف لي جبران أنه أحب امرأة تدعى "ماري هاسكل" وهي التي دفعت به للسفر إلى باريس في أول الأمر للدراسة على نفقتها الخاصة لما ارتأته من نبوغه حتى أنها أضحت تعده من طليعة فوق بشرية تجمعه بين المسيح وبوذا ومايكل انجلو وشكسبير. ورغم أنها لم تكن من الثراء بحيث تضمن له مصاريف السفر والدراسة إلا أنها كانت تضن على نفسها حتى تتكفل به.

ثم باح لي جبران كذلك بأنه وكان بعده بفرنسا إذ بميشلين تفاجئه بالقدوم بحجة زيارة أهلها بباريس. وكيف بلغ به الهوى بأن ينسى الدنيا برمتها ويعرض عليها أن يعيشا معًا. ولكنها أبت إلا أن يتزوجا. أما هو فضن عليه أن يترك ماري هاسكل بعد كل ما صنعته من أجله. ولكن ميشلين أعلمته بحملها منه فرجاها متوسلاً أن تتخلص من الجنين لئلا يفتضح أمرهما وخاصة لدى ماري. وتقنع ميشلين في النهاية فتقوم بعملية إجهاض ثم تعود إلى أمريكا حيث تتزوج هناك.

تعجبت من ذلك القدْر من البوح الحميم الذي غمرني به جبران – وكنت قد حسبت صداقتنا مجرد علاقة عابرة طواها الزمن ثم عبر.

أشاعت كلمات جبران في نفسي نصيبًا كبيرًا من الضياء فوجدتني أتعافى بسببها بذات القدر الذي أمرضني معه ما أضمره في نفسي للشيخ رشيد رضا.

الإثنين 9 كانون أول (ديسمبر) 1912

كتبت مقالًا أودعته إلى صديقي بشارة تقلا – صاحب جريدة "الأهرام" بالقاهرة لأنني لم أعد أقوى على إصدار الجامعة. كتبت فيه عن حركة المصلحين العرب من أمثال جبران والحريري وغيرهم ودعوتهم الملِّحة لتوحيد العرب ونبذ الخلافات بين المسلمين والمسيحيين العرب وبين السنة والشيعة لكي تنهض الأمة وتقوم من كبوتها وقد صارت فريسة لأطماع قوى الغرب الاستعمارية التي قضت بانتزاعنا من القبضة العثمانية الواهنة لتضمنا إلى حظيرتها – وكأننا صرنا خرافًا نساق هكذا من حظيرة لأخرى ومن مرعى إلى مرعى. تحدثت عن حضاراتنا التليدة ومجدنا العريق وهبت بالشعوب العربية لأن تنهض لكي تستعيده مجددًا.

ساءني رد أخي بشارة حين أعلمني رفض الرقابة وخاصة المعتمد السامي الإنجليزي نشر المقال الذي أعده تعدٍ ضد التاج البريطاني.

صار ذلك أول – وآخر مقال لي ترفضه الرقابة حتى من قبل أن أرحل من طرابلس لأجيء إلى الإسكندرية.

الأحد 16 تشرين ثان (نوفمبر) 1913

مر نحو عام منذ كتبت أي شيء جديد. لم يكن المرض سببًا ولا الضعف أو الوهن أو على الأقل لم يكن الداع الوحيد. لكن رفض مقالي أصابني بشيء من اليأس فصرت أؤانس نفسي بزيارة الأهل والأصدقاء – أو التريّض بين جنبات المدينة وحدائقها وتأمل أناسها البسطاء يبيعون ويشترون في الأسواق غير مدركين جسامة الأمور التي تدبرها لهم قوى الشر المحدقة.

ففي نيسان (أبريل) الماضي وقعت بريطانيا وألمانيا اتفاقية لتقسيم مستعمرات الإمبراطورية البرتغالية الآفلة في أفريقيا.

ثم طالعتنا صحف اليوم بأزمة روسية تركية تسبب بها تعيين جنرال ألماني يدعى "ليمان فون ساندر" ليقود القوات التركية الحارسة للقسطنطينية. احتج وزير الخارجية الروسي رسميًّا وأبلغ السفير الروسي في برلين الإدارة الألمانية بأن مهمة ليمان ذاك تعد بمثابة موقف عدائي ضد روسيا. لأنه يهدد مسار التجارة الخارجية الروسية التي يمر نصفها عبر تركيا كما تنذر بالتهديد الألماني إزاء موانئ روسيا المطلة على البحر الأسود.

وكأن العالم برمته قد تحول إلى رقعة شطرنج كبيرة تتحرك عبرها القطع بأيد خفية – بينما نقف نحن مكتوفي الأيدي ننتظر من سيفوز في آخر اللعبة فنصفق له متخيلين أن شأنها لا يعنينا.

الخميس 30 حزيران (يونيو) 1914

كل شيء محسوب.

قام المقاتلون الصرب باغتيال الأرش دوق فرانز فرديناند من الإمبراطورية النمساوية المجرية. احتجت الإمبراطورية بشدة واتجه وزير الخارجية إلى برلين لاستبيان موقف ألمانيا.

الثلاثاء 7 تموز (يوليو) 1914

تعلن ألمانيا تضامنها التام مع الإمبراطورية النمساوية المجرية وتتعهد بمؤازرتها في أي عمل ترتئيه في المستقبل.

وبالفعل أعلنت الإمبراطورية عن مهلة لثمان وأربعين ساعة حتى تستجيب صربيا لشروط عشر أرسلتها. أشعر وكأن النمسا تأمل أن يرفض الصرب تلك الشروط حتى يتسنى لها مهاجمتهم عسكريًّا فيصيروا عبرة لبقية الدول المجاورة خاصة بعد تأييد ألمانيا لها.

لكن بالطبع كان تأييد الإمبراطورية الروسية لصربيا بمساندة فرنسا وبريطانيا يعد بمثابة حائط السد لأي تهور غير محسوب.

الأحد 26 تموز (يوليو) 1914

أعلن القيصر الروسي تقدم أكثر من مليون جنديًّا من القوات القيصرية تجاه الحدود النمساوية المجرية. وفي المقابل تحرك صربيا جيشها. وتعلن النمسا والمجر قطع العلاقات بينها وبين صربيا.

ربنا يستر. الأمور تتسارع كالنار في كومة من القش. أما هنا فيشوب الحذر تصرفات أهل الإسكندرية – أو على الأقل النخبة الذين يطالعون الصحف اليومية حتى ولو من فوق مناضد "تريانون" الأنيقة. فالاحتراس واجب وخاصة في ظل احتلال بريطانيا لأراضينا. الحرب في كل الأحوال لا بد وأن تحمل معها عقبات وخيمة على اقتصاد البلد.

الجمعة 28 آب (أغسطس) 1914

عند بداية الشهر أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا كرد فعل لتحريك جيشها باتجاه النمسا والمجر. وفي نفس التوقيت حثت ألمانيا فرنسا اتخاذ موقف محايد إزاء الصراع القائم. رفضت فرنسا ذلك الأمر وحركت جيوشها ومن ثم أعلنت ألمانيا الحرب ضد فرنسا. بعد ذلك الأمر بيوم واحد أعلنت بريطانيا بدورها الحرب ضد ألمانيا إذ أعلنت حقيبة الخارجية

البريطانية: "إذا ما بدأت الحرب وبقيت إنجلترا جانبًا أمر من اثنين سوف يحدث. إما أن تنتصر ألمانيا والنمسا وتدحران فرنسا ومن ثم تخزيان روسيا – وعندئذ ماذا يكون موقف الحليف والصديق الإنجليزي؟ أو أن تفوز فرنسا وروسيا بالحرب. وفي هذا الحال ماذا يكون موقفهما نحو إنجلترا – بل وماذا عن الهند وبلدان البحر الأبيض المتوسط؟".

إذن فلقد صرنا نحن قطعة من قطع الشطرنج تلك فوق الرقعة. مجرد بيدق أو حتى طابية لا حول لها أو قوة تحركنا أيدٍ قوية هنا أو هناك أو تحرك قِطَعًا أخرى من حولنا لأجل تأمين الفوز الحتمي أو على أهون الأمور من أجل الإبقاء علينا درءًا لشر خسارة الدور. يا له من وضع مخجل صرنا إليه!

وفي مصر أعلن رشدي باشا رئيس الوزراء والقائم مقام الخديوي عباس حلمي هنا بوجوب حياد مصر وأصدر تعليماته بحيدة الموانئ المصرية وقناة السويس كذلك. فلقد كان الخديوي عباس الثاني في القسطنطينية في شهر تموز (يوليو) الفائت حيث تعرض في اليوم الخامس والعشرين من الشهر بإصابات شديدة في يديه وخديه إثر محاولة فاشلة لاغتياله بحسب ما أعلنته الصحف البريطانية الصادرة مؤخرًا.

لكن مع اندلاع الحرب شككت الصحف هنا في ما لو كان الخديوي قد بقيّ في تركيا وتخلى عن عرشه بأمر من بريطانيا.

دفع كل هذا بدوره النمسا والمجر إلى إعلان الحرب ضد روسيا. وكذلك الأمر أعلنت اليابان تضامنها مع معاهدة اتحاد عقدتها مع إنجلترا فقامت بإعلان الحرب ضد ألمانيا.

الجمعة 18 كانون أول (ديسمبر) 1914

أعلنت بريطانيا العظمى اليوم اعتبار مصر محمية لها وقامت بالفعل بخلع الخديوي عباس الثاني عن عرشه وعينت خاله الأمير حسين كامل باشا سلطانًا على عرش مصر. ومن ثم أعلنت السلطنة المصرية دخولها الحرب مع الحلفاء من بعد ما اتضح أن الخديوي عباس الثاني كان مؤيدًا لقوات المحور وبخاصة تركيا. انتشرت قوات بريطانية قوامها من الجنود الهنود لحماية قناة السويس التي كانت القوات التركية تعتزم الاستيلاء عليها لاستعادة سيطرتها على مصر من ناحيتها شرقًا.

الثلاثاء 29 كانون أول (ديسمبر) 1914

شهدت بعينيّ الجنود الإنجليز يجوبون شوارع الإسكندرية من بعد أن قدُم الأسطول البريطاني إلى هنا.

وكذلك الأمر أعلن إدوارد جراي وزير الدولة البريطانية للشئون الخارجية عن استدعاء جنود الجيش المصري الاحتياط بقوام نحو ثلاثة

وعشرين ألفًا وتم تسفيرهم إلى فرنسا للحرب هناك. وهم من الفلاحين الذين تم جمعهم وتسجيلهم في الجيش في شتى القرى المصرية غير مدربين على حمل السلاح أو الحرب.

السبت 27 شباط (فبراير) 1915

مضت إذن ستة أشهر أو أكثر منذ اندلاع الحرب.

الكل يقتل الكل والفوز لمن يبقى على قيد الحياة.

أما أنا فلقد أنهكني المرض وعل جسدي فلم أعد أقوى حتى على الجلوس لأتفحص جريدة أو أقلب صفحات كتاب. وها أنا ذا أعلن عن فشلي في المهمة التي من أجلها اعتقدت أنني جُبلت في هذه الدنيا من أجلها. ربما كان أبي على حق حين طلب مني أن أترك كل تلك الأمور عني وأن أتزوج وأملأ بيتي بالأطفال وأفني حياتي من أجل تعليمهم وتربيتهم حتى يصيروا مواطنين صالحين تفتخر بهم الأمة. ها هو ذا الأستاذ العقاد قد جانبه التوفيق حين قال: "وستكون حين تفترق الطريقان خيرًا مما كان في هذا الملتقى المضطرب." فالحقيقة الجلية هي أنني فشلت فشلاً تامًا في كل ما اضطلعت بالقيام به.

وبالنظر إلى أيامي المنطوية فالموت صار يتربص بي من جميع الجهات. لكنني عازم على أن أنتصر عليه بأفكاري ومصرٌّ على أن أصرعه بكتاباتي.

أما عن الشأن العام فلقد تحققت إذن نظرية داروين التي تقول بأن الصراع ما بين الأجناس ما هو إلا أمر طبيعيّ وأن الأمة الأصلح هي التي تبقى وتندحر الأمم الواهِنة المستضعفة.

نستحق إذن ما آلت إليه أمتنا. طالما بقينا في مكاننا ندور حول أنفسنا نتنابذ في أمر من هو الأصلح ومن يكون الأهم بينا ومن منا اصطفاه الخالق دونًا عن الباقين.

مصيرنا إذن هو البقاء في ذيل الأمم ننعم بما يلقيه إلينا السيد من بقايا طعامه وفضلاته فنلعق كفوفنا شاكرين نعمته علينا ثم نلثم يديه عرفانًا منَّا بأفضاله علينا.

النهاية

انتهيت من القراءة.

أكثر من مئة عام، وكأنها لم تكن سوى مائة يوم فحسب منذ كتب فرح أنطون مذكراته.

حتى من بعد عودتي من الإسكندرية، عكفت أقرأ تلك المذكرات أيامًا وأيام، والتي بهرتني بمحتواها، وصدق مشاعر كاتبها، وطرافة حداثة تلك المعاني التي كُتبت قبل نحو قرن من الزمان، ومع ذلك فهي تتشابه مع تلك الأطروحات بل وتتفوق في جرأتها على مثيلاتها التي تُكتب اليوم. ولذلك، قررت أن أضعها بين أيديكم دون تعديل أو إضافة من

جانبي، اللهم إلا تقسيمها إلى فصول متتالية، حسب مجريات الأحداث.

توقف فرح أنطون عن كتابة مذكراته في مطلع عام 1915 رغم علمي – بعد أن بحثت في شأنه – بأنه عاش نحو سبع سنوات بعدها إلى عام 1922. أي أنه توقف عن كتابتها وهو بعده في بدايات الأربعين من العمر. لابد أنه المرض اللعين – كما كتب – هو الذي حال بينه وبين الاستمرار في الكتابة.

ووجدت خريطة ملاحية إنجليزية قديمة مطوية بعناية بين صفحات الكتاب، فنقلت إليكم صورة منها أيضًا.

هل من الممكن تخيُّل أن ما كتبه فرح أنطون كان قد كتبه بالفعل قبل كل تلك السنين؟ هل يبدو لك أيضًا وكأن الزمن قد توقف بنا، فكأنه لم يكتب كلماته تلك إلا بالأمس القريب؟

طويت صفحات الكتاب، ووضعته بعناية فوق المنضدة أمامي. ثم تطلعت عبر النافذة فإذا بالمساء قد حل. سحبت كلبي وخرجت أتريض في تلك الأمسية الخريفية الرائقة. غاب القمر عن السماء فازداد بريق النجوم ترصع صفحة السماء الداكنة التي لا تفصلها عن عينيَّ سحابة واحدة.

ألح عليَّ خاطر بأن كل تلك النجوم المتلألئة التي أبصرها الآن ما هي إلا نجوم ولت احترقت وتلاشت في الماضي السحيق، في حين لم يصلني ضوؤها المسافر عبر ملايين السنوات الضوئية إلا الآن.

صـدَر للمؤلف

روايــة

زهور بلاستيك

رواية ـ الطبعة الأولى مايو 2006 (الحضارة للنشر)

رواية ـ الطبعة الثانية نوفمبر 2007 (الحضارة للنشر)

خاتم سليمان

رواية ـ الطبعة الأولى يناير 2008 (الحضارة للنشـر)

رواية ـ الطبعة الثانية مايو 2018 (دار غراب للنشر)

رقصة قوس قزح

رواية ـ الطبعة الأولى مايو 2010 (الحضارة للنشـر)

والملائكة أيضًا تصعد للطابق الثالث

رواية ـ الطبعة الأولى أكتوبر 2011 (الحضارة للنشـر)

رواية ـ الطبعة الثانية أكتوبر 2019 (الحضارة للنشـر)

مريم والرجال

رواية ـ الطبعة الأولى مايو 2014 (دار العين للنشـر)

البحث عن كانديد

رواية ـ الطبعة الأولى ديسمبر 2018 (دار غراب للنشر)

مجموعة قصصية

مِهاجرين
مجموعة قصصية فبراير 2005 (الحضارة للنشر)
اليوم الثامن
مجموعة قصصية اكتوبر 2009 (الحضارة للنشر)
سحر الحياة
مجموعة قصصية فبراير 2017 (الهيئة المصرية العامة للكتاب)

أشعار وأزجال بالعامية المصرية

دوايـر
ديوان أشعار بالعامية المصرية مايو 2004 (الحضارة للنشر)
حواديت من كتاب الحب
أزجال وأشعار بالعامية المصرية يوليو 2005 (الحضارة للنشر)
الاسم: مصرية
ديوان أشعار بالعامية المصرية يوليو 2005 (الحضارة للنشر)
فنجان قهوة مع جاهين
ديوان أشعار بالعامية المصرية اكتوبر 2010 (الحضارة للنشر)